حديث الزمان والمكان

مغاورى همام مرسى

حديث الزمان والمكان

مغاورى همام مرسى

رقم الإيداع: ١٣٤٣٥ | ٢٠٠٨

الترقيم الدولي: ٩٧٧-٣٥٧-١١٤-٩

(طبعة منقحة)

مقدمـــة

بعـون مـن الله نتنـاول فـى هـذا الكتـاب حـديثا عـن بعض الوقـائع والمواقـف والاحـداث التـى حفلـت بهـا حيـاة كاتـب هـذه السطور... وما تخلل ذلك وارتبط به من شخصيات وأمـاكن ومـن ممارسات حياتيـة ومـا اتصل بكل هذا مـن أفكار ومشاعـر ومـن دلالات تفصح عن طبيعة نماذج وأنماط مـن واقـع الحيـاة السائدة إبـان تلـك العقـود مـن حيـاة الكاتـب منـذ وعيـه البـاكر فـى أوائـل أربعينيات القرن الماضى وحتـى مـا بعـد عامـه السبعين....وذلـك فيما يتصل بالبيئة المحلية للموقع الذى نشأ على أرضه فى واحدة من قرى الريف المصرى داخل أحد أقاليم دلتا النيـل ... كـذلك مـا يتصل ببعض ما اضطربت به الحيـاة العامـة فـى المجتمـع المصـرى وما كان مما عاشه الكاتب لدى بعض المـدائن والأقـاليم فـى مصـر وما خبره من مواقف وكابده من تجارب وما تحصل لديه من ثمـار ومعطيـات للمعرفـة والـوعى ومـا خـرج بـه مـن دروس وعـبر مـن خلال أطوار ومـراحل رحلة العمر....

ويستطيع القارئ لهذا الكتاب أن يجد فى مطالعته شيئا مـن الحديث عن السيرة الذاتية للكاتب الذى يجتزئ بعضـا مـن تجارب العمـر بـإغتراف دفقـات مـن نهـر الحيـاة التـى عاشـها .. يتنـاول الحديث بشأنها فيما تحمله سطور الكتاب ... كمـا يصادف القـارئ حـديثاً يتصـل بـأدب الـرحلات ومـا يغشـى ذلـك مـن تنـاول موضوعات ترتبط بالسياحة والآثار وبالتراث العمرانى والمعمارى ومن تخطيط المدن وتنسيقها الحضارى...

والقارئ واجد (أيضاً) فيما يطالعه أشياء تتصل بالحياة الإجتماعية والسياسية والإدارية .... وأشياء أخرى تتصل بالتاريخ والجغرافيا وغير ذلك من بعض ملامح الحياة العقلية والثقافية فى مصر إبان تلك العقود فى عمر الكاتب ... كما يلتقى القارئ – فى داخل ذلك الإطار (من الزمان والمكان) – بألوان شتى من البشر ومن البيئات والأمكنة ... يلتقى بصعاليك وعظماء .. بأفراد من عامة الناس فى قاع المجتمع... وبآخرين من الصفوة ذوى المقام الرفيع والمنزلة العالية.. وبين اؤلئك وهؤلاء يلتقى بأناس أصفياء ظرفاء وآخرين أشرار ملاعين وبعض من الأراذل (الحلنجية والبكاشين) .. نماذج من البشر لا نعدم وجود أمثالهم فى كل زمان ومكان ... وهم فى تنوعهم وتباينهم يعكسون (فى التحليل النهائى) جوانب من ذلك المشترك الإنسانى الذى يمثل قواسم مشتركة عن سمات وخصائص عامة تتجسد وتتجلى من خلال هذا أو ذاك من بنى الإنسان وقد تزيد أو تنقص أو تتلاشى لدى اى من البشر إلا أنها تظل تعبيرا عن ذلك الإ مكان المتجدد دوما للآفاق التى يصل اليها سلوك الإنسان ....

هذا ويجد القارئ نفسه – كذلك – بصدد الحديث عن أشياء وأحداث تتصل بمناطق ريفية وبأخرى حضرية وثالثة ... بدوية صحراوية ... ورابعة شاطئية ساحلية.. على امتداد رقعة البلاد فى بر مصر شرقا وغربا وشمسالا وجنوبا.

وأعتقد ان هناك تنويها منهجيا تجدر الاشارة اليه ... وذلك فيما يتصل بالمنحى العام الذى يغلب على كيفية التناول او على تقنية المعالجة لموضوعات الكتاب ... حتى يكون القارئ على بينة

من المنهجية التى يتم من خلالها طرح عناصر ومفردات هذا الكتاب على نحو يتوفر به لدى القارئ ما يؤنس دربه وهو يصطحب الكاتب فى رحلة سندبادياته عبر سنوات العمر...

وأستطيع أن أبلور ذلك فى انتهاج أسلوب التوصيف للأشياء والوقائع وللأحوال السيكولوجية (النفسانية) والسسيولوجية (الاجتماعية) ... وكثيرا ما يتم اللجوء الى الاستطراد فى سرديات تعنى بالتفصيلات وبما يكتنفها من ظلال وإيحاءات ... وغالباً ما يتم إرداف عملية التوصيف بآليات للتحليل والنقد ... وقد يعقب ذلك استنباط الدلالات أو استخلاص الرؤى التى يتطلبها السياق...

وكاتب هذه السطور لديه ولع شديد أو نزوع عميق (كَلِفٌ به محبب إليه) يتصل برغبته المتجددة أبدا فى التنقل والإرتحال بين الأمكنة والمواقع وما يصاحب ذلك من الإستمتاع بمشاهدة حميمة لما يكون بهذه الأمكنة من تكوينات ومرائى ... وذلك على نحو يجعل الكاتب من عشاق الأمكنة والمتيمين بها ... كما ان الكاتب كَلِفٌ بالتنقل فى تأمل الشخصيات والوجوه الآدمية بعامة ... تتأكد لديه هذه السليقة وما يتصل بها من توق إلى البحث عن معان ودلالات وراء الملامح والقسمات ... ومن ولع باكتشاف بل وباقتناص رؤى طازجة – جديدة عما يمكن أن تعبر عنه أو تتشكل به البنية السلوكية لهذه الشخصية أو تلك ... وسيجد القارئ بين ما يطالعه من سطور هذا الكتاب تفعيلاً أو معادلاً تطبيقيا لهذا الذى نشير إليه ... وذلك من خلال كيفية تناول الكاتب لتلك الأمور فيما حفلت به بعض صفحات الكتاب ...

ولا يفوتنى أن أشير بشيئ من الإيجاز إلى بيان مدلول الصياغة التى جاء عليها عنوان الكتاب (حديث الزمان والمكان) ... فمن الطبيعى أن أيا من الوقائع والأحداث والأحوال التى اخترت أن أتناولها فى هذا الكتاب من بين مجمل ما حفلت به حياتى ... أقول إنه من الطبيعى أن أيا من ذلك يحتاج ويتطلب لقيامه وحدوثه ظرفا أو إطاراً زمانيا وآخر مكانيا.. يجرى فى فلكيهما لإتمام تحققه .... وإنه استلهاماً لهذه الحقيقة البديهية فقد جاز أن نتكلم (رمزيا أو مجازيا) عن حديث للزمان والمكان ... على نحو يجعل كلا منهما يفصح عما وقع بين يديه وكان شاهدا عليه...

"وعلى الله قصد السبيل .. وبه السداد والتوفيق"

مغاورى همام مرسى

(اسطنها/ منوفية – مارس ٢٠٠٨)

الفصل الأول
مع الطبيعة فى قريتنا

(١)

من الأمور الأثيرة المحببة إلى نفس كاتب هذه السطور .. والتى يطيب له أن يستجليها فى مرآة الذاكرة.. تلك الأشياء المتصلة بلحظات البهجة الغامرة وبأوقات النشوة العذبة الخالصة المصاحبة للتقلب بين جنبات الطبيعة فى قريتنا أيام بواكير اليفاعة والصبا فى سنوات الاربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى .. كان ذلك الإقبال الحميم على الحياة المفعمة به أنفسنا نحن أبناء ذلك الجيل من غلمان القرية وفتيانها ... كانت تسكننا تلك الرغبة الجارفة فى معاشرة مباهج الطبيعة والتنعم بمحاسن المرائى الخلابة اليانعة على امتداد الأفق البعيد المتاخم لبلدتنا .. وما يصاحب ذلك من الإنسياح بين الحقول الخضراء التى تغشاها الجداول المطرزة شطآنها بالسواقى والأشجار .. ومن ارتشاف بهاء تلك الطبيعة واستطابة رضاب مفاتنها الطازجة ... كنا نعب وننهل ألوانا شتى من روائع الطبيعة ومباهجها ... نقتنص ثمار تلك التجربة المدهشة الحلوة فى اى من ساعات النهار او الليل على السواء ... وكانت أطيب وأمتع تلك الأوقات .. ما نعيشه سويا فى جماعة صغيرة العدد من الأقران والأصدقاء ... نتقلب بين مواويل النهار وأسمار المساء وحكاوى الليل ... نزرع الآفاق .. نجوب الطرقات وشطآن الجداول وسط الحقول الفسيحة .. فى

تنفس الصبح عند إقبال موكب النور جهة الشرق .. وفى صحوة مختلف مظاهر الحياة واحتشادها وتدافعها من صخب احتدام حركة الحياة ... وفى ضوء القمر المتلألئ فى (العلالى) وهو ينشر نوره الفضي الوديع الحالم فوق الحقول وعلى أسطح منازل القرية وبين طرقاتها وساحاتها بما يغرى ويحفز على السهر والسمر وعلى لعب ومرح الأطفال والصبية والشباب .. وهم فى لهوهم البرئ وفى شقاواتهم وغبطتهم وتضاحكهم يسعدون بكل ذلك وكأنهم يستحمون بضوء القمر ويأتنسون بما ينثره فوقهم من طمأنينة الخاطر وسكينة النفس ... هذا بالنسبة لأولئك الذين ينفقون جانبا من أوقات لياليهم المقمرة بين أحضان القرية وسط مسالكها ودروبها وساحاتها ... أما هؤلاء الذين يطيب لهم قضاء ساعات من الليل للتنزه والمرح والاستجمام وسط الحقول بين يدى تلك البطاح النضرة يانعة الإخضرار – خاصة فى الليالى المقمرة - ذلك كما كان يحدث لكاتب هذه السطور فى صحبة بعض من أقرانه ورفاقه ... فقد كنا ننتشى ونسعد كثيراً بحالة الحضور الحميم الجميل فى قلب ذلك العالم السحرى الخلاب الذى يمتد اتساعه الهائل إلى آفاق رحبة طليه بازخة الفتنة والروعة.... بين أصوات محببة رخية شجية تصافح أسماعنا ... تتناهى الينا من كل جانب ... تبوح بها السواقى ممتزجة بترجيعات الأطيار التى تتنادى من فوق هامات الشجر ... تغمرنا نسائم رقيقة معطرة بأريج الأزاهير وبشذى براعم النباتات الغضة.... وكنا لكل هذا الذى حولنا وفى أعماقنا كأننا نعيش عرسا بازخ البهجة من جراء إحتشاد الطبيعة ببهائها

العبقرى ومفاتنها العذبة ... بل وكأن الطبيعة قد أعدت نفسها وتجملت فى أزهى حللها لتحتفى بنا... وتمضى بنا الساعات هكذا تتقاذفنا البهجة من فرط نشوتنا ... كأننا من عظيم هناءتنا الغامرة قد فارقنا الإحساس بالزمان والمكان وصرنا أرواحا هائمة فى أجواز الفضاء ... أو كأننا قد تحولنا إلى كائنات أثيرية مجنحة تسبح فى فضاء فسيح فوق الكائنات .. يخامرنا شعور طلى كأننا قد حيزت لنا الدنيا وصرنا نملك الأشياء من حولنا .. ونظل هكذا – بين يدى الطبيعة – فى لهو برئ وقفشات وضحكات.. وفى مزاح قد يصل بنا إلى صراخ صاخب من جراء تفجر النشوة الغامرة – فى أعماقنا .. وربما امتدت بنا البهجة فى بعض الليالى حتى تطالعنا بواكير هالات الضوء ساعة السحر تفصح عن قدوم يوم جديد ... فنعود أدراجنا ... كل إلى منزل عائلته ... ونحن فى غبطة وحبور ... ثملنا مما انسكب فى أعماقنا من نشوة خالصة قد انسابت حلوة عذبة رقيقة فى نفوسنا ... ونحن على هذه الحال نكون قد شرعت تداعب رؤوسنا مقدمات الكرى وقد صارت أحداقنا مسهدة ومآقينا مثقلة بفعل خدر زخات وسن يدغدغ وعينا ويخامر يقظتنا ويسلمنا إلى حالة نشوانة ثملة هى ما بين اليقظة والنوم ... حتى إذا آوى كل منا إلى فراشه خلد إلى نوم هانئ عميق...

(٢)

وفى مشهد آخر من مشاهد التجارب اليومية فى حياة فصيل من أهل القرية ... أولئك الذين كانوا فى الأربعينات يمثلون البنية الرئيسية والسواد الأعظم من السكان ... كان هؤلاء

بحكم حياتهم الفطرية – شديدة البساطة والتواضع – وبحكم جدلية علاقتهم وارتباطهم بمفردات الحياة من حولهم ... كانوا مندمجين فى عناصر الطبيعة بالقرية – تلك الطبيعة التى هى بدورها وبمختلف خصائصها منصهرة فى ذوب نفوسهم .. كما تجيئ أفعالهم وتصرفاتهم فى عفويتها وطابعها (الخام) الذى هو غفل من التصنع أو التجمل .. تجيئ متماهية مع الطبيعة محاكية لبعض خصائصها ... مما يجعلنا ونحن نتحدث عن (لقطة) أو عن مشهد من حياة هؤلاء الفلاحين .. فإننا نظل – بطبيعة الحال أو بالضرورة – فى إطار الحديث عن (الطبيعة فى قريتنا) فهيا بنا الى تناول ذلك المشهد:

ان أشجار التوت والكافور والصفصاف فى بعض مواقع انتشارها ... تجعل من أحضان السواقى بيوتا لها ... وفى مواقع أخرى على شطآن جداول مياه الرى عند بدايات الحقول .. تكون تلك الأشجار بفيئ ظلالها عند احتدام القيلولة وقت الظهيرة أيام الصيف .. تكون ملاذا طليا يهجع اليه الكادحون فى الحقل .. يستلقون بأجسادهم المكدودة فوق التراب او الحصى (الدقيق الطاهر النظيف) ويسلمون أنفسهم لحالة من الدعة والاسترخاء .. ينعمون خلالها براحة مستطابة لذيذة هانئة .. يعقبها تناول طعام الغذاء ثم يستأنفون وقت (العصارى) ما يكون قد تبقى من عمل بعضهم فى الحقول .. وفى وقت الأصيل هذا .. قد ينصرف بعضهم الآخر إلى شيئ من التسلية والمتعة بالانخراط فى لعب (السيجة) أو بإعداد مواقد يشعلونها من خشب الأشجار لإنضاج ما

يطيب لهم تناوله من (كيزان) الذرة المشوية الشهية ... وما أن تنحدر الشمس إلى المغيب ويبدأ قدوم المساء حتى يشرع أولئك وهؤلاء من الفلاحين فى مسيرة العودة إلى منازلهم بالقرية ... وياله من موكب يومى حافل ... تحتشد فيه الطرقات المتاخمة للجداول الصغيرة والترع بقوافل العودة التى تصب كل مجموعة منها فى أحد المداخل الرئيسية للقرية ... وكان المشاهد أو المتابع لأى من تلك المداخل أو المحاور التى تمثل أذرعا مروحية للقرية... يجدها وقد احتشدت فى (المغربية) عشية أيام القرية صيفا كان أم شتاء.. احتشدت بذلك الركب الزاخر من الناس .. راجلين أو على ظهور دوابهم ... ويضم ذلك الركب من الفلاحين وبعض أبنائهم ... يضم معهم أعدادا غفيرة من الأبقار والجاموس والجمال والماعز والأغنام وكانت تلك العجماوات جميعاً تتبدى عليها أمارات الشبع بما يجعلها بطانا على نحو تسير به كل منها تتبختر أو تتمايل بسبب ما امتلأت به بطونها من نباتات الحقل .. سواء الطازجة الخضراء منها أو الجافة المكونة من التبن المخلوط بالردة والفول او (بالكُسب) .... يسير ذلك الموكب فى تدافع سلس لين ... تغشاه روح آمنة هنيئة راضية .. وتلفه سحابات رقيقة هى مزيج من غبار الأتربة المتصاعدة بفعل حركة السير ذات الكثافة الممتدة المتلاحقة ومن الأدخنة السابحة فى الفضاء الآتية من موائد و(كوانين) منازل القرية ... تلك (الكوانين) التى كانت توضع فوقها أوعية انضاج وطبخ أطعمة وجبة العشاء والتى كانت تزداد فى عملها أيام المواسم والأعياد وفى أيام شهر رمضان... وما هو إلا وقت يسير حتى تنسرب تباعاً

فلول ذلك الموكب اليومى الحاشد فى المساء ... فيقوم كل فلاح بالدخول إلى داره ومعه ما يكون من بعض أبنائه وما يكون فى حوزته من أنعام ودواب ومهمات حقلية ... ثم يتبع ذلك تناول وجبة العشاء ... تلك الوجبة الرئيسية الأثيرة عند غالب أهل القرية من الفلاحين ... فإذا كان الوقت صيفاً تهرع الأسر إلى أسطح المنازل فى الهواء الطلق لتناول طعام العشاء وما يعقب ذلك من الاضطجاع والاسترخاء بعض الوقت ... أما إذا كان الوقت شتاء ... فعادة ما يكون تناول العشاء داخل المنزل إلتماسا للدفئ خاصة فوق (الفرن) الذى يكون بأحد حجرات المنزل التى تجرى تدفئتها غالب ليالى الشتاء ...

وذلك النموذج الذى يحكى إطلالة على يوميات فلاحى القرية إنما هو بمثابة أحد أوجه ما كان يجرى من حركة الحياة فى بلدتنا .. تلك الملحمة اليومية الباستورالية (الريفية) المحتشدة أبدا بالكفاح الزاخرة بدلالات دأب الإنسان للانخراط فى مواصلة الكد والسعى من أجل تجدد الحياة وتحقيقاً لسيرورة عمار الأرض من خلال ديمومة تلك الجدلية الكونية فى تفاعلها الحى الموصول بين الإنسان والطبيعة فى كل زمان ومكان... والتى من خلالها تتخلق تجربة الإنسان على هذه الأرض.

(٣)

وقد كان من بين أبعاد تلك الجدلية القائمة بين الطبيعة فى قريتنا وأولئك الذين يتقلبون فى جنباتها و عناصرها من غلمان وفتيان – كان كاتب هذه السطور واحداً منهم – نقول

.... إن كل ما حولنا (ونحن فى ذروة توهجنا واندماجنا مع الطبيعة) كان يحرضنا على حب الحياة والإقبال عليها .. يصاحب ذلك – بالنسبة لبعضنا على الأقل – إلحاح هاتف داخلى غامض يدعو الواحد منا للغوص فى حنايا الكون إلتماسا لفهم شيئ من أسرار الوجود لعله ينكشف له وميض يميط اللثام عن بعض ما خفى من حقائق الحياة .... كانت عقولنا الغضة وأفئدتنا الخضراء مفعمة بأحلام وتطلعات غامضة... ثملة بأشواق مبهمة تضطرب بها نفوسنا وهى تتوثب فى نشوة مشرئبة فى احتشاد لمعانقة أشياء هلامية أثيرية تتلفع بأردية كثيفة للمجهول ....

وكم كان يروق لكاتب هذه السطور – أيام وعيه الباكر – أن ينعطف جانبا مع نفسه فى بعض من لحظات التأمل والصفاء الروحى ... يحلق بعقله فى مدارات وأفلاك سحيقة وراء الآفاق والحجب .. يعالج حوارات صامتة داخل عقله الغض الذى لم يكن قد تسلح بعد بغير بداهة الفطرة المتوثبة ولعا باصطياد ما يتاح له من دلالات تنكشف أو تنبجس بها بعض أسرار الحياة جراء طرح أسئلة كونية حياتية لا تصل – غالبا – إلى غير إجابات مستحيلة ... كل ذلك ينطوى على لحظات قد تكون أحيانا مضنية ولكنها – فى كل الأحوال – طلية مدهشة مبهرة ... ولم يكن ذلك – لدئ كاتب هذه السطور – إلا مقدمات تستشرف الإفصاح عن ذلك الولع الذاتى (لدى الكاتب) فى توقه المتجدد أبدا للاقتراب من حالة الوعى الكونى الذى يشرئب الى جوهر الحقيقة أو إلى المطلق المتصل بسر الأسرار ... شيئ أشبه بما يقال عن حالات

الوجد الصوفى ... أو قل إنها حالة تسامى إلى درجة من الصفاء الروحى.

كما أن هناك وجه آخر من مظاهر العلاقة بين الذات والموضوع .. أو بين الإنسان والطبيعة فى قريتنا .. وذلك متجسد فيما يمكن اعتباره أحد معالم تجربتى الذاتية العميقة بما يفصح عن أثر النشاة فى البيئة الريفية على تشكيل بعض مكونات بنية الوعى والإدراك لدى كاتب هذه السطور .. فقد كنت أشعر وأنا أتقلب بين أرجاء الطبيعة فى قريتنا... كأنى أتماها وأتوحد معها .. كأنها بكل جمالها وجلالها قد ذابت فى أعماقى .. أو كأنى أنا الذى قد ذبت فيها وتحقق فنائى فى أعماقها .. ومن خصالى وسماتى الذاتية أننى عاشق للطبيعة .. متيم مفتون أبدا بسحرها الخلاب ... ومن تجليات ذلك عندى أننى عندما أنخرط بين أرجائها وأتقلب بين أعطافها وثناياها وتتنداح قدماى فوق دروبها ومسالكها ... يخامرنى شعور طلى شفيف عميق يجعلنى فى توحد حميم مع ما هو فى معية وعيى من أشياء وموجودات وكائنات ....حتى كأن كل من أقابلهم من بشر وما تصادفه عيناى من زروع وأشجار وجداول ومن أطيار وفراشات تسبح فى الفضاء ... ومن قطعان الحملان الوديعة الطيبة .... كأن كل أولئك وهؤلاء من البشر ومن الأطيار والأنعام والأشياء ... كأن أيا منهم أحد أصدقائى وأحبائى بل أحد أخلائى الحميمين الذين تربطنى بهم علاقة أنس ومودة كما لو كانت منذ ألف عام وهكذا ... أجد نفسى وقد أتسع قلبى وامتدت جوانحى وسائر أعطافى لأضم وأعانق الكون من حولى .... أهنأ به فى قرارة نفسى وفى أعماق

ضميرى ... حتى كأن ذلك تلبية لهاتف غامض عميق فى طوايا النفس إستجابة لنداء الفطرة فى سعيها المتجدد لتحقق منشود يتم به ذلك التكامل والتوحد بين مفردات الكون وعناصره بالرغم من تنوعها الكبير وتباينها الهائل ..

ونختتم الحديث فى هذه الفقرة بالإشارة إلى أن ذلك المشهد البديع الرائع لتألق الطبيعة المترعة بهاء وجمالاً – تبارك الله العظيم الذى أنشأها وأحسن خلقها – كأن تلك الطبيعة ونحن – غلمان وفتيان قريتنا – فى قلبها وفى علاقة جدلية حميمة معها ... كأنها تريد أن تقول لنا شيئاً أو أشياء لا ندرى على وجه التحديد كنهها ... وكم تمنى بعضنا لو كان فى الإمكان أن يقوم تحاور بين أى منا وبين أحد فرائد تلك الطبيعة المفعمة بوافر من الدلالات الخفية الكامنة .. لعلنا نلم بشئ من أسرار الوجود المستكنة فى ضمير الكون .... ولكن الطبيعة فى صمتها هذا الأزلى .. كأنها تحدونا وتحثنا على أن نستنطقها لتبوح لنا ببعض ما هو قابع فى دخائلها .... وكأننا ونحن فى ذلك الموقف المشبوب باللهفة والتطلع إلى ما وراء الطبيعة ... علينا أن نحاول ونحاول نحن الذين يشب فى أنفسنا ولع جارف لخوض مغامرة اقتحام المجهول من أجل تلك اللحظة الأثيرة .. لحظة الدهشة والكشف لاقتناص بعض من العلم بالأشياء واغتراف شيئ من المعرفة والولوج إلى آفاق من الوعى الكونى ... وقد يخامر القارئ شيئ من الإستغراب حتى لكأنه يمكن أن يقول ... ما بال الكاتب يحدثنا عن غلمان وفتيان لم تزل عقولهم غضة ولم تكن قد نضجت بعد ينشغل بعضهم

بالغوص فى معترك أمور تتجاووز مداركهم ... ولتوضيح ذلك نقول ... إنه من الثابت سيكلوجيا حسب حقائق النمو النفسى ... أن من خصائص وسمات تلك المرحلة العمرية ... أنه يغلب على أفرادها النزوع إلى حب الإستطلاع أو الفضول (curiousity) والرغبة فى إكتشاف المزيد من حقائق الحياة والبحث عن تفسير وفهم كثير مما حولهم ... وان كان أى من هؤلاء ليس معنياً أو مؤهلاً ذهنياً بطبيعة الحال أن يخرج بشئ من وراء تأملاته أو شغفه هذا الذى تحدثنا عنه بالوقوف على نواميس تحكم حركة الحياة والكون.

(٤)

ونستطيع القول أن ذلك الاستمتاع بمباهج الطبيعة والتنعم بمفاتنها ومعطياتها بالنسبة لاولئك الفلاحين البسطاء فى قريتنا بل بالنسبة لأهل الريف بعامة... كأن ذلك الخير العميم نوع من الجائزة توفرها العناية الإلهية .. عطاء ميسرا مباحا دون مقابل لهؤلاء الكادحين الذين هم فى غالبيتهم وبين سوادهم الأعظم يعانون ويكابدون (فى كثير من شئونهم وأحوالهم) ألوانا من البؤس والشقاء وصنوفا من الضنك والحرمان خاصة إبان تلك العقود البعيدة من السنوات حول منتصف القرن العشرين فيما كانت عليه حياة أهل الريف فى المجتمع المصرى من تفاوت جسيم بين مستوى الحياة فى الحضر وبين ما كان قائما بقرى الريف ..

وقد يثور تساؤل حول أبعاد معادلة تبدو غير متسقة عن إمكان الجمع فى آن واحد وفى سياق زمانى ومكانى بعينه فيما

يتصل بفرد من الأفراد أو لدى جماعة من الناس الجمع فى مزيج من سعادة وشقاء أو من غبطة وتعاسة حتى يكون هناك حضور متحقق فى إهاب واحد يضم عناصرا وأسبابا متضادة متنافرة .... نقول إن تلك المعادلة كانت ممكنة فعلاً بالنسبة لأولئك الفلاحين البسطاء ... فقد أتيح لهؤلاء (منذ اكثر من نصف قرن) فى حياتهم اليومية ساعات من الرضا والحبور اقتنصوها من بين حادثات الأيام والليالى مع أنهم كانوا يتقلبون فى ثنايا حياة يغشاها كثير من أسباب البؤس والشقاء التى استوطنت الريف المصرى منذ أزمان سحيقة ... ونؤكد أنه – فى ضوء الواقع العملى المتحقق – لا غرابة فى قيام مثل تلك المعادلة الصعبة .. فإنه فى خبرة التحليل النفسى .. وفى ضوء ما هو معلوم ومأثور بشأن طبائع النفس البشرية التى هى فى كثير من أحوالها تند عن الانخراط فى قوالب السياقات المنطقية أو الفرضيات التى تدخل فى إطار التوقع المبنى على المنطق الصورى .. بل أن لها من طلاقة الحركة ما يجعل لها متسعاً من فضاء رحب تصوغ من خلاله إمكانات للتحقق بغير حدود وبغير عوائق أو قيود.. ومن ثم فإن لحظات البهجة الصافية والإستمتاع العميق ببهاء الطبيعة وبطلاوة جمالياتها .. ربما يكون ذلك متاحا للتحقق لدى الريفيين من سكان القرى بالرغم من شظف العيش ومن ظروف حياتية بها غير قليل من الحرمان والمعاناة .. بل ربما يكون واردا أن يقع لهم ذلك بسبب تلك الظروف الصعبة ومن جراء وجودها فى حياتهم فى ضوء نظرية التعويض .. وفى ضوء البحث التلقائى عن مجالات للخلاص أو للتخفف من وطأة تباريح الأيام

وجراح الليالى ... ليتحقق لهم من وراء ذلك حالة من التوازن الداخلى ... وهذا وذاك من قبيل الآليات الدفاعية (Defensive Mechanisms) التى تكون تلقائية لا شعورية .. وهى تعمل على إزاحة التوتر وعلى التخفف من الشحنات والضغوط النفسية الزائدة ... ومن الشواهد المتحققة الثابتة فى واقع الحياة الإجتماعية بالريف المصرى أن مثل هذه العلاقة الجدلية فى دراما مغالبة الظروف الصعبة قد كونت لدى كثير من أبناء الريف خصائص إيجابية فى بنائهم الداخلى مما جعلهم أكثر جلداً وصبراً على إحتمال مكاره الحياة .. وأكثر قدرة على تجاوز المشاكل والأزمات .. ومثل هذه الخصال كانت مع غيرها من الشمائل وراء حالات التفوق الباهر والفذ الذى ساعد فى تحقيق إنجازات ونجاحات كبرى أبدعها نفر غير قليل من أبناء الريف الذين صار منهم رواد للنهضة والتنوير والتقدم (خاصة إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين) — كما كان على إمتداد القرن الماضى من أبناء الفلاحين وسكان الريف كثير من كبار المسؤلين ومن القادة والحكام والزعماء. ومن جانبى .. أود أن تكون سطور هذه الفقرة بمثابة أنشودة أو ترنيمة صادقة خالصة للإنسان فى قريتنا .. لبنى بلدتى الطيبين البسطاء الأنقياء حينا والجارحين التعساء بشقوتهم وفظاظاتهم أحيانا .. إلى أولئك وهؤلاء الذين ينتظمهم ذلك التراوح الأبدى بين الخير والشر .. الذى هو قسمة مشتركة بين الناس جميعاً فى كل زمان ومكان .. وإن اختلف ذلك كماً ونوعاً أو من ناحية الكيفية والمقدار.

كما أود أن تكون هذه السطور بمثابة معزوفة باستورالية (ريفية) يطيب لى أن تجد لدى البعض من أهل قريتى شيئاً مما يحملهم على أن تطرب له أفئدتهم وتنتشى به نفوسهم .. الأمر الذى قد يدفع بهم إلى استجلاء ذلك النبع الصافى الذى يتدفق به نهر الحياة بين أيديهم ومن حولهم ... وإن كان التدافع اليومى اللاهث لحركة الحياة بإلحاحه بل وضراوته أحياناً لا يدع مجالاً أو ظرفاً ملائماً لاستطابة رضاب ذلك المنهل العذب الذى هو من العطاءات الربانية التى أغدقها الله على أهل القرى فى مصر المحروسة.

(٥)

وفى نهاية هذا الفصل من الكتاب .. نود أن نختتم القول بحديث يتصل بجانب من جوانب فلسفة الجمال ... فعندما عرضنا فى هذا الفصل وصفاً لبعض العناصر والمفردات التى تزخر بها مفاتن الطبيعة فى الريف .. وتحدثنا عن مدى الانبهار والإفتتان ومدى الإحساس العميق بالنشوة الحسية والروحية لدى غلمان وفتيان بالقرية من جراء ما كان يغمرهم ويتدفق فى أعماق نفوسهم من مشاعر فرحاًوتوهجاً مشبوباً فى دخائلها بفعل تكوينات ومعطيات باهرة تزخر بها الطبيعة .. تلك التى ينساب سحرها إلى نفوسهم على نحو تكاد تضيئ به جوانحهم وأفئدتهم لانكساب هالات ألقه فوق مرايا سرائرهم النقية الصافية..

ولكى يكون لحديثنا هذا نوع من الدقة والمصداقية اللازمتين بشأن ما كان يقع ويحدث لأولئك الفتية من أهل قريتنا بالكيفية التى أشرنا إليها آنفا ... نقول أن مثل ذلك الولع بالطبيعة وذلك القدر من تأثيرها المباشر فى وجدانهم ... لم يكن هذا يحدث على ذلك النحو لكل رفاق وأقران كاتب هذه السطور .. فضلاً عن أن يحدث ذلك – بنفس المقدار – لكل من يعيشون وسط الريف بتلك القرية أو بغيرها من القرى ... بل لا يحدث – بطبيعة الحال – أن جموع الناس بعامة فى أى زمان وأى مكان على إختلاف البيئات والأماكن .. لا يحدث أن تكون مثيرات الإحساس بالجمال (سواء فى الطبيعة أو فى أى إبداع فنى) من القواسم المشتركة بين عموم البشر ... وهى ليست من الملكات والاستعدادات الشائعة بين جموع الناس .. بل يتفاوت حظ الأفراد من توفرها لديهم .. بما قد يصل إلى تهافتها واضمحلالها عند البعض حتى أنها تكاد تصل إلى ما ينم عن غيابها وتعطل وجودها عند البعض الآخر ... ويفضى بنا هذا الاستقصاء إلى ما يؤكده (فى هذا السياق) بعض المفكرين والنقاد فى مجال علم الجمال (Aethetics) من أمثال (كروتشى – ريتشاردز – إمرسون) ويستطيع الذى يود من القراء أن يتوسع فى الإحاطة بمزيد من التفصيل فى هذا الموضوع أن يرجع إلى كتاب (علم الجمال والنقد الحديث) لمؤلفه الدكتور/ عبد العزيز حموده ... وقد ورد بالكتاب نصوص تؤكد الذى ذهبنا إليه آنفا ... ونقتبس مما جاء بذلك الكتاب:

" إن الطبيعة جميلة فى نظر من يتأملها بعين الفنان ... الجمال الطبيعى يكتشف ... لو لم يكن الخيال لما كان هناك مشهد واحد جميل فى الطبيعة " وإن كان (كروتشى) قد اردف ذلك القول بأن " الجمال موجود فعلاً فى الأشياء ولكن الفنان يكتشفه "

وكاتب هذه السطور يميل إلى الاعتقاد بأن للأشياء (عموم الأشياء على اختلاف حالاتها وأشكالها) وجوداً مستقلاً فى ذاتها .. ولا يرتهن ثبوت كينونتها وقيام حضورها فى الحقيقة والواقع أن تكون هناك ذات مدركة لها خارجة عنها حتى تمنحها وجوداً لا يتحقق بغير وعيها لها ...

ولا نود أن نسترسل فى تفصيلات تتعلق بهذا الأمر الذى يرتبط بما يدخل فى نظرية المعرفة (Epistemolgy) التى هى إحدى مباحث الفلسفة.

الفصل الثانى
أسماء فى حياتى

مدخل تمهيدى:

فى هذا الفصل من الكتاب ... أتحدث عن أشخاص كان لكل منهم أثر أو دور فى حياتى على نحو من الأنحاء – قلّ ذلك الدور أو كثر – ولكنه فى كل الأحوال كانت له درجة من الفاعلية بما جعله يمثل عنصرا أو مكوناً فى نسيج خبرتى الذاتية وتجربتى الشخصية .. وأود أن أشير إلى أننى لا أكتفى بأن يكون حديث كهذا مجرد سرد يتصل بذكر أسماء هؤلاء الأشخاص .. ولكننى قصدت أن يجيئ تقديم تلك الأسماء على نحو يجعل منها نماذجاً من الناس وأنماطاً من البشر ذوى سمات وخصائص بعينها على نحو يستخلص منه القارئ عبرة أو قيمة حياتية أو معرفية تتصل بأحوال الناس والحياة .. وقد يخرج القارئ من ذلك أيضاً بشيئ من الإستمتاع لمجرد تتبع قراءة التفاصيل المرتبطة بأى من هؤلاء وبأى من المواقف المتصلة بهم .. وإن توقف ذلك على نوعية وطبيعة المادة التى يقدمها الكاتب وعلى مدى امتلاكه لأدواته فى مجال حِرفية التشويق والإثارة ... وتجدر الإشارة إلى توضيح بعض الجوانب المتصلة بالنهج الذى رأيت أتباعه فى الحديث عن تلك الأسماء التى انتقيتها لأتحدث عن أثرها فى حياتى .. فقد جاء ذلك الإنتقاء تأسيسا على درجة حضور تلك الأسماء فى بؤرة

الشعور أو فى (جلوة) الذاكرة ... ولا يعنى ذلك أن أصحاب تلك الأسماء كان لهم وحدهم تأثير فاعل فى حياتى .. فقد تكون هناك أسماء لم أعد أتذكرها لأسباب وملابسات شعورية أو لا شعورية ترتب عليها أن انطمرت ولم يعد بالإمكان تذكرها والإمساك بها فى حيز الوعى والإدراك .. وربما كانت لتلك الأسماء وما ارتبط بها فى حياتى من أحداث ومواقف دور فاعل فى تكوينى الذاتى على نحو يكون متكافئاً مع الدور الذى لعبته الأسماء التى سوف نتحدث عنها ... تلك التى قد نذكرها تحديداً بحسب الإسم الشخصى .. وقد لا نذكر الإسم لعدم تذكره (وإن بقى أثره جلياً فى الذاكرة) وحسبنا أن نذكر الدور والأثر المرتبط به ... مع مراعاة أن عدم ذكر الإسم تحديدا فى مثل هذا السياق لا يمس من قريب أو بعيد الغاية التى يهدف الكاتب من ورائها أن تتاح للقارئ إمكانية استخلاص العبرة من وراء ذكر ما يتصل بتلك النماذج من الشخصيات ...

وبعد بيان ما جاء بهذه المقدمة .. فإننا نسير إلى ما سوف نقوم به فى تناول للحديث عن تلك الأسماء ... بتصنيفها وتقسيمها إلى مجموعتين كالآتى:

١- تعلمت من هؤلاء.　　٢- عرفت هؤلاء.

(١) تعملت من هؤلاء

تحفل حياة أى من الناس بالعديد من مختلف مصادر وآليات تحصيل المعرفة واكتساب الخبرات والمهارات .. وما يتضمنه

ذلـك مـن المسـتوى الـذى يكـون عليـه أسـلوب الـتفكير وطريقـة التعامل مع الآخرين ... وكذلك مـا يتصـل بعوامـل صـقل الحاسـة الجماليـة والإرتقـاء بالذائقـة الفنيـة لـدى الفـرد ... فضـلا عـن تطوير الملكات الذاتية والقدرات الخاصة التى تـؤدى بصاحبها أن يتكـون لديـه مسـتوى مـن الـوعى بـالنواميس التـى يتشـكل مـن خلالها إيقاع الحياة وحركة الوجود .. وما يسـاعد عليـه كل ذلـك من استنارة ومن فهم لحقـائق الحيـاة ... ومعلـوم أنـه مـن المصـادر الأساسية التقليدية لتحصيل المعـارف والخبرات مـا يـتم إكتسابه مـن خـلال مـا تقدمـه مؤسسـات التعلـيم النظـامى بالمـدارس والجامعـات فـى مجـالات المعرفـة الأساسـية والمهـارات المهنيـة والحياتية ... بالإضـافة إلى مـا تتيحـه وسـائل الإعـلام والإتصـالات الحديثة .. فضلاً عن تحصيل المعرفة. من خلال القراءة والإطلاع ... كذلك ما يجنيه الفرد ويستخلصه مـن الإلتقـاء المباشـر بـبعض مـن العلمـاء والمفكـرين والأدبـاء .. وبعـض مـن أسـاتذة الدراسـة .. وهؤلاء الأخـيرون (أسـاتذة الدراسـة) هـم الـذين أفـاد مـن بعضـهم كاتب هذه السطور أمـوراً ذات قيمـة وذات دلالـة مميـزة سـواء مـن ناحية المعرفة والوعى بشئون النـاس والحياة كذلك من ناحيـة مـا تـركوه فى نفسـى مـن أثـر إيجابى مباشـر بإثـارة اهتمـامى ولفـت نظرى إلى ما وجدوه لدى من اسـتعداد للتميـز فـى بعـض مجـالات الدراسة وما صاحب ذلك من حرصهم الجاد على تنبيهـى لأهميـة قيامى بتعميق ومواصلة تنمية ذلك الاستعداد .. هذا فضلاً عمـا كان كاتـب هـذه السـطور يلتقطـه ويستشـفه مـن سـجايا وخصـال هؤلاء الأساتذه ...

وكـان مـن بـين أسـاتذتى الـذين تـأثرت بهـم أولئـك الـذين نتناول الحديث بشأنهم فيما يلى:

(أ) مدرس اللغة العربية:

كان الأستاذ (فضل) مـدرس اللغـة العربيـة للفرقـة الرابعـة الابتدائية فى العام الدراسى (١٩٥١/٥٠) وقد كنت أحد تلاميذ تلك الفرقة الدراسية التى نحصل فى نهايتها على الشهادة الإبتدائية .. تلك التـى تؤهـل الحاصل عليها للإلتحاق بالسنة الأولى الثانويـة (حسب النظام التعليمى الـذى كان معمولاً بـه فـى تلـك السنوات البعيدة) ..

كـان الأسـتاذ (فضـل) وديعـاً رقيقـاً مهـذباً .. محبوبـاًمن تلاميذه ومن زملائه المدرسين .. وفى أحد الأيام مـن الشهر الأول للعـام الدراسـى .. أشـاد الأسـتاذ (فضـل) – أمـام تلاميـذ الفصـل – بحصولى على تسع درجات من عشرة فى موضوع الإنشـاء .. مبـدياً إعجاباً بذلك المستوى من التمكن فى معالجة موضوع التعبير علـى نحو قال عنه إنـه يتضـمن بلاغـة فـى الأسلوب ودقـة وشمـولاً فـى التنـاول ... وقد أشار يومها إلى حرصه وعزمه على متابعـة ودعـم ذلك المستوى من الإستعداد لدىّ .. وقد أوفى ذلك المـدرس المخلص النبيـل بمـا وعـد بـه مـن توجيـه وتشجيع لى لتحقيـق مزيـد مـن الإجـادة فـى ذلـك المجـال حتـى نهايـة العـام الدراسـى ... وقـد كـان لذلك الذى بذله الأستاذ (فضل) مـن إشـادة ومـن رعايـة موصـولة من أجل مزيد من الارتقاء والإجادة .. كان لذلك أثر إيجابى كـبير أفادنى فى إثارة اهتمامى بأن لدىّ شيئاً متميزاً ينبغـى أن أحـرص على تنميته وتطويره بالتوسع فى الاطلاع على مزيد من المعارف

وعلى العديد من أساليب التعبير ومن فنون الكتابة فى أجناسها المختلفة .. ولعله من النتائج الطيبة لذلك الدور الذى قام به الأستاذ (فضل) فى إلقائه الضوء على تلك البدايات والارهاصات الواعدة والعمل على حفزها وشحذها .. الأمر الذى أفادنى بالاهتمام والحرص على مداومة الحفاظ على مستوى رفيع وتطويره فى ذلك المجال .. وقد تجلى ذلك (عندما التحقت بالتعليم الثانوى) على نحو جعل الأستاذ عبد الحميد مدرس اللغة العربية (وقد كان درعميا مطربشا .. حيث كان خريج دار العلوم .. حريصاً على سمته الكلاسيكى بوضع الطربوش فوق رأسه مع ارتدائه حلة كاملة مصحوبة برباط عنق) .. نعود فنقول .. على نحو جعل مدرس اللغة العربية بالسنة الأولى من التعليم الثانوى ينبهر كثيراً بما كنت أكتبه فى موضوعات الإنشاء حتى أنه كان — أكثر من مرة — يقرأ على تلاميذ الفصل بعض موضوعاتى فى الإنشاء كنموذج للكتابة الإنشائية يمكن لزملائى تلاميذ الفصل الإفادة من قراءتها عليهم .. كما تجلى ذلك أيضاً — على إمتداد السنوات اللاحقه — فى توجهى الحثيث وشغفى بحضور المنتديات والصالونات والمؤتمرات الأدبية والفكرية .. وفى عكوفى على قراءة واقتناء ما وسعنى وتيسر لى من آثار ومواد ثقافية وأدبية .. وفى كلفى بالكتابة من خلال مقالات ودراسات نشرت لى — منذ ١٩٦١/١/٢٥ بالعديد من الجرائد والمجالات ومن خلال ما أصدرته من كتاب بعنوان (رؤية نقدية فى الواقع المصرى) برقم إيداع ٢٠٠٥/١١٩٩٤ لدى دار الكتب ... هذا بالإضافة

إلى مجال آخر تجلى من خلاله اهتمامى الأثير بعالم الكلمة .. وذلك فيما قمت به من إلقاء محاضرات (أو بمعنى أدق كلمات خلال نصف ساعة تقريباً) تتصل بتقديم موضوعات أدبية وفكرية وثقافية كل أسبوع على امتداد عدد من سنوات عقد ستينيات القرن الماضى داخل ندوة (حصاد الأسبوع) التى كانت تعقد دورياً مساء كل يوم اثنين بنادى المعلمين فى مدينة فارسكور حيث كنت أعمل وأقيم بتلك المدينة .. وكان يشرف على الندوة ويدير فقرات برنامجها الأسبوعى الأستاذ عبد الوهاب مجاهد (مدرس اللغة الإنجليزية الذى صار فى نهاية عمله الوظيفى مديراً للإدارة التعليمية بفارسكور) .. وأذكر أن من بين المواد الثقافية التى قدمتها بالندوة موضوعات تحت عنوان:

الدهشة الفلسفية — بين السفح والقمة — قطوف من أدب العقاد وفكره — المجال السيكلوجى للفرد والوفاق الإجتماعى.

(ب) مدرس اللغة الإنجليزية:

كان الأستاذ (عياد موسى) يُدَرِّس مادة اللغة الإنجليزية لنا نحن تلاميذ السنة الرابعة الإبتدائية ... وفى أحد الأيام الأولى من العام الدراسى .. وعند قيامى بمطالعة فقرة من الكتاب المقرر علينا.. وجدت الأستاذ عياد قد توجه نحوى حيث أقف أطالع بالإنجليزية النص المشار إليه .. مبدياً دهشة مفعمة بتعبير من الرضا والاستحسان يملأ وجهه .. ثم استدار صوب باب حجرة الفصل ففتحه منادياً ناظر المدرسة الذى تصادف مروره بالصالة أمام باب الفصل .. وما أن دخل الناظر إلى الفصل حتى قال له

المدرس بانبهار شديد وفرح غامر وهو يشير تجاهى (شوف يا أستاذ عطية الواد بيقرأ الإنجليزى إزاى) ثم أردف تلك العبارة بأن قال كلاما لناظر المدرسة أمام تلاميذ الفصل عبر عن إعجابه بالطريقة التى أنطق بها الإنجليزية على نحو يعتبرُ مشابه للطريقة التى يتحدث بها أبناء اللغة الإنجليزية أنفسهم أى ما يعرف بـ (Native Speaker) ومنذ ذلك الموقف وحتى نهاية العام الدراسى صار الأستاذ عياد يتابع فى دأب مخلص إجادتى واتقانى للأداء فى اللغة الإنجليزية ويبذل من جانبه ما يدعم ويرتقى بمستواى فى تلك المادة الدراسية ... وقد صدق حدس الأستاذ عياد فيما ارتآه بشأن توفر إمكانيات واعدة لدى فى مجال اللغة الإنجليزية حيث تحقق لى فى نهاية العام الدراسى أن حصلت فى إمتحان الشهادة الإبتدائية على أعلى درجة فى اللغة الإنجليزية بالنسبة لزملائى جميعاً .. ثم تتابع تمكنى وتفوقى فى مادة اللغة الإنجليزية بعد ذلك فى مراحل دراستى بالتعليم الثانوى والجامعى .. هذا فضلاً عما كان من علاقتى بهذه اللغة الإنجليزية حتى بعد إنتهاء مراحل تعليمى النظامى والتحاقى بالعمل الوظيفى عام ١٩٦٠ فقد حدث أن ديوان عام المحافظة التى كنت أعمل بها قام بعقد دورة أو برنامج عام ١٩٨١ لتحسين مستوى اللغة الإنجليزية لدى بعض المسؤلين من قيادات الإدارة المحلية (وكنت أيامها رئيساً لإحدى الوحدات المحلية) وكان عدد الذين التحقوا بذلك البرنامج الدراسى إثنين وعشرين دارساً كلهم جامعيون وكنت من بين هؤلاء الدارسين ... وقد وفقنى الله

فى الإمتحان النهائى لذلك البرنامج وحصلت على المركز الأول بتقدير جيد جداً ...

كما أننى خلال السبعينيات وأوائل الثمانينيات قمت بتدريس مادة اللغة الإنجليزية بالمدارس الثانوية الفنية .. لمدة خمس سنوات دراسية من خلال نظام الحصص بأجر لسد العجز وكان ذلك عملاً إضافياً بجانب عملى الأصلى بالمحليات ... كما أننى عام ١٩٨٥ قمت بكتابة إثنين وثلاثين مقالاً باللغة الإنجليزية حيث طلب منى أحد أصدقائى ذلك الأمر .. جهدا تطوعيا منى لمساعدة إبنته الطالبة بقسم اللغة الإنجليزية لدى إحدى كليات التلربية .. حتى تكون تلك المقالات التى كتبتها مرجعا لها يفيدها فى إعداد ما طلب إليها تقديمه إلى الكلية التى كانت تدرس بها.

وهكذا نجد فى موقف كل من الأستاذ فضل مدرس اللغة العربية والأستاذ عياد مدرس اللغة الإنجليزية .. نجد نموذجاً طيباً ونبيلاً لما كان يحدث من إهتمام جاد ومن عكوف حقيقى من جانب بعض المدرسين وربما غالبيتهم إبان ذلك الزمن الجميل من أجل رعاية ودعم أية بوادر للتميز يجدونها بين التلاميذ ... ومثل ذلك الإهتمام يمثل توجها مخلصا فى تجرد من أجل أن تنمو وتترعرع براعم واعدة .. أملا فى أن يكتمل – لاحقاً – نماؤها ونضجها لتزداد بذلك مساحة الإخضرار والأزاهير اليانعة فى بستان الحياة.

(ج) أستاذ التحليل النفسى:

فى العام الجامعى ٥٧ – ١٩٥٨ كنت طالباً بالسنة الثانية بكلية الآداب جامعة عين شمس .. وكان مقرراً علينا بقسم الدراسات النفسية والإجتماعية فى مادة التحليل النفسى كتاب ضخم (٥١٤ صفحة) عبارة عن أربع عشرة محاضرة سبق أن ألقاها على طلبة الطب فى (فيتا/ عاصمة النمسا) رائد ومؤسس مدرسة التحليل النفسى العالم النفسانى الشهير (سيجموند فرويد Sigmund Freud) – وقد كان ذلك الكتاب مترجما إلى العربية من جانب الدكتور أحمد عزت راجح أستاذ علم النفس...

هذا وقد كان الدكتور مصطفى زيور – أستاذ ورئيس القسم – هو الذى يقوم بتدريس تلك المادة الدراسية لنا .. وكان قد استحدث نهجا مبتكراً فى تدريس تلك المادة .. يتلخص فى أنه قام بتقسيم طلبة القسم إلى مجموعات بحيث تقوم كل مجموعة بإعداد محاضرة من المحاضرات الأربع عشرة التى يضمها الكتاب ...ثم يقوم أفراد المجموعة بتقديم المحاضرة وشرح ما تتضمنه من أفكار ومضامين .. مع الاستعانة فى ذلك بالاطلاع على ما يتطلبه موضوع المحاضرة لدى أية مصادر أو مراجع إضافية يكون لها اتصال بالموضوع .. ثم يعقب ذلك قيام أفراد المجموعة بالرد على أية أسئلة تثار أو تطرح من الزملاء .. ويتم كل ذلك داخل قاعه المحاضرات تحت إشراف وتوجيه أستاذ المادة (الدكتور

زيور) الذى يقوم بالتعقيب اللازم حسب ما تتطلبه مجريات تقديم المحاضرة ..

وفى إحدى المرات التى قام فيها مجموعة من الزملاء بتقديم المحاضرة التى كان عليهم إعدادها وتقديمها .. حدث أنه أثناء ذلك أوضح أحد أفراد المجموعة (وكان إسمه عبد الرحيم حسان) أوضح رأيا قال به عالم الانثروبولوجيا الشهير (مالونسكى) .. وفحوى ذلك الرأى أن عقدة أوديب التى تحدث عنها (فرويد) باعتبارها من الأمور التى تمثل أزمة لدى الفرد فى عملية النمو النفسى ... تلك الأزمة أو العقدة الأوديبية لا يلزم بالضرورة – من وجهة نظر مالونسكى – أن تشكل أزمة حتمية فى سياق عملية النمو .. بل يرتبط ذلك التأزم بطبيعة التنظيم الإجتماعى السائد لدى الجماعة التى يعيش داخلها الفرد .. وأنه بناء على ذلك يمكن إجتياز ذلك الموقف الأوديبى بسلام دون أن ينشأ عنه أية أزمة أو عقدة .. وذلك طبقا لطبيعة ونوعية التنشئة الإجتماعية Socialization بمعنى أن الأمر فى ذلك الشأن يظل نسبيا وليس حتميا بالضرورة.

وبعد عرض ذلك الرأى الذى قال به مالونسكى .. وقام بطرحه علينا بالمحاضرة ذلك الزميل .. وجدنا – على التو – أستاذنا الدكتور زيور يمتعض امتعاضا شديدا ويثور فى حدة قائلا (موجها كلامه للزميل حسان) : ما هذا الذى تقوله؟! لقد أزعجت فرويد فى قبره بهذا التخريف الذى نقلته عن هذا المدعو مالونسكى ..

فأسقط فى يد الطالب حسان .. وبدا عليه شيئ من الارتباك...

ولكنه مالبث أن تماسك وقال فى هدوء الواثق ! ولكننى يا دكتور مقتنع برأى مالونسكى وأعتقد أنه على صواب فيما ذهب إليه بالنسبة لهذا الموضوع ... قال الطالب ذلك دون أى تجاوز ينسيه أنه يتحدث إلى أستاذه .. وهكذا أبدى الطالب ما يعتقده فى شجاعة وثبات ولو كان مخالفا لما يعتقده أستاذه .. وقد حدث ذلك منه فى كياسة دون أن تند عنه نبرة العناد أو التحدى ...

وأذكر أن الأستاذ أوقف استكمال المحاضرة بأن أشعل غليونه وشرع يدخن فى تجهم وعصبية .. وأعقب ذلك بمغادرته قاعة المحاضرات ... والذى يهمنى وأقصد إليه من وراء ذكر تلك الواقعة .. هو استخلاص العبرة من ذلك الذى حدث بين الطالب والأستاذ على النحو الذى عرضنا له آنفا .. وأقول إنه كما يتعلم الإنسان من المواقف ذات الدلالة الإيجابية .. فإنه يتاح للإنسان كذلك أن يتعلم ويكتسب دعما وترسيخا لمبادئ وقيم معينة كرد فعل وقائى إحترازى فى مواجهة ما يعرض له من مواقف تتضمن سلبيات تهدد أو تتجاوز أقانيم تشكل إطاراً للروح العام لدى مؤسسة الجامعة التى هى بطبيعتها معقل لحرية الفكر والتسامح العقلى وترسيخ ثقافة قبول الإختلاف مع الآخر دون أية (دوجما Dogma) أو تزمت فكرى ...

وإنه من الغايات السامية والمقاصد النبيلة للحياة الجامعية غرس مقومات التفكير المستنير الحر الطليق من قيود التحيز فى نفوس وعقول الطلاب من الأجيال الشابة دون مصادرة أو حجر

على الرأى الآخر ... ولكن أين كل ذلك من الكيفية التى جاء عليها تصرف الأستاذ ورد فعله مع تلميذه من خلال ذلك الموقف الذى وقع أمامنا وبين أيدينا داخل قاعة الدرس الجامعى فى ذلك اليوم الذى كان منذ مايناهز نصف قرن من الزمان ...

مفارقة مدهشة بطبيعة الحال ... فإذا شئنا أن نبلور العبرة أو نستخلص الدرس المستفاد من وراء تلك الواقعة .. نقول إن الحق والصواب وما ينبغى أن يتبع إحقاقا للحق .. يظل ذلك كذلك .. لا يزعزع يقيننا أو يحول قناعتنا عن ذلك كائن من كان مهما كانت منزلته أو مكانته .. ولا يصدنا عن ذلك أية أسماء كبيرة لامعة .. وأنه ليس لأحد – عدا الأنبياء والرسل – عصمة من مجانبة الصواب والوقوع فى الخطأ .. وليس لأحد قداسة تنأى به عن الانتقاد كلما استوجب الأمر ذلك .. مع مراعاة الإلتزام بأن يكون النقد موضوعيا متجردا دون إسفاف أو تجريح ودون أى تطاول يغض من قدر المنتقد (بفتح القاف) أو ينال من اعتباره ... لذلك – وبالرغم مما ذكرته بهذه الفقرة من الكتاب – فما كان لى أن أفرغ من الحديث عن هذا الأمر دون أن أذكر كلمة وفاء واجبة تعبيرا عن احترامى وامتنانى لأستاذى الجليل ذلك الرائد الموسوعى الكبير الدكتور / مصطفى زيور (١٩٠٧-١٩٩٠) رحمه الله وأحسن مثواه نظير ما تعلمناه على يديه من عطاء معرفى نافع ومن تمرس على مهارات منهجية أكسبتنا (نحن تلامذته) حِرفية ناجزة فى مجالات تخصصنا الأكاديمى.

(د) مع أستاذ الفلسفة بالجامعة:

عندما كنت طالبا فى عامى الجامعى الأول .. كان الأستاذ الدكتور يحيى هويدى أستاذ الفلسفة يقوم بتدريس هذه المادة لنا .. وكان فى بعض المحاضرات يجرى اختبارا شفهيا للطلاب .. وفى ذات مرة طلب إلى إجابة سؤال يتصل بجانب من فلسفة (إيمانويل كانط) فيلسوف المثالية الألمانى الأشهر .. فوفقنى الله إلى إجابة قال عنها الأستاذ إنها إجابة سديدة ضافية أوفت بالمطلوب تماما .. ثم أردف ذلك قائلا:

هذه الإجابة تستحق (ممتاز) وقام برصد الدرجة بكشف معه..

ولعله من الآثار الطيبة النافعة التى ترتبت على شغفى بمادة الفلسفة (ذلك الشغف الذى عمقه لدى ذلك الموقف الذى أشرت إليه آنفا من جانب أستاذ الفلسفة بالجامعة وما سبق أن أبداه أيضا مدرس الفلسفة عندما كنت طالبا بالسنة الخامسة – أدبى – بالتعليم الثانوى..)

أقول إنه كان من آثار ذلك لدىّ أننى بعد تخرجى فى الجامعة والتحاقى بالعمل الوظيفى .. قد استمر شغفى واهتمامى المحبب بالقراءة والإطلاع فى مجال الفلسفة لاستزادة معرفتى بما أتيح لى أن أنهله من قضايا فى أكثر من مبحث من مباحث الفلسفة فى عديد من الكتب والمراجع سواء بالعربية أو بالإنجليزية ..

(هـ) مع أساتذة آخرين فى رحاب الجامعة :

ما كان لى أن أفرغ من الحديث عن بعض الأساتذة الذين أفدت منهم وتأثرت بهم دون أن أردف ما تقدم فى هذا الشأن بحديث فى إيجاز مجمل عن آخرين من أولئك الأساتذة الجامعيين وعما أتيح لى أن أنهله من علمهم ومعرفتهم الموسوعية ومن آرائهم العميقة فى الناس والحياة .. فضلا عما أفدته من آثار إيجابية غير مباشرة تتسرب إلى النفس والعقل لمجرد التواجد فى حضرة هؤلاء الأساتذة الأفذاذ الذين يتسمون بقوة الحضور الذاتى وبأسلوبهم وطريقتهم الشخصية المتميزة فى تناول الأشياء .. بما يجعل أيا من هؤلاء فى ركاب الشخصيات المبهرة ذات الشمائل والخصال طيبة الأثر فى الآخرين على نحو يجعل لكل منهم الكاريزما Charisma الخاصة به ... ومن بين هؤلاء ما يلى :

★ الأستاذ الدكتور أحمد خليفة الذى تولى (ونحن فى العام الجامعى ٥٨-١٩٥٩) تدريس مادة (علم الجريمة) مسبوقة بمدخل شيق وبمقدمة ضافية عن فلسفة القانون وتاريخه ... وكان الدكتور خليفة يحضر إلينا – نحن طلاب الإجتماع بآداب عين شمس – ليحاضرنا فى تلك المادة الدراسية .. كان يحضر من عمله الأصلى حيث كان مديرا للمركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية (وقد صار فيما بعد وزيرا للشئون الإجتماعية) كان ذلك الأستاذ العظيم (فى محاضراته لنا) نهرا يتدفق بطريقة آسرة وبأسلوب رصين جذاب .. وكان من الذين يمتزج لديهم شموخ الأستاذ الجامعى البارع مع حضور ذاتى مشع زاخر

بالسماحة والأريحية والنقاء .. فضلا عن اقتداره الفذ وشموليته المعرفية فيما يتناوله أثناء المحاضرة .. سواء فيما يتصل بالمادة الدراسية المقررة أو فيما كان يطوف به من آراء وخواطر أخرى إضافية تشى بمعرفة موسوعية ترتبط بالناس والحياة .. ولقد كان يدهشنا ويرضى كثيراً من فضولنا الفكرى ومن تساؤلاتنا الحائرة التى تبحث عن اليقين فى عديد من شئون الحياة وعن قدر من الإقتناع تطمئن به أفئدتنا وعقولنا نحن الذين كنا ننتمى أيامها إلى شباب تلك المرحلة من العمر ومن تاريخ الوطن إبان السنوات الأولى بعد يوليو ١٩٥٢ وما صاحبها وترتب عليها من أحداث وتحولات فى المجتمع المصرى...

★ ومن بين أولئك الأساتذة الذين كانوا يتمتعون بشخصية كاريزمية Charismatic- الأستاذ الدكتور محمد طلعت عيسى

– أستاذ الإجتماع .. كان من خريجى السربون بجامعة باريس .. مترع بالثقافة الفرنسية .. مشبع بالروح الأوروبى فكرا وقولا وسلوكا دون تعال أو حذلقة .. بل كان شديد البساطة يجيش بالحميمية فى تعامله مع الآخرين على نحو من الاتزان العبقرى النبيل ومن الصفاء الروحى الذى تأنس إليه النفوس .. كانت محاضراته مرصعة بلآلئ من نفائس الحياة الراقية الوضيئة ومن الفكر التنويرى الناصع الذى يبدو من خلاله مدى تأثره بطيبات الثقافة الفرنسية على وجه الخصوص والثقافة الأوروبية عموما .. وكنا – نحن الطلاب – نجتنى بعضا من فيض النقاش الثرى والحوارات الخصيبة مع الدكتور طلعت خارج قاعة

المحاضـرات .. نتحلـق حولـه فـى فنـاء الكليـة .. يتـدفق بأحاديـث طلية نافعة .. شيقة ممتعة .. وهكـذا كانـت تمتـد حـوارات الهـواء الطلق فى مجالات شـتى وألـوان متنوعـة مـن المعرفـة ومـن شئون الحياة ... وكثيرا ما كان يحدث أننا ما نكاد نفـرغ مـن تلـك الحلقـة الحوارية مع الدكتور طلعت عيسى حتـى يتوجـه بعضـنا (وكنـت واحداً من هؤلاء البعض) لنلحق بمجموعة حوارية أخرى فى فناء الكليـة .. رائـدها وراعيهـا الأسـتاذ الـدكتور يوسـف مـراد .. ذلـك العالم الجليل أحد رواد الدراسات النفسية الأكاديميـة فـى مصـر .. كـان يحضـر هـو الآخـر مـن جامعـة القـاهرة (حيـث يعمـل وقتهـا رئيسـا لقسـم الفلسـفة بكليـة الآداب) .. وقـد كنـت مـن جـانبى حريصـا كـل الحـرص – فـى حمـاس وشـغف – علـى حضـور تلـك الحلقات الحوارية مع الدكتور مراد .. والتـى كانـت تـتم غالبـا فـى أوقـات الأصـيل قبيـل حلـول المسـاء .. وكـثيرا مـا كانـت تمتـد إلى الساعات الأولى من الليل وسـط أحـواض الزهـور والريـاحين تحـت الأضواء الفسـفورية الحالمـة .. وقـد كانـت تلـك الحلقـات النقاشـية النـافعة بفنـاء الكلية مع العديد مـن الأسـاتذة .. كانـت أشـبه بتلـك الحوارت التـى كانت تعقد قـديما علـى عهـد الإغريـق .. خاصـة مـا كانت بأكاديمية أفلاطون .. التى كانت تتم من خلال جماعات من محبى الحكمة (الفلاسفة) الذين أطلق عليهم المشائون ...

★ وقد كان من أمتع المحاورات وأكثرها فائدة ... تلك التى قـدم لهـا وطـرح إطارهـا العـام .. ثـم أدارهـا ورعاهـا بأسـتاذية فائقـة ... (الدكتور فايز اسكندر) أستاذ الأدب الإنجليزى ... وقد كان بوسعه فى ذلك اليوم الجميـل مـن أيـام العـام الجـامعى ٥٨-١٩٥٩ أن يكتفـى

بإلقاء محاضرته ثم ينصرف ... ولكنه آثر بعد الإنتهاء من المحاضرة أن يدخل بنا ومعنا نقاشا خصبا حول قضية (الفن للفن .. والفن للحياة أو للمجتمع) وكانت تلك القضية من الإشكاليات الثقافية والفكرية التى حظيت أيامها باهتمام كبير وبجدل واسع المدى سواء فى الأروقة الجامعية أو فى الندوات والصالونات الأدبية والثقافية أو على صفحات الجرائد والمجلات .. وقد كان ما كان فى ذلك اليوم المشهود من حوارات ونقاشات مستفيضة بين الطلاب وأستاذهم ذلك الموسوعى القدير الذى كان باديا لنا قناعته بذلك الإتجاه المنحاز لفكرة الفن للفن .. وقد أسهب الدكتور فايز يومها ببراعة آسرة فى شرح وإيضاح مبرراته للتأكيد على حجية ذلك الإتجاه .. وكان مما جعل تلك الحوارية تمتد لفضاءات متصلة من الوقت الخصيب الزاخر بجدلية شيقة .. أن بعض الطلاب من ذوى الفكر الاشتراكى المتلفع بالأيديولوجية اليسارية الماركسية كانوا يُغَلبون فى تحاورهم الانتصار لفكرة الفن للحياة وللمجتمع .. مما جعل المناظرة وتبادل الآراء أكثر حيوية وثراء .. وقد وجد كاتب هذه السطور نفسه يميل فى قرارة عقله ووجدانه إلى فكرة (الفن للفن) فبالرغم من وجاهة الأسانيد التى يتكئ عليها القول بأن يكون للفن دور أو تكون له وظيفة عملية فى تغيير المجتمع على نحو يصل فى ذروته عند فرقاء ذلك الاتجاه إلى أداء دور نضالى ثورى يفضى إلى تغيير جذرى فى حياة المجتمع ... أعود فأقول إنه بالرغم من وجاهة تلك الأسانيد إلا أننى كنت — وما زلت — أرى أن الفن أو الإبداع عموما هو فى ذاته وفى جوهره تعبير تلقائى

خالص عن تجربة إنسانية ... يفيض حرا طليقا عن روح صاحبه وعن عقل ووجدان منشئه دون تقيده بشروط مسبقة أو لاحقة من أجل بلوغ غاية أو تحقيق هدف أو مصلحة عملية مهما كانت سامية القصد رفيعة الشأن .. بمعنى أنه لا ينبغى توظيف العمل الفنى أو الإبداعى ليكون مجرد أداة أو وسيلة لبلوغ هدف أو تحقيق غاية بعينها ... ولا ينافى ذلك أو يصادر عليه أن يترتب على العمل الفنى أثر أو آثار عملية نافعة للناس ولحياة المجتمع بعامة كنتيجة مترتبة على فعل الإبداع وليس كشرط مسبق عليه .. حيث أن عملية الإبداع بطبيعتها لها قانونها الداخلى الذى يتحقق من خلال توفر قيم فنية بذاتها تتجسد معطياتها فى جماليات العمل الإبداعى وفى تفرد خصوصيته .. مما ينجم عنه لدى المتلقى ذلك الشعور بالدهشة وبالكشف عن رؤى جديدة طازجة للأشياء ... وكذلك الشعور بتلك المتعة الروحية وتلك الرجفة أو الاهتزازة الداخلية السحرية النادرة التى تفضى إلى الاشفاق أو التعاطف الذى عبر عنه (أرسطو) بما أسماه (التطهير) .. ذلك الذى يحدث فى دخيلة المتذوق أو المتلقى (خاصة بالنسبة للفن الدرامى أو المسرحى) ... أما عندما يطلب إلى الفن أن يقوم بما هو خارج عن طبيعته على نحو فيه إقحام واعتساف .. كأن يكون أداة دعائية أو وسيلة خطابية أو نهجا تبشيريا تعبويا لتحقيق مقاصد عملية أو أهداف نفعية بذاتها تم تحديدها والتخطيط لها مسبقا .. فتلك مهام أنشطة وأعمال أخرى يؤديها الفرد أوتقوم بها الجماعة .. وقد تكون لها أهميتها النافعة أو

وجوبها اللازم للناس وللحياة .. ولكنها فى النهاية تظل لها مسمياتها الأخرى غير الفن أو الإبداع..

ورجوعا إلى تلك الثنائية فى الطرح والتناول كما تجسد ذلك فى المقولتين المتقابلتين حسب ما عرضنا لهما آنفا (الفن للفن .. والفن للمجتمع) .. نقول إن تلك القضية الخلافية شبيهة بقضية أخرى مناظرة لها وإن اختلفت فى الصياغة وهى قضية (الشكل .. والمضمون) فى العمل الأدبى أو الفنى .. ومن الثنائيات التى اشتجرت الآراء ووجهات النظر بشأنها من جانب النقاد والمنظرين الباحثين فى مجال الفنون والآداب .. قضايا أخرى مثل (الأصالة والمعاصرة) و (الواقعية فى مقابل المثالية والفانتازيا التخيلية) و(فرقاء قصيدة الشعر العمودى الذى يلتزم القافية .. فى مقابل فرقاء الشعر الحديث المسمى بالشعر الحر أو شعر التفعيلة ..) هذا فضلا عما شغل اهتمامات الحياة الثقافية فى مصر إبان تلك الفترة وما أعقبها من سنوات بشأن عديد من الثنائيات المتقابلة .. مثل تيار أو اتجاه أصحاب المدرسة الكلاسيكية التى تستدعى القديم المتمثل فى المأثور التراثى فى مقابل أصحاب الاتجاه التجريبى والحداثى وما يأتى فى ركاب ذلك من سيريالية وتفكيكية ومن إتجاهات العبث واللا معقول انتهاء بما بعد الحداثة ... ونحن نرى أنه لا ينبغى فى مجال الإبداع والنقد جميعا أن تقوم حدود فاصلة بين أى من التيارات أو الإتجاهات وغيرها مما يقابلها ... فذلك مفارق لطبيعة هذا المجال من النشاط الإنسانى فى مجالات الخلق والإبداع الفنى ... ولعل المنحى الأقرب ملائمة فى هذا الصدد هو النهج التكاملى الذى

يتسم بشمولية النظرة الكلية التى تضم مختلف ألوان الطيف الابداعى فى اتساع أفق وفى سماحة عقل ورحابة وجدان ..

وهكذا فإنه يروق لى أن أثبت فى هذا السياق حديثا عن الآثار الايجابية الطيبة التى غنمناها مما كان متاحا من فوائد عميمة لمن أراد منا (نحن الطلاب) أن يستزيد من معارف وخبرات حياتية ننهلها من أساتذه لنا خارج قاعة الدرس من خلال ذلك التواصل المعرفي والإنساني مع بعض من أساتذة عظام لنا بما كان يجري من حوارات ونقاشات حية مباشرة كانت تمتد طويلا في مجالات شتى ذات موضوعات متنوعة وما يتخلل ذلك ويكتنفه من حديث عن طرائق وأساليب الحياة الراقية فيما يتصل بخلاصة فنون آداب اللياقة وأنماط السلوك اليومى فى دول أوروبا وأمريكا التى عاش بها هؤلاء الأساتذة إبان سنوات دراساتهم العليا هناك ... فكانت فرصة سائغة متاحة لنا نحن الطلاب أن نسد حاجة شغفنا بالوقوف على ألوان من حدائق تلك الثقافات اليانعة نستوعب ونتمثل ما يروق لنا ويلزمنا بما ينسجم مع مستقبلات الوعى لدينا وحسب ما تسمح به خصائص مكونات هويتنا المصرية والشرقية .. ومن ثم فقد كان ذلك الزخم الفكرى والثقافى الحضارى وما يصاحبه من زاد معرفى تنويرى .. نهلنا منه ما وسعنا وأغترفنا منه ما طاب لنا.. عطاءً جزيلا طيبا أفدنا منه وسعدنا به أيما سعادة وصرنا به أخصب ثراء ذهنيا وروحيا ...وهناك فى هذا الصدد معنى أجده جديرا بالإبانة والتوضيح .. وهو أن الطالب الجامعى النظامى أو المنتظم المتفرغ لدراسته الجامعية (من أبناء ذلك الجيل فى خمسينيات القرن الماضى) كان

يصيب خيرا وافرا من ذلك الزخم الذى تحدثنا عنه آنفا من خلال علاقاته الحميمة المباشرة مع زملائه ومع بعض أساتذته ومن خلال أنشطة جامعية وندوات ومؤتمرات وساعات بين الكتب بمكتبة الكلية للاطلاع على آفاق أوسع وأعمق من المعرفة ... نقول إن الطالب النظامى كان متاحا له كل هذا الذى أوضحناه وأشرنا إليه الأمر الذى يسهم – بطبيعة الحال – فى صياغة وتكوين شخصية خريج الجامعة على نحو له أثر طيب عميق الفائدة ... وقد كان ذلك الأثر الذى يعد ركيزة جوهرية شديدة الأهمية فى حياة الطالب الجامعى المنتظم الذى يعايش وينغمس فى مختلف أبعاد حياته الجامعية اليومية الكاملة ... ذلك الأثر لم يكن متحققا أو متاحا لأى من الطلاب المنتسبين أو الذين يتابعون دراستهم الجامعية خارج الجامعة لمجرد الحصول على المؤهل الجامعى وليس لهم من علاقة بحياة الجامعة غير حضور الامتحانات على مدار سنوات الدراسة ومن ثم فقد كانت هناك فروق نوعية ذات دلالة فى منهجية التفكير وفى ملامح ومكونات بناء شخصية كل من الطلاب المنتمين لأى من الفريقين ... وهذا فى واقع الحال أمر بدهى يدخل فى سياق علاقة المقدمات بالنتائج وفى إطار مصطلحات المعلوماتية فيما يسمى بالمدخلات (Input) والمخرجات (Output).

وفى ختام هذه الفقرة المتصلة بالحديث عن تلك المرحلة فى حياة كاتب هذه السطور فيما يرتبط بذكريات سنوات الدراسة الجامعية .. أود أن أشير إلى أن تلك المرحلة كانت من أخصب وأجمل سنوات العمر وأبعدها مدى فى التكوين الشخصى

للكاتب فيما يتصل بتشكيل بنية الوعى الذاتى وإرساء الأطر الفكرية وتحديد نمط التوجهات العقلية والوجدانية التى يتم من خلالها التعامل مع معطيات الحياة على وجه الإجمال دون تعطيل لبقاء الاستعداد المتجدد لإضافة المزيد من خبرات وتجارب الحياة على امتداد السنوات اللاحقة فى رحلة العمر ... أعود فأقول إن تلك المرحلة كانت غنية محتشدة بوفرة من المواقف والأحداث .. ولكننى اكتفيت منها بسرد ما كتبت عنه آنفا .. ولم أشأ أن أسترسل فى ذكر مزيد من الشخصيات والمواقف التى ساهمت فى تكوينى الفكرى والروحى ... وحسبى فى هذا السياق أن أشير إلى بلورة الانطباع العام الذى يمكن استخلاصه عن دلالة ما كان له حضور فى واقع الحياة الجامعية فى مصر منذ نصف قرن .. من مناخ يتصل باهتمامات الشباب طلاب الجامعات من جهة ... وبنوعية أداء الأساتذة الجامعيين لدورهم ومدى حرصهم الجاد بوازع ذاتى من أنفسهم للوصول بذلك الدور إلى إثراء الحياة العقلية للطلاب وإلى إنضاج وعيهم وثقافتهم وربط ذلك بمجريات الحياة العامة وفقا لأحدث التيارات والفعاليات الفكرية والإبداعية محليا ودوليا ... ولا يفوتنى – فى هذا السبيل – أن أشير إلى بعض مظاهر الإختلاف والتباين بين ما كان سائدا فى الحياة الجامعية إبان تلك العقود من السنين وبين ما هو قائم حاليا فى الزمن الأخير .. خاصة فيما يتعلق بمستوى الوعى والإستنارة لدى الطلاب ومدى مستوى درجة النضج الفكرى والثقافى المتمثل فى تكوين شخصية ذات إرادة مستقلة وعقل يمتلك قدرات ذاتية على التفكير المنهجى التحليلى الناقد ...

فضلا عن الإهتمام بالقضايا العامة بما يشكل تلك الحالة التى ينبغى أن يكون عليها الخريج عند إتمام دراسته الجامعية ... وبالرغم مما طرأ من مستجدات تتصل بتقنيات فائقة شتى فى كثير من مجالات الحياة نتج عنها ظهور تباينات واختلافات نوعية بعيدة المدى فى الإمكانات المتاحة لدى أبناء الأجيال المتعاقبة ... إلا أن المحصلة النهائية للوضعية العامة بين الجيل الحالى وما كان فى جيل الخمسينات تثبت وتؤكد وجود تدهور وتدنى مستوى الخريجين فى سنوات العقود الأخيرة مقارنة بما كان قائما قبلها ... ومن الأمور التى ينكشف معها هبوط وتهافت الوزن النسبى للحالة التى عليها غالبية الخريجين الحاليين .. الاختبارات والمقابلات الشخصية عند التقدم للالتحاق ببعض الوظائف حيث يتضح جليا انحدار مستوى معظم المتقدمين لاجتياز تلك الاختبارات .. خاصة فى جانب المعلومات العامة وفى مدى الإلمام بما يتصل بالقضايا المجتمعية والدولية .. وكذلك فيما يتصل بمستوى إجادة اللغات بما فى ذلك اللغة العربية ذاتها حيث يصل الإفلاس الشائن لديهم فى الجانب اللغوى حدا فاضحا ... ومن قبيل تحرى الدقة فى تناول الأمور يجدر بنا أن نشير إلى أن مظاهر التدنى هذه قد نشأت وتفشت لدى غالبية هؤلاء الخريجين نتيجة منظومة من الأسباب والعوامل .. وإن هذه الظاهرة السلبية (شأنها شأن كثير من السلبيات الأخرى) هى مسئولية مجموعة من الأطراف ومن ملابسات عديدة يعج بها مناخ الحياة العامة التى أصابها كثير من دواعى العوار أوالخلل مما

القى بظلاله الكثيفة الشائهة على كثير من عناصر ومجريات الأوضاع المتصلة بأفراد المجتمع ومؤسساته المدنية والرسمية ..

وإذا كنت قد أوضحت فى الفقرات السابقة ما يتصل بأولئك الذين تعلمت منهم فى مجال دراستى المدرسية والجامعية اى من خلال التعليم النظامى الرسمى ... فإننى فى هذه الفقرة أشير إلى أهم أسماء الذين أفدت منهم وراق لى بعض انتاجهم الأدبى والفكرى بما ساهم فى بنية زخيرة وعيى وفى تكوينى الذهنى والوجدانى.. وذلك من خلال اطلاعى وقراءاتى الحرة لبعض من ابداعات قرائحهم ...

وقد كان جانب منها متمثل فى مجرد شذرات يانعة طلية من فيض آثارهم النيرة .. وكان البعض الآخر عبارة عن كتاب أو كتب بأكملها بالنسبة لبعض أولئك المبدعين العظام ... هذا فضلا عن الاستماع إلى محاضرات بعضهم الآخر فى المحافل الثقافية العامة .. كذلك من خلال قيامى بحضور ندوات حفلت بحوارات ومساجلات مع نفر ثالث من هؤلاء الأفذاذ المبرزين فى مجالاتهم الذين يمثلون نجوما زاهرة فى سماء الأدب والفكر والثقافة ... وكل أولئك وهؤلاء حسب ما هو موضح فيما يلى:

* د. طه حسين – عباس العقاد – توفيق الحكيم – د. محمد مندور – د. زكى نجيب محمود – يوسف إدريس – نجيب محفوظ – د. زكريا إبراهيم – د. فؤاد زكريا – د. جلال أمين – سيد ياسين ...
* ومن الشعراء: على محمود طه–جبران خليل جبران– إيليا أبو ماضى – محمود حسن اسماعيل – نازك الملائكة – بدر شاكر

السياب – عبد الوهاب البياتى – أحمد مطر – عبد الرحمن الشرقاوى – صلاح عبد الصبور – أحمد عبد المعطى حجازى – محمد إبراهيم أبو سنة – نزار قبانى – فاروق جويدة.

★ ومن الكتاب فى مجال الفقه والعلوم الدينية .. المشايخ والفقهاء: محمود شلتوت – أحمد حسن الباقورى – محمد الغزالى – سيد سابق – محمد متولى الشعراوى ... ويلحق بهم من غير المشايخ الأزهريين

أولئك المفكرون المجتهدون فى مجال الفكر الإسلامى من أمثال:

د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) – د. محمد عمارة – د.محمد سليم العوا – د. أحمد كمال أبو المجد – فهمى هويدى.

★ ومن ترجمات بالعربية عن بعض ابداعات أعلام من نوابغ الأدب والفكر فى القديم والحديث:

هوميروس – سوفكليس – شكسبير – طاغور – شوبنهاور - جوته – كافكا – نيتشه – دوستويفسكى – تشيكوف – سارتر – البيركامى.

(٢) عرفت هؤلاء

إن الاقتراب من شخصيات لها مكانتها المرموقة ممن يطلق عليهم المشاهير أو الأعلام .. ذلك الاقتراب يعد – بالنسبة لى – من الروافد التى أسهمت فى تكوين وإثراء تجربتى الذاتية .. وكان لذلك دلالته وتأثيره عندى على نحو من الانحاء .. سواء كان

التأثير هينا أو كبيرا .. أو كان اللقاء شخصيا مباشرا أو عاما ليست له خصوصية .. وسواء كان اللقاء مؤقتا عابرا أوله قدر من الديمومة والاستمرارية .. إلا أنه فى كل الأحوال كانت لأى من تلك اللقاءات درجة من الأهمية بالنسبة لى .. وقد أفدت من بعض تلك اللقاءات على نحو عميق وممتد .. كما تحقق عن بعضها الآخر أن سعدت بما أتاحته لى واغتبطت بها أيما اغتباط ... وزادنى جانب ثالث منها معرفة وفهما فى مجالات شتى تتصل بأحوال الناس والحياة وباستخلاص دلالات وعبر مما تزخر به تجارب الحياة ..

وقد توفرت لى تلك اللقاءات وتم تحققها إما عن سعى وقصد منى .. أو حدث ذلك من خلال أمور وأسباب تتصل بمقدرات مسئوليات عملى الوظيفى إبان سنوات خدمتى الحكومية .. أو من خلال ندوات ومؤتمرات جماهيرية ثقافية أو سياسية ..

وسوف نعرض أولا لذكر أصحاب تلك اللقاءات على نحو إجمالى ... ثم نقوم ثانيا بإتباع ذلك بشئ من التفصيل بالنسبة لبعض تلك الشخصيات.

أولاً- لنبدأ بالشق المتصل بالبيان الإجمالى على النحو التالى:

(أ) فى مجال الأدب والفكر والثقافة:

عباس العقاد (الكاتب والأديب والمفكر الكبير) — الدكتور محمد مندور (الأديب والمفكر ورائد حركة النقد المنهجى فى

الأدب العربى الحديث) – الشاعر صلاح عبد الصبور (رائد بارز فى حركة الشعر الحر والأديب والمفكر اللامع فى الحياة الثقافية المصرية والعربية إبان النصف الثانى من القرن العشرين) – عبد الرحمن الشرقاوى (الأديب والشاعر والمفكر الشهير .. أحد الأعلام البارزين فى مجال الشعر المسرحى والقاص صاحب رواية (الأرض) درة الأعمال الروائية ذائعة الصيت) – طاهر أبو فاشا (الأديب والشاعر والكاتب الإذاعى صاحب حلقات ألف ليلة وليلة وغيرها من البرامج الإذاعية الشهيرة) فاروق شوشه (الشاعر واللغوى الشهير صاحب برنامج لغتنا الجميلة .. والإعلامى اللامع .. رئيس هيئة الإذاعة المصرية الأسبق ورئيس اتحاد الكتاب سابقا .. عضو مجمع اللغة العربية وأمين عام المجمع) – الشاعر كمال نشأت – الشاعرة ملك عبد العزيز – الشاعر عبد الرحمن الأبنودى – الشاعر سيد حجاب – الشاعر فؤاد بدوى – الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) الكاتبة والأديبة والعالمة الأكاديمية الفذة فى مجال دراسات اللغة العربية والعلوم الإسلامية – الدكتورة لطيفة الزيات .. (الأديبة والناقدة الشهيرة) – يوسف السباعى (الأديب القاص ووزير الثقافة الأسبق) – الدكتور عبد القادر القط (الأديب والناقد الأكاديمى البارز .. الحائز على جائزة فيصل وجائزة مبارك أرفع الجوائز بكل من السعودية ومصر) – الدكتور حمدى السكوت (الأديب والباحث البارز فى مجال الببلوجرافيا الأدبية والفكرية وأستاذ

الأدب العربى الحديث بالجامعة الأمريكية بالقاهرة) –الدكتور محمود على مكى (الأستاذ والباحث الأكاديمى الشهير فى مجال الدراسات الأدبية وعضو مجمع اللغة العربي) – الدكتور عاطف العراقى (الأستاذ والباحث الأكاديمى والكاتب المحقق فى مجال الفكر الفلسفى وعلى وجه التخصيص فلسفة وفكر ابن رشد الفيلسوف العربى الإسلامى الأشهر) – الدكتور فؤاد زكريا (المفكر والناقد المصرى ذائع الصيت وأستاذ الفلسفة بالجامعة) – الدكتور محمد الجوادى (أستاذ الطب والكاتب الأديب المبرز فى مجال أدب السيرة والباحث المحقق فى المجال السياسى والتاريخى .. الحائز على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب وعضو مجمع اللغة العربية) – سعد أردش (أحد أعلام الاخراج المسرحى البارزين .. والمنظر والمثقف الكبير فى مجال الفن الدرامى وصاحب الأداء التمثيلى المتميز فى كثير من الأعمال السينمائية والتليفزيونية .. حائز على جائزة الدولة التقديرية فى الفنون) – وفى مجال التأليف المسرحى والدراما التليفزيونية: يسرى الجندى – محمد أبو العلا السلامونى.

(ب) فى مجال الدعاة وعلماء الدين:

الدكتور محمد عمارة (المفكر الإسلامى الشهير) – الدكتور محمود محمد عمارة (الاستاذ بجامعة الأزهر والداعية بأجهزة الإعلام المسموعة والمرئية) – الشيخ عطية صقر (من هيئة كبار

علماء الأزهر والداعية الأشهر بأجهزة الإعلام – الدكتور أحمد عمر هاشم (من علماء الأزهر والرئيس السابق لجامعة الأزهر .. الداعية بأجهزة الإعلام) – الدكتور محمد فؤاد شاكر (أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة عين شمس والداعية بأجهزة الإعلام).

(ج) فى مجال السياسة والإدارة:

- الدكتور محمد حسن الزيات (وزير خارجية مصر الأسبق .. وقد تدرج فى العمل الدبلوماسى حتى صار سفيرا لمصر لدى عدد من الدول الأفريقية والآسيوية – وكان له دور بارز وجهد كبير على امتداد سنوات متصلة إبان قيامه بعمل سفير مصر بالصومال فى إتمام استقلال دولة الصومال .. كما سبق له العمل رئيسا لوفد مصر ومندوبها الدائم لدى هيئة الأمم المتحدة .. ومعلوم أن عقيلته إبنة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين).
- ضياء الدين داوود (رئيس الحزب الناصرى ... وزير الشئون الاجتماعية الأسبق ... العضو السابق باللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى التى كانت تمثل قمة الهرم للتنظيم السياسى إبان الستينات وأوائل السبعينات .. وهو المحامى الفذ .. والبرلمانى اللوذعى القدير إبان المرحلة الناصرية وفى عهد مبارك).
- الدكتور فؤاد محى الدين (أستاذ الطب الذى تفرغ للعمل الإدارى والسياسى عمل محافظا للجيزة .. ثم وزيرا للصحة ..

وأمينا عاما لحزب مصر .. ثم رئيسا لمجلس الوزراء .. وقبل كل ذلك كان قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ عضوا بالحزب اليسارى المصرى حدتو)

• الدكتور عبد العزيز حجازى (أستاذ المحاسبة الذى صار وزيرا للمالية (إبان حرب التحرير فى اكتوبر ١٩٧٣) .. ثم عين رئيسا لمجلس الوزراء)

• المهندس إبراهيم شكرى (رئيس حزب العمل .. الذى عين قبل ذلك محافظا للوادى الجديد ثم وزيرا للزراعة وهو الذى قبل كل ذلك سليل أسرة أرستقراطية من كبار ملاك الأراضى الزراعية ومع ذلك تبنى وهو شاب فى الأربعينات الفكر الإشتراكى وقضايا العدالة الإجتماعية وقد ترجم ذلك عمليا عند ما كان نائبا بمجلس النواب (البرلمان) قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ حيث طالب بتحديد الملكية الزراعية وسعى لإصدار قانون للاصلاح الزراعى فى مصر .. ولقد كان هذا الرجل نموذجا للسياسى المتطهر الذى ينشد من وراء القضايا والأدوار التى ناضل من أجلها فى تجرد نبيل تحقيق ما فيه خير الوطن والمواطنين خاصة البسطاء الشرفاء الكادحين المستحقين لنصيبهم العادل فى ثروة وطنهم وخيراته).

• ومن المحافظين:

- اللواء محمود طلعت (أول محافظ لدمياط فى ظل نظام الحكم المحلى الذى بدأ عام ١٩٦٠).

- اللواء محمد المنياوى (محافظ دمياط إبان السبعينيات ثم عمل محافظا للقليوبية).

- المهندس حسب الله الكفراوى (محافظ دمياط فى أواخر السبعينيات ثم عين وزيرا للاسكان والمرافق).

- المهندس عصام راضى (محافظ دمياط فى أوائل الثمانينيات ثم عين وزيرا للرى وانتخب نقيبا للمهندسين).

- الدكتور أحمد جويلى (محافظ دمياط .. ثم عين محافظا للإسماعيلية .. ثم وزيرا للتموين والتجارة الداخلية وأخيرا أمينا عاما لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية).

هذا .. وقد أتيح لى حضور لقاءات عارضة وموقوته من خلال مؤتمرات جماهيرية – وسياسية عامة حضرها بعض الرؤساء السابقين: محمد نجيب .. وجمال عبد الناصر .. وأنور السادات وكذلك رئيس وزراء مصر الأسبق ممدوح سالم (وقد كان أحد اللقائين الأخيرين – فى مؤتمر برئاسة السادات والآخر برئاسة ممدوح سالم – إبان السبعينيات .. وكان ذلك بدعوة رسمية شخصية بصفتى رئيسا لوحدة من وحدات الحكم المحلى)

ثانياً:- بيان تفصيلى مع نفر من المشاهير والأعلام:

أشرنا آنفا إلى أننا سنتناول بشئ من التفصيل الحديث عن تجربة إلتقائى ببعض من الشخصيات التى تم ذكرها إجمالا ... ورأيت أن أكتفى بانتقاء أسماء نفر من هؤلاء لإلقاء مزيد من الضوء على العديد من جوانب تتصل بأولئك المشاهير والأعلام الذين قد هيأ الله لى فرصة الإلتقاء بهم ...

(١) مع العقـــــاد

والمعية هنا وفى هذا السياق تمثل شكلا من أشكال الاقـتراب من عالم هذا الرجل العظيم .. وصورة من صور التواصل مع فكر وعقـل هـذا المبـدع الكـبير ... إن العبقريـة الفـذة التـى يهبهـا الله سبحانه لبعض من خلقه فيما تتشكل به وتتجلى مـن خلالـه آيـة من بديع صنع الله تجسد بوتقة أو منظومة لاحتشاد ذلـك المزيج من السمو لأقانيم من الخصب العقلى والوجدانى والروحى جميعا ... إن مثل تلك العبقريات الفذة التى يمثـل وجـود هـابين النـاس حضورا استثنائيا على امتـداد الأزمنـة والأمكنـة هـى إفصاح عـن الإمكـان المتجـدد للآفـاق التـى يمكـن أن تصـل إليهـا إسـتعدادات وطاقات الوجود البشرى لـدى الإنسـان ... وإذا كـان الأسـتاذ العقـاد (١٨٨٩-١٩٦٤) يمثل أحد فرائـد تلـك السلسلة الذهبيـة ذات الوجـود النفيس المتميز بين خلق الله .. فإنه هو أو غيره من أولئك الأعـلام الذين يمثلون تلـك النجـوم الزاهـرة مـن بنـى الإنسـان لا يخـرج أى منهم أبـدا عـن أن يكون واردا فـى شأنه أى مـن نقـائص الطبيعـة البشرية .. وقـد تفضـى تلـك الإشارة الأخيرة إلى تنـاول أمـر ربمـا يثور لدى البعض بشأن نهج أو أسلوب معالجـة يلجأ إليـه نفـر مـن كتـاب السـيرة أو مـن الـذين يتعرضـون لبيـان بعـض جوانـب مـن شخصية أى من الأعـلام البـارزين .. حـين يكتفـون بـالتركيز علـى ذكر الجوانب والسجايا الإيجابيـة المضـيئة المتصـلة بعناصـر السـمو والتميز فى شخص صـاحب السـيرة دون التعـرض لأيـة سـلبيات أو نقـائص تتصـل بكيانــه الشخصـى وبسـلوكياته الاجتماعيــة ..

وهناك من النقاد من يرى أن مثل هذا النهج فى التناول يعد نهجا غير دقيق وغير متوازن أو ينقصه الصدق فى معالجة أمينة بصدد تلك المادة من الكتابة ... ولكننى – من وجهة نظرى – أرى أنه لا يتحتم بالضرورة على من يتعرض لمثل هذا النوع من الكتابة أن يذكر كافة الجوانب ومختلف الزوايا المتصلة بالشخصية التى يتم الحديث عنها .. لأن الكاتب هنا (ومن الوجهة الفنية الإبداعية المرتبطة بتقنيات هذا الجنس من الكتابة الأدبية) – لا يكتب تقريرا رسميا أو علميا يغطى كافة الجوانب والتفاصيل الشاملة عن الحالة التى يكتب عنها ... بمعنى أنه قد يجوز أو يلزم مثل هذا النهج التقريرى الشامل بالنسبة لنوعية أخرى من التناول غير تلك المتصلة بالمعالجة الأدبية والإبداعية التى تقوم على طلاقة حرية الكاتب فى الاختيار لانتقاء جوانب بذاتها لدى الشخصية التى يكتب عنها لإلقاء الضوء عليها وتقديمها للقارئ أو المتلقى من منظور الكاتب بغية توصيل رسالة بذاتها عن قيم ومعان بعينها من خلال إبراز تلك الجوانب التى اختار أن يتناولها بالتحليل واستخلاص رؤى معينة يهدف إلى أن يخرج بها ويعرضها على القارئ .. أما الجوانب الأخرى المسكوت عنها أو التى لم يتم تناولها ... فهى إما أن تكون مفترضة ووارد إمكان وجودها ولا يرى الكاتب ضرورة تلزم بوجوب التعرض لها .. وأنه من البديهى فى وعى القارئ أنه يعلم سلفا أن الكاتب يتحدث عن حالة بشرية وليس عن أحد من الملائكة أو عن مخلوق نورانى منزه معصوم ...

هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى فإننى أرى أن الجوانب السلبية التى تكون فى شخصية صاحب السيرة وفى سلوكياته

الخاصة .. هى أمر ذاتى يتحمل مسئوليتها أمام الله والمجتمع .. أما الذى يهم القارئ .. فإنه يكفيه أن يجد ما يفيده أو يسعده ويرضيه فيما يطالع أو يقرأ عن هذا الأديب أو عن ذاك المفكر أو العالم .. ولا يحتاج من أجل أن يتحقق له شئ من ذلك أن يكون من يقرأ عنه أوله على درجة أو على مستوى معين من سجاياه الشخصية وفى تصرفاته الذاتية ... فلا يلزم أن نعلق الاستفادة من إبداع المبدعين (سواء كانوا أدباء وفنانين أو مفكرين وعلماء أو مخترعين)حتى يتم التنقيب فى مختلف الجوانب الشخصية والسلوكية لأى منهم ... فلم تقم شروط مسبقة للوقوف على السجايا الشخصية لأى من المبدعين حالت بين الناس وبين الاستمتاع والإفادة من ناتج عمل القرائح الممتازة صاحبة الإبداع لدى أى من سقراط والفارابى أو هوميروس وشكسبير أو مايكل أنجلو ورينوار أو بتهوفن وموتسارت أو ابن خلدون وتوينبى أو نيوتن واينشتين أو استيفنسن وأديسون .. أو غير هؤلاء جميعا من عباقرة الابداع البشرى .. ولو أنه حدث شئ من ذلك الارتباط الشرطى .. لخسرت الإنسانية خيرا عميما وفاتتها فوائد جمة فى مسيرة رقيها وتقدمها العقلى والوجدانى والحياتى ...

ونختتم القول فى هذا الاستطراد بهذه المقدمة التى تسبق تناول جوانب تتصل بالمادة التى نود ذكرها تحت العنوان المشار إليه آنفا (مع العقاد) فنقول إننا نعجب وننبهر أو قد نفيد ونسعد بما لدى المبدع وليس بشخصه فى ذاته ... وذلك تأسيسا على حقيقة أن كل صور الإبداع التى يقدمها المبدعون .. هى فى الأصل عطاءات يهبها الله ويغدقها على بعض من خلقه ... يوفقهم

سبحانه إلى بلوغها ليصل ذلك الخير إلى بقية الناس من خلال أولئك المبدعين وفق مشيئته ولحكمة يعلمها ويقدرها الله باختياره هؤلاء البعض من خلقه ليتحقق بهم ذلك الخير والنفع بما يجعله متاحا لأن ينهل منه بقية البشر.

والآن ننتقل إلى بيان وتوضيح بعض جوانب تجربة اقترابى فكريا من الأستاذ العقاد ... وبداية أود أن أحدد طبيعة ومستوى تلك العلاقة التى ربطت اهتماماتى بعالم العقاد إبان فترة خصيبة من سنوات العمر بدأت فى مستهل العام الميلادى ١٩٦١ فلم تكن هناك – طوال تلك الفترة – أية معرفة شخصية مع هذا الرجل العظيم ... ولكن حسبى أن أتيح لى أن أكون أحد الذين يحضرون اللقاء الأسبوعى (يوم الجمعة) لصالون العقاد الأدبى والثقافى بمنزله فى حى مصر الجديدة ... واقتصر ذلك الحضور بالنسبة لى على بعض اللقاءات خلال عام ١٩٦١ .. ثم إن هناك جانبا آخر لعلاقتى بعالم العقاد حيث تيسر لى أن أحظى بردود وتعليقات من الأستاذ العقاد تعقيبا ومناقشة منه لبعض القضايا التى كنت أبعث بها إليه من خلال رسائل بريدية إلى جريدة الأخبار التى كانت تخصص الصفحة الأخيرة يوم الأربعاء من كل أسبوع ليوميات يكتبها العقاد .. وسوف نتناول – فى سطور لاحقة – الإشارة إلى موضوعات تلك الرسائل ... ثم إن هناك جانبا ثالثا لتلك العلاقة الهامة والأثيرة إلى نفسى بعالم العقاد .. ويتمثل ذلك الجانب فيما كتبته عن العقاد وعن فكره ومنهجه من خلال مقالات ودراسات تم نشرها بعدد من الجرائد والمجلات

المصرية والعربية وتم التقدم ببعضها الآخر فى مسابقة أدبية أجرتها جمعية العقاد الأدبية .. وسوف نتناول أيضا عناصر ذلك الجانب بشئ من التفصيل فيما يأتى من سطور لاحقة ...

وها نحن نعود بالقارئ إلى الحديث بعض الشئ بالنسبة لكل من تلك الجوانب الثلاثة التى أشرنا إليها آنفا:

أ- فى صالون العقاد:

فى أحد أيام شهر يناير ١٩٦١ وبعد انتهاء فاعليات حلقة من حلقات ندوة ناجى .. وكنت من بين الحاضرين لتلك الندوة الأدبية التى كانت تعقد يوم الاثنين من كل أسبوع بحى الدقى فى مدينة الجيزة .. وكان ينظمها ويشرف عليها الأستاذ الدكتور شوقى السكرى ... أقول إنه فى ذلك اليوم وعقب أن فرغت لتوى من حوار مستفيض مع الأستاذ الدكتور عثمان أمين – الذى كان أيامها رئيسا لقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة – وجاء الحوار بمداخلة منى للمشاركة فى جدلية نقدية تتصل ببعض جوانب ما تضمنه آخر الكتب التى قام بتأليفها الدكتور عثمان وتم نشرها من خلال سلسة (إقرأ) الصادرة عن دار المعارف .. أعود فأقول إنه بعد انتهاء الندوة سمعت أحد الحاضرين يتحدث مع زميل أو صديق له حديثا يتصل بالصالون الأدبى الثقافى الزاخر الذى يعقد يوم الجمعة من كل أسبوع بمنزل الأستاذ العقاد ... فأثار ذلك الحديث شغفى وحرصى على حضور ذلك المنتدى العقادى .. وحصلت من أحدهما على عنوان مسكن العقاد وعلى

بعض البيانات التى وجدت الإلمام بها ... وفى ضحا يوم الجمعة التالى توجهت إلى منزل الأستاذ العقاد .. وكان بالطابق الثانى بالعقار رقم ١٣ شارع السلطان سليم (شارع شفيق غربال فيما بعد) على أحد جوانب ميدان روكسى بحى مصر الجديدة ... وفى طريقى إلى منزل العقاد .. ملأنى شعور غامر .. فقد كان يشع من داخلى إحساس متوهج بفرحة عميقة يغشاها شئ من الرهبة .. كأننى مقدم على حدث رائع جليل .. أو كأننى متوجه صوب لحظة زاخرة بهالة عظمى من أسباب المجد والخلود .. وكيف لا .. وأنا سألقى عملاق الفكر والأدب والثقافة .. جبار القلم .. الذى يحمل على كتفيه ذلك التاريخ الحافل من المجد ومن الرفعة المحلقة فى أجواز الحكمة والعبقرية .. سأدلف إلى تلك القلعة الشامخة وأكون فى بلاط أمير المعرفة وسلطان الوعى والتنوير .. ذلك الهرم الأكبر من العصامية الفذة التى صاغت تلك القامة السامقة المهيبة فى عالم الفكر والمعرفة الموسوعية .. وفى عالم السياسة .. (كاتبا سياسيا .. مناضلا جسورا بقلمه الجبار .. والذى كانت مقالاته تزلزل الأحزاب والوزارات والقصر الملكى ودار المندوب البريطانى جميعا ... وبرلمانيا بارزا قاطع الحجة بارع المنطق .. صاحب القولة الشهيرة المدوية تحت قبة البرلمان عام ١٩٣٠ حين قال "إن الأمة على إستعداد لأن تسحق أكبر رأس فى البلاد من أجل صيانة الدستور") ..

وقبل كل هذا وبعده .. فالأستاذ العقاد يعد رائدا بارزا من رواد مشروع النهضة والتحديث فى مصر ... ونواصل القول

بأننى ما أن وصلت عند الباب الخارجى بسور الحديقة الصغيرة أمام منزل العقاد حتى دلفت فوق ذلك الممر الموصل إلى باب المنزل المتواضع متوسط الحال .. فارتقيت درجات السلم إلى الطابق الثانى حيث يقيم العقاد .. وقد احتشدت داخلى حالة من جيشان المشاعر المتوثبة .. وكأننى أتهيأ لتلك اللحظة الرائعة التى أرى فيها ذلك الأستاذ الجليل ... وهاأنذا أجد نفسى – حقا وفعلا – أدخل من باب حجرة صالون العقاد (المجاورة من جهة اليمين لباب الشقة) فأجد الأستاذ العقاد يقوم من فوق مقعده – بصدر المكان – ويتجه لإستقبالى .. فيصافحنى فى ودوترحاب .. وقد امتشقت قامته الفارعة .. يلبس رداءا رشيق الهندام (روب دى شمبر) وعلى رأسه قلنسوة (عبارة عن باريه) وينتعل خفا من القطيفة .. وعقب المصافحة بسط ذراعه فى إتجاه داخل الحجرة إشارة منه لأجلس مع بعض الذين أتوا لحضور المنتدى الأسبوعى .. وما أن استويت على أحد الأرائك حتى ألفيت (عم أحمد حمزة) خادم العقاد ذلك الشيخ النوبى طيب القلب كما يبدو على محياه .. ألفيته يقدم لى كوبا من عصير البرتقال .. وما إن فرغت من تناول العصير حتى أعقبه بتقديم فنجان من القهوة (وتلك تحيه كان يقدمها الأستاذ لأى من ضيوفه الذين يحضرون إلى ندوته الأسبوعية)

وهكذا وجدت نفسى – فى ذلك اليوم المشهود – أجلس داخل صالون العقاد ... وأثناء الانتظار بعض الوقت حتى يبدأ الأستاذ أعمال الندوة ... أخذت أرقب (من مكان جلوسى) الأستاذ

العقاد الذى يجلس أمامنا على أريكة فى مواجهة الحاضرين .. وكان كلما دخل أحد الحاضرين إلى الندوة .. ينهض الأستاذ ليصافحه بنفسه مرحبا بمجيئه .. وأعود إلى القول إننى أخذت أرقب الأستاذ العقاد .. ذلك الشيخ المهيب الجليل الذى يجسد ذلك الزخم الهائل النفيس .. نموذجا فذا لرحلة حافلة بالعطاء العبقرى .. وبالكفاح العصامى النبيل .. وبالنضال فى أسمى القيم وأشرف الغايات .. هاأنذا فى حضرة أحد رواد حركة النهضة والتنوير فى تاريخ مصر الحديث ... هذا هو العقاد يجلس أمامى .. هناك على أريكته التى أراها أحق بالرفعة من عروش كثير من الملوك والأباطرة ... لقد خامرنى فى تلك اللحظات الطلية النيرة .. خامرنى شعور مترع بالرضا العميق .. إنها لحظات من أندر وأروع لحظات العمر ...

وما أن وجد الأستاذ العقاد أن تبدأ فاعليات الندوة — بعد أن حضر من رواد الصالون ومن مريدى الأستاذ وأخلائه على اختلاف حيثياتهم .. سواء كانوا أساتذة جامعيين أو كتاب وصحفيين أو فنانين تشكيليين أو طلاب بالكليات أو خريجين ... أقول ما لبث الأمر قد صار هكذا .. حتى بدأت فاعليات الندوة .. وسارت الحوارات والأسئلة وردود الأستاذ وشروحه وتعقيباته الضافية التى تتدفق فى سلاسة وعمق وفى موسوعية مستفيضة .. يتخلل ذلك شئ من ضحكات الأستاذ التى تحمل طابعه الخاص فى القهقهة المتهدجة ذات الإيقاع العقادى المتميز .. فضلا عن بعض قفشاته الساخرة حينا واللاذعة أحيانا ..

ومن خلال المرات التى حضرت فيها الندوة الأسبوعية لصالون العقاد (إبان عام ١٩٦١) لا أذكر أنه كان هناك جدول أعمال أو أجندة مسبقة لتحديد موضوعات بعينها للنقاش والحوار خلال الوقت الذى يستغرقه عقد الندوة ... الذى أذكره .. أن طرح الموضوعات وما يتصل بها أو يستتبعها من نقاش ومن حواريات جدلية تتخللها إيضاحات واستخلاصات يبلورها الأستاذ ... كل ذلك كان يحدث من خلال نسق أشبه بطريقة توليد الأفكار .. والخروج من المعانى بمعان أخرى جديدة .. وهو ما يذكرنا بما كان على عهد سقراط كبير فلاسفة الإغريق فى بلاد اليونان القديمة.

والذى أريد أن أشير إليه فى هذا السياق .. أن سعادتى الحقيقية بما أتيح لى من حضور بعض ندوات صالون العقاد .. لم تكن فقط لمجرد أننى كنت وسط تلك الكوكبة من صفوة المثقفين فى حضرة العقاد .. الذى هو من هو فكرا وثقافة وعلما وإبداعا .. وقد انعقد له لواء المجد من أطرافه فى دنيا المعرفة وعالم التنوير العقلى بما جعله قد صار أعظم المفكرين العرب فى القرن العشرين ... أقول لم يكن الأمر ينتهى عند ذلك وكفى مع أهميته وفائدته العميمة فى ذاته نظرا لما يتوفر عنه من فرصة خصبة يانعة لارتشاف بعض من فيض ذلك العطاء العقلى والمعرفى الباهر فى ألقه النفيس فى جوهره لما يمثله ذلك من فوز طلى وغنيمة حقيقية كبرى ... ولكن الذى فوق ذلك كله هو الأثر الرائع الذى يتحقق للعقل والنفس والروح جراء ذلك الاقتراب الحميم من العظمة ومن القيم العليا محتشدة فى إهاب ذلك

العملاق الذى كنا نجلس إليه .. وما يستدعيه ذلك الحضور من تجسيد لبوتقه هى جماع رحلة تاريخ من كفاح عصامى ومن نضال شريف لعقل كبير وروح فذة وإرادة فولاذية بما أخرج لمصر ذلك الهرم الكبير الذى ملأ الدنيا وشغل الناس عن جدارة دامغة وعن استحقاق أصيل ... فالأثر الناجم عن التلقى المباشر والتفاعل الحى داخل دائرة إشعاع ذلك الوهج العبقرى ... ذلك الأثر له كيمياؤه الطلى العميق فى العقل والروح جميعا على نحو لا يعدله تأثير آخر يتحقق عن تحصيل جوانب من فكر العقاد ومن الوقوف على شئ من خلاصة تجربته عن طريق الإطلاع على ما أبدعه من فرائد الأسفار وروائع المصنفات أو من خلال ما كتبه الآخرون عن أدبه وفكره وحياته...

ب – مع العقاد فى يومياته بجريدة الأخبار:

كانت – ولا زالت – جريدة الأخبار التى تصدر عن دار أخبار اليوم بالقاهرة) تخصص الصفحة الأخيرة من الجريدة يوميا لتكون مادتها تحت عنوان (يوميات الأخبار) وتختار عددا من كبار الكتاب المرموقين ليحرر كل منهم صفحة اليوميات يوما من أيام الأسبوع .. وكان الأستاذ العقاد يقوم بكتابة صفحة اليوميات يوم الأربعاء من كل أسبوع .. وقد تولى ذلك اعتبارا من أواخر عام ١٩٥٣ ... وكانت يوميات العقاد تحفل – فى غالب مادتها – بردوده وتعليقاته على ما يرسله القراء إليه من آراء وأسئلة واستفسارات حول أى موضوع يتصل بالأدب أو بأى شأن من شئون الثقافة والفكر وأحوال الناس والحياة بعامة .. وظل

ذلك العطاء العقادى متصلا حتى قبيل وفاته فى ١٢ مارس ١٩٦٤ .. وقد تم تجميع تلك اليوميات التى نشرت بجريدة الأخبار مع بعض مما نشر للعقاد فى جرائد ومجلات أخرى فى إطار ذلك السياق من الكتابة .. نقول إنه تم تجميع وإعداد ذلك للنشر فى كتب أربعة كتب حمل كل مجلد منها عنوان (يوميات العقاد) وقد صدر المجلد الأول منها فى حياة العقاد عام ١٩٦٣ وكتب بنفسه تقديم ذلك الجزء الأول من اليوميات ... وضمت تلك اليوميات بالمجلدات الأربع موضوعات متنوعة فى مختلف مناحى الفكر والثقافة .. وهى فصول من أمتع ما كتب العقاد ومن أكثرها فائدة ونفعا للقارئ لطريقة تناولها على نحو سهل مبسط مع طلاوتها وأهمية مادتها ذات الموسوعية وذات المستوى الجاد والرفيع.

وكان من حظى الحسن ومن الفرص الطيبة فى حياتى أن أتيح لى (من خلال أربع من تلك اليوميات بجريدة الأخبار) قيام الأستاذ العقاد بالرد وبالتعليق المستفيض على كل واحدة من تلك الموضوعات الأربع التى بعثت بها إليه .. ثلاث منها خلال عام ١٩٦١ والرابعة فى عام ١٩٦٣ وذلك على النحو التالى:

* الموضوع الأول .. عن كيفية نشأة اللغة بين البشر كوسيلة للتفاهم والتواصل وللتعبير عن الحاجات والأحاسيس والمشاعر ... ثم كوعاء لنقل وتراكم المعارف والعلوم وكأداة لكل مجالات الإبداع بالكلمة ... وقد تم نشر ذلك الموضوع والتعقيب عليه من الأستاذ العقاد بيوميات جريدة الأخبار فى ١٩٦١/١/٢٥ .. وكانت تلك أول مرة يكتب فيها اسمى بحروف المطبعة فى جريدة يومية من كبريات الصحف المصرية وأوسعها إنتشارا .. وقد كانت فرحتى

غـامرة بـذلك خاصـة أن الـذى ينـاقش القضـية التـى طرحتهـا ويعقب عليها هـو الكاتـب الكبير (عبـاس محمـود العقـاد) صـاحب المكانة الرفيعة والمنزلة العالية فـى عـالم الفكـر والأدب وفـى دنيـا الثقافة والمعرفة.

★ الموضوع الثانى .. حول النقد الموضوعى فى الأدب .. وجـاء ذلـك فـى عـدد جريـدة الأخبـار بتـاريخ ١٩٦١/٥/١٧ وقـد أورد الأسـتاذ العقاد الحديث عن هذا الذى طرحته عليه فى سياق تناوله لتلك (التجربـة التـى أقـدم عليهـا المـؤرخ البريطـانى الشـهير (أرنولـد توينبى) إمام مدرسة متميزة مستقلة فـى "فلسفة التـاريخ" تلـك التجربــة المتمثلــة فــى كتابــه الــذى أسمــاه (إعــادة نظــر Reconsideration) وأدار فصـوله وقـد جـاوزت سـبعمائة صـفحة علـى نقـد كتابـه الضـخم الـذى أتمـه فـى عشـر مجلـدات) فالناقد هنا — وكما يقول الأستاذ العقاد — هـو المنقـود .. والكاتـب هو موضوع الكتـاب .. الأمر الذى يجعل القارئ لذلك الكتاب يطـالع صفحة مـن صـفحات النقـد الـذاتى أو صـفحة مـن صـفحات النقـد الموضوعى .. فكلاهما واحد حول هذا الكتاب .. ثـم يقـول الأسـتاذ العقاد فى تلك اليومية من يومياته بجريدة الأخبـار تحت عنـوان (المـؤرخ تـوينبى يصـحح نفسـه) يقـول: إن النقـد "الموضـوعى" لا يتطلب من الناقد أن يتجرد من "شخصيته" وأن يقيم نقـده علـى قواعـد غير قواعـده السابقة أو اللاحقـة .. كـل مـا يتطلبـه منـه

إخلاص النظر وإخلاص التطبيق .. وليكن بعد ذلك موضوعيا أو ذاتيا أو "ذاتيا موضوعيا" كما يريد ...

وبعد هذا الكلام الذى أوضحه الأستاذ العقاد .. أورد مباشرة — ضمن هذا السياق — وجهة نظرى التى تتبلور فى (أن لكل فرد مجاله السيكلوجى الخاص .. وأننا إذا تعرضنا لمسألة النقد الموضوعى فى الأدب لا نجد حيلة للاقتناع بقيام ما يمكن تسميته بالنقد الموضوعى لأى إنتاج أدبى ..) وقد قام الأستاذ العقاد بالتعقيب المستفيض — على هذا الرأى الذى قلت به — ناقدا لوجهة نظرى تلك .. وقد جاء تعقيبه موضحا مختلف جوانب ذلك الموضوع من خلال نهج الأستاذ العقاد المتعمق فى التحليل والاستنتاج والإقناع .. على نحو يشبع العقل ويدهشه بل ويبهره كثيرا .. وقد جاء ذلك الشرح والتعقيب على امتداد صفحة كاملة بالمجلد الأول من كتاب يوميات العقاد الذى أصدرته دار المعارف عام ١٩٦٣.

* الموضوع الثالث .. هو ما بدأ به الأستاذ العقاد الكتابة فى صفحة اليوميات بجريدة الأخبار يوم ١٩٦١/٩/٢٧ واختار لذلك عنوان (لوحات الفن فى مرآة الأشواق) وقد تمت كتابة هذا العنوان (بالبنط) الكبير فى أعلى الصفحة .. ثم جاء نفس الموضوع مشفوعا برد الأستاذ العقاد فى صفحتين كاملتين بالمجلد الثالث من كتاب يوميات العقاد — الصادر عن دار الشعب — ويتبلور الموضوع الذى طرحته على الأستاذ العقاد فى طلب الوقوف على السر الذى يكمن وراء تباين الحالة الوجدانية أو الشعورية بين ما

قد نشاهده فى إحدى اللوحات الفنية أو على شاشة السينما من منظر للغروب أو لبعض القرويات اللائى يملأن جرارهن من النهر أو للراعى الذى يرعى قطيعه وسط السهول والوديان وبين ما قد نشاهده من تلك المرائى بواقعها الفعلى على الطبيعة ... وقد أوضح الأستاذ العقاد فى رده تفسيرا ضافيا حول هذا الموضوع .. وأبان شرحا مفصلا لمختلف الجوانب المتصلة بهذا الأمر .. استهله بقوله: إن تأثير الطبيعة المباشر لا يعدله تأثير مصنوع فى مناظر الغروب أو مناظر الآدميين أو غيرها من المناظر التى تحرك شعورنا وتتسرب إلى أعماق عواطفنا وتبعث فينا الرغبة والرهبة كما تنبعث فى أعمال الحياة ... ولكن الطبيعة من خلال الذكرى تتجسم وتتضاعف وتعود إلينا مكبرة مضخمة كما يحدث فى ذكرياتنا لمناظر الصبا أو للذكريات المستعادة على البعد من وحى الخيال ... الخ

★ الموضوع الرابع .. حول فلسفة التشاؤم وعلاقته بالمثل العليا ..

وقد ورد الحديث بشأن ذلك الموضوع — بيوميات جريدة الأخبار بتاريخ ١٩٦٣/١٠/٢٣ — فى سياق ما تناوله الأستاذ العقاد عما سبق للأستاذ أنيس منصور أن رواه عن العقاد من رأى يميل إليه فى تعلل من تعليلات كثيرة لفلسفة التشاؤم بأنواعه .. وفحوى هذا التعليل أن أناسا من المتشائمين يسخطون على الحياة لأنهم أصحاب "مثل عليا" يئسوا منها ولم يستطيعوا تحقيقها ولا الإيمان بامكان تحقيقها بعد التجربة ..

وعند هذه النقطة من السياق أورد الأستاذ العقاد خلاصة رأى لى يتصل بهذه القضية ضمن رسالتى إليه فى هذا الشأن .. ومؤدى رأيى فى ذلك أننى لا أرى ارتباطا سيكولوجيا واضحا بين كون الفرد متشائما وما يكون لديه من مثل عليا وقيم أخلاقية..

وفى تعقيب الأستاذ على ذلك الرأى الذى أبديته أشار إلى أن الأمر على خلاف ما ذهبت أنا إليه .. (ولكن بعد الاحتياط الشديد من تعميم القول على جميع مذاهب التشاؤم، إذ ليس الإيمان بالمثل العليا أساسا لكل تشاؤم بالفكر أو بالمزاج، بل كثيرا ما يكون المرء متشائما لأنه ضعيف الثقة ضعيف الأمل ضعيف القدرة عليه وعلى العمل فى آن) ويستطرد الأستاذ العقاد فيقول (ولكن العلاقة بين الأمل الكبير وبين التشاؤم عند بعض الناس واضحة جد الوضوح فى حياتنا الاجتماعية ... ومن أمثالنا الشائعة أن "العتب على قد العشم " ويضيف الأستاذ إلى ما تقدم مزيدا من الأمثلة التى تؤكد ما يراه فى هذا الشأن .. إلى أن يختتم القول بأن الانقباض من الحياة فى بعض الأحيان يكون دليلا على انتظار الكثير، ثم اليأس من الكثير والقليل.

(ج) كتاباتى عن العقاد:

وفقنى الله إلى كتابة عدد من الموضوعات عن الأستاذ العقاد ما بين دراسة أدبية ومقال وذلك على النحو التالى:

١- دراسة أدبية بعنوان (المنهج النفسى فى أدب العقاد) تم نشرها بمجلة الثقافة العربية — عدد يناير ١٩٧٦ - وهى مجلة تصدرها وزارة الإعلام بليبيا ويصل توزيعها إلى مختلف الدول العربية

٢- مقال بعنوان (مع العقاد فى ذكراه) تم نشره بتاريخ ١٩٧٦/٣/٨ فى جريدة أخبار دمياط — وهى جريدة إقليمية أسبوعية.

٣- مقال بعنوان (أقدار الرجال) تم نشره بتاريخ ١٩٧٩/٣/٢٧ فى جريدة الأهرام.

٤- دراسة أدبية بعنوان (حواء والعقاد) تناولت فيها رأى العقاد وموقفه من قضية المرأة فى العديد من جوانبها وأبعادها استخلاصا لذلك من كتابات العقاد عن المرأة ...وقد تم تقدمى بتلك الدراسة إلى المسابقة التى أعلنت عنها جمعية العقاد الأدبية عام ١٩٧٧ بالجرائد اليومية على مستوى الجمهورية والمسابقة فى مجالات ثلاث: القصة والشعر والمقال .. وقد أسفرت نتيجة المسابقة عن فوزى بالمركز الأول فى مجال المقال .. وتم نشر تلك النتيجة فى حينها عام ١٩٧٧ بجريدة الأهرام وحصلت من الجمعية على شهادة تقدير وجائزة عن هذا الفوز.

(٢) مع الدكتور محمد حسن الزيات
(وزير خارجية مصر الأسبق)

لعله من الملائم أن نشير فى إيجاز إلى بعض جوانب السيرة الذاتية للدكتور الزيات ... فقد ولد فى ١٤ فبراير ١٩١٥ وهو من

أسرة دمياطية عريقة ذات جاه وثراء .. ومن المعروف أن الدكتور الزيات صاهر الدكتور طه حسين حيث تزوج ابنته أمينة وكانت زميلة له بكلية الآداب التى تخرج فيها عام ١٩٣٩ ثم حصل على الماجستير عام ١٩٤٢ وبعدها حصل على الدكتوراه من جامعة أكسفورد عام ١٩٤٧ عن تأثير الفارسية فى الآداب السياسية إبان القرون الثلاثة الأولى للإسلام ... وأعقب ذلك التحاقه للعمل بالتدريس بجامعة الإسكندرية لمدة تزيد على عشر سنوات .. ثم التحق بالعمل الدبلوماسى لدى وزارة الخارجية التى شغل بها العديد من المناصب .. كان من بينها: أنه عين مستشارا فى سفارة مصر بواشنطن — وزيرا مفوضا ممثلا لمصر بجامعة الدول العربية — سفيرا لمصر فى عدد من الدول .. وفى عام ١٩٦٩ عين سفيرا ومندوبا دائما لمصر لدى هيئة الأمم المتحدة حتى عام ١٩٧٢ حين تم اختياره وزيرا للإعلام .. وفى نفس العام عين وزيرا للخارجية ... وفى أواخر أكتوبر عام ١٩٧٣ عين مستشارا لرئيس الجمهورية حتى عام ١٩٧٥ — (من كتاب محمد حسن الزيات لسمير فراج).

هذا وقد حصل الدكتور الزيات على عدد من الأوسمة والنياشين من بينها: وسام الجمهورية من الطبقة الأولى — وشاح النيل .. ونظرا لمكانته الدولية المرموقة فقد سبق أن اختاره الملك الحسن الثانى (ملك المغرب السابق) عضوا فى لجنة تحكيم لاستحقاق جائزة عالمية يمنحها الملك .. كما أن الدكتور الزيات أختير عضوا بلجنة تحكيم فى جائزة أنديرا غاندى العالمية

للسلام والتنمية ونزع السلاح .. هذا فضلا عن أننى علمت من الدكتور الزيات – فى سياق حديث لى معه أوائل الثمانينيات – أنه أختير ضمن مجموعة من المحاضرين ذوى المكانة الدولية ليلقى كل منهم محاضرة على رُكّاب سفينة سياحية حول العالم يستقلها هؤلاء الركاب من الشخصيات ذوى الحيثية العالمية المرموقة ..

وكانت مهمة الدكتور الزيات اللحاق بالسفينة فى المسافة ما بين الهند وأسبانيا لالقاء محاضرته التى طُلِبَ إليه تقديمها لركاب تلك السفينة ذات الطبيعة الخاصة بالنسبة للنخبة التى تستقلها وللوجهة التى تمضى إليها وتعمل على تحقيقها ...

وبعد هذه المقدمة عن موجز السيرة الذاتية للدكتور الزيات .. أقول إننى تعرفت إلى ذلك الرجل النبيل – رحمه الله – فى أوائل الثمانينيات .. وصارت بيننا مودة شخصية طيبة .. اتصلت إلى ما يقرب من عامين .. أتيح لى أن ألتقى مع الدكتور الزيات من خلال لقاءات عديدة من حين لآخر قد تصل إلى عشر لقاءات كانت تدور فيها بيننا أحاديث وحوارات ونقاشات ودية أخوية أثيرة فى منزله .. إما بالناصرية (مركز فارسكور) أو بمدينة دمياط أو بمصيف رأس البر أو داخل سيارته المرسيدس التى يقودها سائقه الخاص ونحن فى طريقنا بين تلك المواقع الثلاث التى أشرت إليها .. أو أثناء الجلوس فى حديقة (فللته) أو استراحته بذلك المنتجع الريفى الجميل بجوار ضيعته التى تتسع إلى ثمانين فدانا ببلدة الناصرية التى كانت إحدى البلدان الواقعة

بدائرة مجلس شرباص الذى كنت رئيسا له إبان تلك الفترة فى أوائل الثمانينيات ...

وكانت تلك الأحاديث بيننا أحاديثاً نافعة شيقة طلية ذات قيمة ثقافية وفكرية رفيعة المستوى .. وهى خصبة متنوعة تتصل بكثير من شئون الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع تتخللها أحيانا تعليقات مازحة واستخلاص لمعان تبلور وجهة نظر أى منا عن وقائع مما تحفل به مجريات الحياة العامة ... وكان الرجل فى أحاديثه تلك .. نبيلا ودودا فى بساطة وضيئة راقية وفى عفوية سمحة رائقة دون أى تحفظ أو تعال ودون اتشاح بروح الأرستقراطية المترفعة .. وإن كانت شخصيته تشع هيبة وسكينة لكنها صافية راضية .. وللرجل حضور أليف يشجع على التواصل دون توجس أو رهبه .. وذلك نمط نفيس من البشر .. والواحد من هؤلاء الناس مزيج رائع لتوازن عبقرى بين مكونات تشكل سبيكة ناصعة من السجايا الكريمة والشمائل الطيبة.

وأذكر أننى ذات مرة سألت الدكتور الزيات – ونحن جلوس نحتسى الشاى وسط حديقة منزله بالناصرية صباح يوم جمعة فى أوائل الثمانينيات – سألته (باعتباره صهر الدكتور طه حسين بزواجه من ابنته أمينة) مستجليا الأمر بشأن ما أثار دهشتى نظرا لما شاهدته أيامها ببرنامج تليفزيونى كانت ضيفته السيدة/ سوزان عقيلة الدكتور طه حسين .. وقد لاحظت عند مشاهدتى للبرنامج أنها كانت تتحدث بالفرنسية – لغة قومها

الذين أتت من بينهم — ولم تنطق كلمة يومها (بالبرنامج الذى يبثه التليفزيون المصرى من القاهرة) — لم تنطق كلمة واحدة باللغة العربية ولو بلهجة (خوجاتى) كما يفعل بعض الأجانب المستشرقين أو الدبلوماسيين أو السياح الذين عاشوا بعض الوقت بين المصريين أو بين أهل أى من الدول العربية ... وكان مبعث دهشتى واستغرابى أن السيدة/ سوزان تفعل ذلك بالرغم من أنها زوجة عميد الأدب العربى .. الذى ظل لمدة سنوات قبل وفاته رئيسا لمجمع اللغة العربية .. وهو من قضت معه (منذ زواجه بها فى أغسطس ١٩١٧ وحتى وفاته فى أكتوبر ١٩٧٣) ما يزيد على ستة وخمسين عاما عاشت منها فى مصر العربية عشرات السنين .. وكان من طبيعة الأشياء (من الناحية العملية على الأقل) أن تكون هناك مقتضيات تحتاج معها السيدة/ سوزان إلى التحدث باللغة العربية لإتمام أداء العديد من وشائج الحياة الاجتماعية اليومية وكثير من علاقات الحياة العامة داخل المجتمع المصرى بما يتطلب إستخدام اللغة العربية (فصيحة أو دارجة) بما ييسر قيام تلك الوشائج والعلاقات وإتمام أدائها على نحو يتسق مع مجريات الحياة داخل مجتمع يتحدث العربية ...

أعود فأقول إننى عندما طرحت على الدكتور الزيات تساؤلى حول ذلك الموضوع لإيضاح أو تفسير ذلك الأمر الذى أثار لدى شيئا من الدهشة والاستغراب .. وكنت حريصا على أن أستجلى دواعيه أو بعضا من أسبابه ... تحدث إلىّ الدكتور الزيات حول ذلك الموضوع حديثا مقتضبا غير مباشر وغير محدد وعلى نحو لا يكشف صراحة عن الأسباب والدوافع التى قصدت إلى

معرفتها ... ومن ثم فإننى لم أخرج بإجابة محددة كاشفة تتصل بذلك الأمر .. ولم أشأ – يومها – أن أطلب من الدكتور الزيات أية إيضاحات أكثر أو أبعد مما تحدث به إلىّ فى ذلك الشأن .. فقد رأيت أنه (من باب اللياقة) أن أكف عن أى إلحاح من جانبى بالدخول إلى مزيد من التساؤلات بخصوص ذلك الأمر ... فلعل الدكتور الزيات لا يريد – لاعتبارات يقدرها – أن يتطرق إلى الإفصاح عما وراء ذلك الموضوع.

ولما لم يتيسر – كما أوضحنا آنفا – ما يفسر الأسباب والدوافع التى جعلت السيدة/ سوزان تصدر عن ذلك الذى أشرنا إليه وحدث من جانبها فى برنامج بالتليفزيون المصرى ... فقد ألجأنى ذلك (فى محاولة تفسير هذا الأمر) إلى إفتراض أحد احتمالين ... أولهما أنها ربما تحصّل لديها قدر (قل أو أكثر) من الإلمام باللغة العربية وكان بمقدورها أن تتحدث بالعربية فى البرنامج التليفزيونى المشار إليه .. ولكنها لم تشأ أن تفعل ذلك وهناك افتراضية أخرى فى هذا السياق .. فحواها أن السيدة/ سوزان لم تحرص أصلا على تعلم اللغة وما يستتبع ذلك من إمكان قدرتها على التحدث بها عند اللازم ...

وأعتقد أنه فى أى من الحالين .. فان الأمر بالنسبة للسيدة/ سوزان يظل ملتبسا وغير متسق مع طبيعة الأشياء ومع منطق وضعية الحياة التى نشأت بالنسبة لها منذ أن صارت زوجة للدكتور طه حسين الذى كانت اللغة العربية والأدب العربى هما ركيزتيْ حياته الأكاديمية والعامة .. وكان أستاذا بكلية الآداب ثم

عميـدا لهـا فرئيسـا لجامعـة الإسـكندرية .. وبعـد ذلـك وزيـرا للمعارف ومع كل ذلك وفوقه أديبا عربيا بـارزا ومفكـرا ومصـلحا وأخيرا رئيسا لمجمع اللغة العربية على امتداد السنوات الأخيرة من حياتـه ... هـذا فضـلا عـن أن السيدة/ سـوزان كانـت بالفعـل قـد صارت – بحكم الواقع – واحدة مـن سيدات المجتمـع المصـرى ذات الشـأن المرمـوق باعتبارهـا زوجـة لشخصـية عامـة لهـا مكانتهـا ودورها البـارز فـى الحيـاة المصـرية .. كمـا صـارت – بحكـم الواقـع أيضـا – منخرطـة فـى نسـيج الواقـع المصـرى وتحمـل الجنسـية المصـرية ... فكيـف مـع كـل الاعتبـارات السـابقة لواحـدة عاشـت لعقود من السنين على أرض هذا الوطن وشربت من نيلـه .. كيـف بعد كل هـذا وذاك تتحـدث إلى جمـاهير هـذا المجتمـع المصـرى مـن خـلال برنـامج فـى إذاعـة مرئيـة مصـرية .. كيـف لهـا تتحـدث برطانة فرنسية أى بلغة أعجمية غير اللغة العربية التى هـى لغـة أهـل البلـد .. ولا يقلـل مـن غرابـة تلـك المفارقـة أن حـديثها كـان مشفوعا بترجمـة مـن الفرنسية إلى العربيـة .. لأننـا هنـا نتحـدث عن دلالة ذلك الفعل فـى إطـار خصوصـية المعطيـات والاعتبـارات التى أوضـحناها آنفـا ... وإذا كـان لكـل شـخص الحـق فـى أن يختـار الطريقـة التـى يراهـا ملائمـة وأن يفضـل النـهج الـذى يقتنـع بـه ويريحه ... فإن ذلك لا يصادر حـق الآخـرين فـى أن يقبلـون ذلـك الأمـر أو يرفضـونه وفـى أن يبـدون بشـأنه – خاصـة بالنسـبة للشخصيات العامـة – التحفظ أو الانتقاد تجاه مـا لا يسيغونه مـن وجهـة نظـرهم .. كمـا أنـه لـيس لأحـد مـن الشخصـيات العامـة أو

غيرها أية قداسة تحول دون حق الغير فى الاستدراك والمراجعة بل وفى شجب وإدانة ما يرونه غير ملائم ... وفى ضوء ذلك وتأسيسا عليه .. فإننى أعتقد أن ذلك النهج الذى صدرت عنه السيدة/ سوزان ينطوى على دلالة تفصح عن نزوعها الذى يكرس لديها روح الترفع والاستعلاء وعدم قبول للآخر المتمثل هنا فى ثقافة المجتمع الذى وسعها وعاشت بين ظهرانيه أكثر من نصف قرن وأنها تمتعت بالعديد من معطياته وخيراته ثم تستنكف أن تتحدث إلى جماهيره بلغتهم التى هى رمز عزتهم وعنوان هويتهم القومية .. وإننى أرى أن مثل هذا السلوك ينطوى على الجحود والنكران وعلى فجاجة التصرف الذى يفتقر إلى الكياسة وإلى اللياقة الاجتماعية ويعتبر منافيا ومفارقا لاعتبارات الذوق العام .. وقد يقول قائل ما لنا نطرح من جديد واقعة مضى عليها أكثر من ربع قرن .. وقد حدث ما حدث وانتهى الأمر بشأنها .. وردنا على ذلك أننا لا نقصد من وراء إعادة تناول هذا الأمر أن نجتر حدثا لذاته .. بل يهمنا هنا وفى هذا السياق أن نؤكد على أهمية واحدة من القيم النبيلة الأصيلة .. وهى الحرص الواعى على صون عزة الأمة فى مواجهة أى أمر يمكن أن يسيئ إلى كرامة الوطن أو ينال من إنسان هذا المجتمع.

إن صون هذه القيمة والحفاظ عليها أعز وأكرم علينا جميعا من أى مقام وهى أسمى وأرفع من أى اعتبار .. ويجب أن تظل لها المكانة الأعلى والأسبق قبل هذا أو ذاك من الناس كائنا من كان ..

وفى هذا السياق أشير إلى أنه بعد مرور أكثر من خمسة وعشرين عاما على طرح ذلك الموضوع وتناوله مع الدكتور الزيات للوقوف على شئ يساعد على تجلية تلك المفارقة غير المبررة المتصلة بحرص وربما تعمد السيدة/ سوزان على عدم التحدث بالعربية ... فقد أتيح لى أن أطلع لدى صديق لى (خلال شهر إبريل ٢٠٠٦) على مقال بمجلة الهلال (عدد شهر مارس ١٩٩٣) كتبه الدكتور مصطفى عبد الغنى .. وعنوان المقال (الوجه الآخر لسوزان طه حسين)وقد اقتبست بعضا من فقرات المقال كما يلى:

" إن زوجة عميد الأدب العربى لم تكن تتحدث قط بالعربية .. فرغم أنها قضت فى مصر أكثر من نصف قرن فإنها لم تسع إلى تعلم العربية أو حتى التعرف إليها، ويذكر معاصروها أنها كانت ترفض بإصرار أن يجرها أحد إلى نطق كلمة واحدة بالعربية"

وفى فقرة أخرى بالمقال أورد الكاتب ما جاء على لسان مؤنس طه حسين فى تبريره لصعوبة العربية على لسانه:

(أمى كانت فرنسية) ... لم تكن تحب – أى سوزان – أن نتكلم غير الفرنسية فى حضورها.

وفى موضع ثالث بالمقال يقول الدكتور مصطفى عبد الغنى:

لا يكفى أن نقول إنها فرنسية الأصول أو إنها الفرنسية الوحيدة فى المنزل، وإنما هو موقف ثابت يطوى تغايرا مع الوطن

الثانى .. ورفضا للائتلاف معه، ذلك لأن وراء ذلك موقفا آخر مقصودا أو غير مقصود (إذا أحسنا النية)يرفض التقابل مع هذا العالم.

وهكذا .. وبعد الإطلاع على ما جاء بالمقال المشار إليه تفهمت من جانبى الكيفية التى جاءت عليها طريقة الدكتور الزيات عند إجابته على سؤالى الذى طرحته عليه بشأن ذلك الأمر .. حيث كانت إجابته (كما أشرنا من قبل) إجابة غير مباشرة تتسم بالغموض والإبهام .. وإننا نقدر للدكتور الزيات الدواعى التى ألجأته فى رده إلى تلك الكيفية التى تحدث بها عن الموضوع .. وذلك نظرا لما يكتنف ذلك الأمر من جوانب شائكة وملتبسة ذكر بعضها (فى أسف) مؤنس طه حسين نفسه حسب ما ورد بالمقال الذى أشرنا إليه.

ونختتم القول فى هذا الصدد بالإشارة إلى ما يثار أحيانا عن المدى الذى يمكن به تناول جوانب من حياة الشخصيات العامة (إيجابية كانت أو سلبية) ويذكر فى هذا السياق أنه ينبغى فى هذا الشأن مراعاة الموضوعية وتحرى الصدق دون اختلاق الوقائع أو انتحال الأمور التى لم يثبت حدوثها .. وللكاتب الذى يتعرض لمعالجة مثل هذه الجوانب أو شئ منها أن يبدى ما يراه من وجهة نظر تعبر عن استنباط أية دلالات أو معان تتصل بتلك الوقائع والأحوال المرتبطة بحياة هذا أو ذاك من المشاهير والأعلام.

(٣) مع المستشار العمروسى

الأستاذ المستشار أنور محمود العمروسى من مواليد عام ١٩٢٢ بقرية عمروس مركز الشهداء محافظة المنوفية .. بعد أن تخرج فى كلية الحقوق اشتغل بالمحاماة لعدة سنوات .. ثم التحق بالقضاء حيث عين قاضيا ثم رئيس محكمة، وبعد ترقيته إلى درجة مستشار عمل بمحاكم الاستئناف إلى أن وصل إلى منصب نائب رئيس محكمة استئناف حتى بلوغه سن المعاش ... وقد واكب عمله بالمحاماة والقضاء اهتمامه الدءوب المتواصل بالكتابة والتأليف .. سواء بمجال الإبداع الأدبى (حيث نشرت له العديد من القصص القصيرة والمقالات بالجرائد والمجلات) أو بمجال تأليف الكتب القانونية والفقهية التى تتصل بأداة مهنة القضاء .. وقد بلغت هذه المؤلفات والكتب أكثر من أربعين كتابا .. من بينها مبحث كبير عن القضاء فى الإسلام بلغت صفحاته زهاء الألف صفحة من القطع الكبير ... وكان الأستاذ العمروسى يتولى طبع كتبه لدى أى من المطابع ثم يقوم بنفسه بمهمة نشرها وتوزيعها .. ومن النادر أن تخلو مكتبة أى من المحامين أو رجال القضاء فى مصر من اقتناء بعض من كتب الأستاذ العمروسى ...

وإلى جانب ذلك الزخم من العمل المهنى والعطاء الابداعى والفكرى .. فقد قام الأستاذ العمروسى (إبان سنوات عمله بالقضاء) بتدريس بعض المواد لطلبة كليات الحقوق على امتداد سنوات جامعية عديدة.

وبعد هذه المقدمة عن موجز السيرة الذاتية للأستاذ العمروسى أقول إن صداقتى له كانت من الصداقات الجميلة فى

حياتى .. وقد تعرفت إلى الرجل اعتبارا من منتصف السبعينيات .. واتصلت تلك الصداقة الودودة المخلصة لبعض سنوات متعاقبة ... كانت إقامة الأستاذ العمروسى خلالها بمدينة فارسكور محافظة دمياط (وهى نفس المدينة التى اتصلت إقامتى بها خمس وثلاثين عاما قبل وبعد الفترة التى قضاها العمروسى بتلك المدينة) .. لم تكن شخصية الأستاذ العمروسى من الشخصيات ذات البعد الواحد .. ولم تكن طبيعة مهنته كرجل قضاء قد جعلته يتقولب فى شكل نمطى متحفظ متشح بسمت الوقار والرزانة فى كيفية محادثته وتعامله مع الآخرين .. لكنه — مع أصدقائه ومعارفه على الأقل — غاية فى العفوية والتلقائية والبساطة دون تكلف أو تصنع ... إن مثل ذلك الاستعداد الفطرى البديع عندما يتفاعل ويتكامل مع تلك السمات والخصال التى كان يتميز بها الأستاذ العمروسى من معرفة موسوعية ومن خبرة واسعة بالناس والحياة اكتسبها (عن وعى وإرادة) من خلال ما عرض له من مشكلات وقضايا على امتداد سنوات عمله بالقضاء .. أقول عندما يمتزج كل ذلك فى إهاب شخص كالاستاذ العمروسى فإنه يخرج لنا سبيكه من الطراز النفيس تتمثل فى شخصية ثرية فى شمائلها المتميزة ...

لقد كنا فى لقاءاتنا التى يمتد بعضها إلى ساعات — خاصة يوم الجمعة من كل أسبوع — كنا نتحدث أو نتسامر فى مجالات شتى يتصل بعضها بجوانب من الثقافة الرفيعة فى الفكر والأدب ويتصل بعضها الآخر بالسياسة وبأحوال الناس والحياة فى

المجتمع المصرى وفى غيره من بلاد الله الواسعة .. وما يحفل به ذلك من وقائع الحياة اليومية وما قد يتصل به من غرائب ومفارقات تغرى بالتعليق الساخر وبالمزاح اللاذع أحيانا أو الشفيف الفكه أحيانا أخرى ... كما كنا نذهب سويا من حين لآخر بسيارة الأستاذ العمروسى (التاونس – متوسطة الحال) لحضور بعض المناسبات الرسمية أو الاجتماعية كالمشاركة فى احتفال زاوج أو لأداء واجب العزاء أو لإحضار بعض لوازمنا من مدينة دمياط.

ولقد تحقق لى من خلال تلك الصحبة الأخوية الصافية مع الأستاذ العمروسى الكثير من الجوانب الطيبة النافعة معنويا وفكريا.. أغتنمت بها ثمارا يانعة من الفهم والوعى الأكثر عمقا لبعض من حقائق الناس والحياة هى نتاج وخلاصة تجربته الحياتية على امتداد سنوات العمر ومن جنى قطوف حكمة الحياة عبر اتصال رحلتها الممتدة فى الزمان والمكان .. وكثيرا ما كنا نحرص على ذكر آخر نكته أو قفشة سمعها أو قرأها أى منا كما كنا خلال أى مادة للحديث بيننا وكلما كان هناك ما يستدعى التعليق بالتهكم أو السخرية أو حتى بالتفكه الهزلى .. كنا نضحك ونقهقه من أعماقنا فى تلقائية ذات بهجة غامرة ونشوة صافية راضية .. حتى يصل بنا الحال أحيانا إلى أن تدمع عيوننا وتبتل مآقينا من فرط ما تفيض به جوانحنا من مشاعر الحبور العميق والغبطة الهانئة..

الفصل الثالث

(تجربتى مع أمكنة عايشتها)

نعنى بالمكان هنا .. الموضع أو الإطار المكانى المحسوس الذى تقع فى معيته أو بداخله الأحداث والوقائع .. وما أكثر الأمكنة التى وجد بها أو مر عليها أى من الناس .. ولكن لسبب أو لآخر تظل هناك أمكنة بذاتها لها حضورها الخاص والمتميز فى عقل ووجدان الفرد .. تحتل فى الذاكرة مساحات أثيرة يطيب للإنسان أن يستحضر أيا منها فى بؤرة الوعى والشعور بما يجعلها تتجلى فى مرآة الذات .. يسعد بها حينا وقد يشقى بها أحيانا .. وقد يحدث أن يعاود الإنسان التواجد الفعلى ببعض تلك الأمكنة مرة أو مرات لاحقة فى فترات تالية تبعد قليلا أو كثيرا عن عهده الأول بها .. وربما تكون تلك الأمكنة قد تغيرت وتبدلت فى بنيتها وتركيبها وفى مكونات عناصرها .. إلا روح المكان تظل مما يستشعره الإنسان وما يستتبع ذلك من تدافع أصداء الذكرى فيحدث بداخله ما يحدث عندما يعايش من جديد بعض الذى كان قد عايشه فيما مضى من تجربة شعورية تتصل بأحداث قد وقعت سلفا فى رحاب تلك الأمكنة وبين أيديها .. بل ربما أفضى حضوره من جديد إلى تلك الأمكنة إلى إهاجة بعض من كوامن نفسه وطوايا شعوره .. فتنبعث من جديد فرائد من رؤى أثيرة ومن صور طلية كانت قد استكنت فى الأعماق منذ أمد بعيد..

وإننـى واحـد مـن أولئـك الـذين تقـوم بيـنهم وبـين بعـض الأمكنة علاقة جدلية حميمة تتمثـل فـى تنـاغم نفسـى وروحـى يصـل أحيانـا إلى درجـة عاليـة مـن الشـعور العميـق بالسـكينة والطمأنينـة أو إلى حالـة مـن تـوهج المشـاعر ببهجـة غـامرة ومـن شـعور بالمؤانسـة الشـفيفة التـى تضـئ جنبـات الـنفس وأعطافهـا جميعا .. وتلك الحالة تشبه مـا يسـمى بعشـق المكـان أو مـا تسـميه الكاتبة الفرنسية الشهيرة (سيمون دى بوفوار) معاشـرة الأشـياء .. بمعنى التماهى أو التوحد معها والنفاذ إلى قلبها .. وأضيف أو أزيـد من جانبى ... اعتبار مثل تلك الحالة نوعا من الود والصداقة مـع الأشـياء .. ومـن حـب الحيـاة والإقبـال عليهـا .. بـل ومـن السـعى الدءوب لاستقطار رضا بها الشهى ورواءها الطلى .. وكـل هـذا يعـد نوعا من الاحتفاء بالحياة ومن الشكر للخالق المنعم الذى أوجد لنا فى كونه مثل تلك الموجـودات وجعـل فـى أفئـدتنا حيالهـا هاتيـك الوشائج فحرى بنـا أن نـؤدى واجـب الإمتنـان وتحيـة الحمـد علـى تلك العطايا من حميمية بين الذات والموضوع.

ونعود فنشير إلى أن تلك الأمكنـة التى عايشتها والتى نتنـاول بالحديث بعضا منها فى هذا الفصل من الكتاب والـتي نشـير إلى مـا اكتنفها وارتبط بها من وقائع ومواقف وشخصيات .. تلك الأمكنـة قد تتمثل فى إحدى المنشآت العامـة أو الأهليـة .. وقـد تكـون أحـد الأحياء أو الشوارع أو الميادين فيما تضمه مدينـة كـبرى .. كمـا قـد تكـون إحـدى المـدن ذات الطبيعـة الخاصـة بالأقـاليم أو موقعـا ذا طابع سياحى أثرى .. إلى غير ذلك من أمكنة أخرى..

(١) من ليالى القاهرة .. ونهاراتها الطلية

القاهرة .. حاضرة البلاد ..عاصمة بر مصر منذ أكثر من ألف عام .. كان لها عندى (ولازال) سحرها الباهر وفتنتها الخلابة الآسرة بالرغم مما لحق بها فى العقود الأخيرة من تشوهات ودمامات أرهقتها من جراء عوامل التكدس والزحام والتجاوزات العشوائية فى نموها السكانى والعمرانى وما استتبع ذلك من قدر هائل للضوضاء والتلوث وصعوبة الحركة لدى كثير من أحيائها .. وأقول بالرغم من كل ذلك فلا زال لها عندى وربما عند الكثيرين .. لازال لها فى النفس رواؤها .. وما انفك عنها فى الروح والقلب سلطان جاذبية لا تقاوم .. وقد يكون هذا الولع من الأمور التى تتفق وطبيعة الأشياء ومنطقها المتكئ على مرجعية طبقات متراكمة فى العقل والوجدان لعوامل تاريخية – قومية روحية – سيكلوجية تتمثل أو تنسكب جميعها فى بوتقة نزعة الإنتماء الفطرى بالتوجه صوب المركز.

ونخلص فى هذه المقدمة إلى القول .. إننا سوف نتناول فى هذه الفقرة من الفصل الثالث بالكتاب .. نتناول الحديث عن تجربة معايشتى لوقائع ومواقف وعلاقات وما قد نستخلصه أحيانا من دلالات وما نقدمه من خواطر حول تلك الوقائع والمواقف المتصلة بأمكنة من القاهرة الكبرى لدى بعض أحيائها وضواحيها وامتداد أذرعها هنا وهناك بما فى ذلك امتدادها غربا إلى ما وراء النهر بالشاطئ الغربى للنيل حتى هضبة الأهرام وأبى الهول .. ولا تفوتنى الإشارة إلى أن تلك التجربة التى نعرض لبعض

جوانبها هنا فى هذا السياق .. قد بدأت بحضورى إلى القاهرة لأول مرة فى شهر ديسمبر علم ١٩٤٩ وامتدت تلك المعايشة التى حدثت وقائعها من حين لآخر منذ ذلك التاريخ البعيد قبيل منتصف القرن الماضى حتى وقت كتابة هذه السطور ... وحسبنا أن نكتفى ببعض تلك التجارب المرتبطة بأمكنة نختارها فى هذا الصدد .. مع مراعاة أننى لا أجد ضرورة تحتم وجوب تقيدى بتسلسل زمنى فى عرض أية وقائع أو أحداث حيث أن مادة الكتاب بطبيعتها لا تتطلب شيئاً من ذلك ... فهى دفقات من (فيض الخاطر) أتحرى قدر استطاعتى فى طرحها وتقديمها التجرد والموضوعية والصدق مع النفس ... والآن ننتقل إلى تناول عناصر التجربة الذاتية المتصلة بعالم القاهرة ...

(أ) مع القاهرة الفاطمية المملوكية:

فى خمسينات القرن الماضى .. إبان دراستى الجامعية .. وجدت لدى هاتفا غامضا أثيرا يحدونى للاقتراب الحميم إلى ذلك العالم المتصل بأحياء القاهرة الكلاسيكية العريقة ... فحرصت على أن تجول خلال شوارعها وحاراتها وأزقتها وما تضمه جنباتها وثناياها من بوابات وأسوار وقلاع ومن مساجد وأسبلة ووكالات ومن خانات وحوانيت ومقاهى .. وما لحقها فى هذا السياق من روائع منشآت عهد محمد على وبعض تابعيه من المشاهير .. وكل ذلك يحتشد فى تناغم عبقرى يجعل من يتقلب بين تلك الآثار العملاقة المهيبة المترعة بالجلال وبالفخامة والروعة .. تجعله كأنه من جديد يعيش سحر الشرق ويشم رائحة التاريخ وعبق

الماضى ... فأشبعت من نفسى ذلك التوق إلى هذا العالم الأثير إلى العقل والوجدان جميعا من خلال جولات عديدة متعاقبة حينا ومتفرقة أحيانا فى صحبة بعض الرفاق من الأصدقاء والزملاء وبمفردى فى مرات أخرى .. وكان ذلك السعى الشيق إلى معايشة فرائد هذا العالم الزاخر من الآثار ومن المنشآت العريقة الرائعة ... كان نوعا من الارتحال فى الزمان والمكان بين هاتيك المعالم الباهرة ... وكم من المرات أمعنت التفكير وأطلت النظر والتأمل وأنا أقف أمام هذه الروائع أستنطق تلك الصروح الهائلة لتبوح بما تنطوى عليه من دلالات ومعان تشى بها إلى الرائى فى صمت بليغ كأنها تفضى بما هو كامن لديها من أسرار وبما وراءها من تصاريف أحقاب تاريخية احتشدت بوقائع وأحداث .. فضلا عما تجسده من الحال التى كانت عليها الروح العام إبان ذلك العصر أو ذاك سواء من وفرة وأمن ورخاء أو من قهر واستبداد أو من سمو وشموخ تنطق بها جماليات البراعة والخذق والاتقان العبقرى فى التشييد والبناء وفى الزخارف والنقوش والحليات وفى تلك التوليفات الباهرة النادرة من خلال المزج بين المعادن والأخشاب والعاج والأبنوس والأصداف بما يصوغ تصنيفات ونماذج غاية فى البهاء والروعة .. وكل ذلك تأكيد صادق على عبقرية المهندس صاحب التصميم البديع الدقيق والبنّاء المنفذ والصانع أو الحرفى المبدع فى أدائه .. وعلى إصرار وعزيمة العامل العادى البسيط الذى يتفانى بالإنخراط فى منظومة عمل جماعى لإنجاز غاية كبرى وتحقيق هدف مشترك عظيم .. وكم أبدعت القرائح والسواعد

المصرية أيضا من روائع على امتداد الأحقاب والعصور قبل وبعد تلك المرحلة التى نتحدث عنها فى هذا السياق ...

ولو أننى اخترت بعضا مما أتيح لى الوقوف عنده وبين أرجائه من تلك الآثار والروائع التى حفلت بها أحياء القاهرة الفاطمية المملوكية .. أو الإسلامية عموما .. فحسبى أن أشير إلى ما يلى:

هضبة قلعة صلاح الدين .. وما تضمه فى رحابها إلى جوار مبنى القلعة ذاته من: قصر الجوهرة ومسجد محمد على والمتحف الحربى .. ثم ما يقع عند أعتاب هضبة القلعة إلى الجهة الغربية حيث يوجد مسجد السلطان حسن ومسجد الرفاعى ..

فإذا عدنا إلى شئ من التفصيل عما ذكرنا آنفا .. نقول إن:

مبنى قلعة صلاح الدين .. يجسد صرحا مهيبا يعبر عن الرسوخ والشموخ والقوة بما يملأ نفس الواقف أمامه شعورا بأنه أمام طود عملاق أشم يطاول الزمن ويتحدى عوامل الفناء ..

أما عن قصر الجوهرة (مقر الحكم إبان ولاية محمد على ومن تبعه فى الحكم حتى عهد إسماعيل الذى شيد العديد من القصور الخديوية التى صارت ملكية فيما بعد وأصبحت بعد قصر الجوهرة مقرا لبلاط الحكم) .. نقول إن قصر الجوهرة هذا مبنى منيف فائق الروعة متعدد الأجنحة التى تتخللها باحات بها نافورات وتماثيل رخامية رشيقة جميلة ...

وعلى مقربة من قصر الجوهرة يقوم ذلك البناء الشامخ الرائع البديع (مسجد محمد على) ذو القباب الفخمة والمآذن الإنسيابية السامقة .. وقد اختار محمد على أن يكون المسجد على

الطراز العثمانى شبيها بالمسجد الكبير فى اسطنبول ... وقد شاهدت هذا المسجد أكثر من مرة من خارجه ومن داخله .. إنه تحفة نفيسة ولؤلؤة مبهرة ... كما أننى دخلت المتحف الحربى بالقلعة وتجولت فى أرجائه وبين محتوياته .. ونزلت – كذلك – إلى بئر يوسف أحد معالم هضبة قلعة صلاح الدين ..

وإلى جوار هضبة القلعة وعند تخومها جهة الغرب يوجد مسجد السلطان حسن (أنشأ فى القرن الرابع عشر الميلادى) – ومسجد الرفاعى (أنشأ فى القرن التاسع عشر الميلادى) .. وهما متجاوران يقع الأول مواجها للثانى إلى جنوبه الغربى (يضم كل منهما كنوزا أثرية وسياحية نادرة) .... مسجدان من أروع وأفخم الآثار الاسلامية بالقاهرة .. خاصة مسجد الرفاعى الذى أنشأته الوالدة باشا (والدة الخديوى إسماعيل) ... يتألق من داخله بما هو عليه من البهاء والروعة ومن رصانة نفيسة مبهرة .. وملحق به مدفن خاص يضم رفاة الملك فؤاد وأبنه الملك فاروق .. ورفاة ملك إيران السابق الشاه محمد رضا بهلوى كما يضم المدفن إلى جوار هؤلاء رفاة آخرين من أفراد الأسرة العلوية .. وملحق بهذه المدافن الملكية ساحة فسيحة عبارة عن فضاء يحوطه سور منخفض يرتفع قليلاً عن الأرض

<u>منطقة الأزهر والحسين</u> .. وما يتخللها ويتفرع عنها .. فإلى جوار مسجد الأزهر ومسجد الحسين .. تزخر هذه المنطقة العريقة بالعديد من المعالم التى تمثل زخما روحياً وتاريخيا يطالع المتنقل بين أرجاء هذا الحى العتيد .... شارع الأزهر وشارع الغورية وشارع المعز وهى جميعا مطرزة بوفرة غزيرة من المساجد

الضخمة العملاقة المتقاربة المواجهة بعضها البعض فى كثير منها خاصة مسجد الغورى ووكالة الغورى ومسجد قلاوون ومستشفى قلاوون وإلى جهة الشمال الغربى لهذه المنطقة توجد قهوة الفيشاوى الشهيرة العريقة وشارع خان الخليلى .. ذلك الشارع المدهش الذى يمتد ما بين ميدان الحسين إلى ميدان العتبة الخضراء شارع يمتلأ عن يمينه وعن شماله بالحوانيت والمحلات الغاصة بالمشغولات الذهنية والتحف والمصنوعات اليدوية من المعادن والأحجار الكريمة ومن الجلود والعاج وكذلك الأقمشة والملبوسات المطرزة فضلا عن مختلف أنواع الشموع والبخور والروائح العطرية وما يرتبط بذلك من الشمعدانات والمباخر .. إلى غير هذا وذاك من سلع عديدة متنوعة تجمع بين دقة الصنع وجمالياته وبين نفاسة القيمة ذات الطابع السياحى والتاريخى .. كان هذا الشارع ولا يزال محتشداً على امتداد الليل والنهار بأمواج متصلة متلاحقة متداخلة من الناس (مصريين وسائحين أجانب) متفرجين ومشترين أو مجرد عابرين متجولين حسبهم ما يطيب لهم من مجرد التواجد بعض الوقت بين يدى هذا العالم الذى يضج بالحركة والحيوية وبمظاهر الإقبال على الحياة فى بهجة ونشوة وسط ذلك التدافع المتجدد دوما من بشر جاءوا من كل صوب وحدب يمثلون كرنفالاً إنسانياً بديعا تتنوع فيه سحنهم وألوانهم وأرديتهم وربما ألسنتهم .. كأن الناس هناك فى عرس أو مهرجان يتجلى فيه سحر الشرق وروحه الأصيل .. يغشاهم وتصل إلى أسماعهم تلك الأصوات المتهدجة المختلطة التى هى بين الهمس والجلبة .. كما تتخللهم وتتصاعد فوق رؤوسهم

زخات من أبخرة زكية الرائحة ومن أريج يتضوع شذاه يحمل رائحة المسك والكافور والعنبر ... حتى إذا آنس بعضهم في نفسه حاجة إلى شئ من الإستجمام وإلى بعض من الزاد والشراب اتجه من قريب صوب قهوة الفيشاوى أو إلى أحد (المصامت) التى تقدم وجبات من مأكولات شعبية شهية مثل (لحمة الراس) أو(الكوارع) أو(السجق) ومع هذا أو ذاك شربة (المرقة) بعصير الليمون .. وقد يطيب لأحدهم الدخول إلى أى من محلات الكباب السياحية الفاخرة مثل محل الدهان أو العاجاتى ...

فإذا عدنا إلى مسجدى الأزهر والحسين .. وكل منهما على مقربة من الآخر .. وقد أديت بعض الصلوات بكل من المسجدين .. وتجولت فيما حولهما حيث يوجد شرقا مشيخة الأزهر وكلية اللغة العربية وكلية الشريعة عند أعتاب مرتفعات الدراسة (وهكذا كان الحال بتلك المنطقة إبان الخمسينات) فإذا اتجهنا جنوبا نجد وكالة الغورى ومستشفى قلاوون وما يجاورهما بشوارع الأزهر والمعز والغورية من مساجد متقاربة متقابلة على مسافات قريبة للغاية بما يجعل تلك المساجد على درجة كبيرة من التكثيف والتمركز .. ولا ندرى على وجه التحديد مدى توفر أسباب موضوعية تستلزم إقامة كل هذا العدد الكبير من المساجد على نحو لا يتطلبه احتياج حقيقى واقعى يلبى إقامة الصلاة والشعائر .. الأمر الذى يجعل الرائى لهذه المساجد المتراصة إلى جوار بعضها .. يدهش لذلك ويرى أنه كان من الأصواب والأنفع للعبادة وللتفقه فى الدين أن تتباعد تلك المساجد لتمتد إلى أماكن أخرى تحتاجها .. ويبدو أن الحكام والولاة من المماليك الذين

أقاموا تلك المساجد على هذا النحو من التقارب المكثف كان الواحد منهم يهتم فى الأساس بأولوية أن يقيم مسجدا ينسب تشييده إليه بصرف النظر عما إذا كان ذلك المسجد ملاصقا أو مقابلا لمسجد أو مساجد أخرى حواليه ..

ونختتم الحديث عن الأبنية الأثرية بالقاهرة الفاطمية المملوكية التى أتيح لى مشاهدتها وتأمل ما وراءها من دلالات تاريخية ومن ثقافات اجتماعية وفكرية ومن مستويات للمهارة المعمارية والفنية ... فنشير فى هذا السياق إلى بقايا أسوار القاهرة القديمة وبواباتها الضخمة العملاقة .. كبوابة الفتوح وبوابة النصر وباب زويلة الذى شهد منذ مئات السنين ما كان يفضى إليه الصراع على السلطة من مذابح وأهوال ... وما أدى إليه بعض ذلك الصراع والتناحر والاقتتال إلى فتك أحدهم بالآخر وتعليقه مقتولا على باب زويلة كما تحكى عن ذلك وقائع تاريخ الحكام المماليك فى مصر ... ربما اتخذت أحداث دراما الصراع على السلطة وأساليب التخلص من الخصوم وآليات اغتصاب الحكم فى مواجهة الفرقاء المتناحرين ... ربما اتخذ كل ذلك (قبل تلك المرحلة التاريخية المملوكية أو بعدها) صنوفا وأشكالا مختلفة مغايرة حسب طبيعة كل عصر وإن اتفقت جميعها فى دوافعها البشرية من أنانية وأطماع وأحقاد ومن عدوانية وتسلط واستبداد سواء فى مجال السياسة والحكم أو فى مجال الحياة العامة بين الناس على اختلاف مستوياتهم وأحوالهم ..

ب- مع أمكنة ومواقع بالقاهرة الحديثة والمعاصرة:

فى هذا السياق أعرض لشئ من تجربتى مع بعض مما عايشته وتقلبت بين جنباته من أحياء وشوارع وميادين وساحات ومن حدائق عامة ومتاحف ومن أبنية ومنشآت للعلم والبحث والمعرفة وللترويح والاستجمام وقضاء أوقات الفراغ .. كل هذا وغيره من بين ما تضمه وتحتويه القاهرة الكبرى فى عهدها الحديث نسبيا فيما أنشأ بها وأضيف إليها ولا يزال منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر وحتى الآن ..

★ جولات للترفيه والاستجمام فى (وسط البلد):

فى سنوات دراستى بالجامعة كان طبيعيا – بعد ذلك الزخم من المتعة الروحية والعقلية التى كنا نجتنيها من حصاد تلك الحوارات الفكرية والثقافية التى أشرنا إلى بعضها آنفا بالفصل السابق من هذا الكتاب ... أقول كان من الطبيعى – لتحقيق نوع من التوازن فى الاهتمامات – أن أتوجه أحيانا فى صحبة نفر من الأصدقاء والزملاء (ليلا أو نهارا) إلى قلب القاهرة بالشوارع والميادين الفسيحة الراقية القائمة فيما يُعرف بوسط البلد .. نهبط مما يكون قد أرهق عقولنا وأفئدتنا من جولات تتصل بجوانب أثيرة إلى نفوسنا فى عالم الثقافة والفكر والمعرفة سواء فيما كان يتم فى فناء الكلية وفى أروقة حديقتها أو فى المنتديات الأدبية أو لدى المكتبات العامة .. أقول كنا نهبط من ذلك العالم الذهنى الخالص إلى الإلتحام الحميم بدنيا الناس وأرض الواقع .. نعب وننهل ألوانا من البهجة ومن المتعة الصافية العذبة

... نتجول فى شوارع: فؤاد (٢٦ يوليو) وسليمان باشا (طلعت حرب) وشريف ومحمد فريد .. وفى ميدان الأوبرا (القديمة) حيث يوجد به ذلك النصب التذكارى الفخم الذى يقف أعلاه تمثال إبراهيم باشا ممتطيا صهوة جواده وذراعه ممتدة إلى الأفق البعيد باعتباره أحد الفاتحين العظام ونجما بارزا فى تاريخ العسكرية المصرية ... وعلى مقربة من التمثال .. ذلك الحوض الرخامى الناصع تتوسطه نافورة مياه تنبثق إلى أعلى فى أشكال إنسيابية خلابة ينبعث حواليها رذاذ كأنه الطل يصافح وجوه السائرين فى تلامس حلو رقيق .. وإلى الشمال الشرقى من الميدان توجد ربوة حديقة الأزبكية تقوم فى أرجائها تلك الأشجار الضخمة النادرة تشكل كل منها دوحة مورقه يانعة الإخضرار كما تحمل تلك الربوة الغناء على أكتافها مسرح الأزبكية العريق يذكرك بالمسرح الإغريقى فوق ربوة الأكروبول فى رحاب أثينا فاتنة المدائن وعروسها الحسناء فى اليونان القديمة ... وعند أقدام ربوة الأزبكية جهتى الغرب والجنوب كان يوجد سور الأزبكية الشهير العريق الذى تباع فوقه وأمامه الكتب القديمة فى مختلف مجالات الفكر والمعرفة بأسعار رمزية زهيدة ... ومن قلب ذلك الميدان الفسيح (ميدان الأوبرا أو ميدان إبراهيم باشا) إما ندلف غربا إلى شارع عدلى أو شارع عبد الخالق ثروت أو نتجه شمالا فغربا إلى شارع الألفى الذى ينتهى بنا إلى سوق التوفيقية الذى يوجد به ذلك المستوى الراقى لمحلات الفاكهة والخضار والمخبوزات الفاخرة والأسماك الطازجة ومختلف أنواع البقالة المحلية والمستوردة وإلى الشمال الشرقى من ذلك السوق الزاخر

بحركة البيع والشراء يوجد (كازينو) من طابقين يطلق عليه (قهوة أم كلثوم) يستمتع رواده (وهم يحتسون مشروباتهم) بالاستماع إلى اسطوانات أغانى أم كلثوم ... وقد ندلف من شارع الألفى هذا إلى شارع عماد الدين .. ذلك الشارع العريق الشهير الذى يمتلأ عن يمين وشمال بالعديد من صالات المسرح ودور السينما....

أعود فأقول إننا وسط تلك الشوارع والميادين الفخمة الراقية التى يغلب عليها فى تخطيطها وفى طراز أبنيتها الطابع الأوروبى الكلاسيكى ذو البهاء والرونق ... وسط تلك الأجواء الشفيفة البازخة الروعة كنا نتقلب بين يدى ذلك النعيم من تجليات الحياة الناعمة .. كأننا فى عرس أو احتفالية شائقة البهجة .. أضواء ساطعة (ليلا) وشوارع واسعة نظيفة لامعة .. ومحلات فاخرة كبرى ذات (فاترينات) عملاقة بها شتى صنوف المعروضات الفخمة التى هى على درجة عالية من فنون الأناقة حسب آخر مستجدات (الموضة) الأوربية ... وجموع الناس تنساب فى تدافع هين رفيق تحملهم خطاهم الوئيدة .. يتقدمون إلى الأمام حينا .. ويتوقفون لمشاهدة المعروضات أحيانا .. وقد بدت على محياهم إمارات الاستبشار وعلامات الحبور والرضا .. كأنما ترفعهم من فوق الأرض وسائد أثيرية من الغبطة الحالمة .. أو كأنهم فوق عباب موجات عطر تنساب من تحتهم ... تصدر عن بعضهم (همهمات) وضحكات رخية متهدجة تغشى حديث بعضهم إلى بعض ... منهم من يتكلم العربية ومنهم من يتكلم لغات أعجمية غير العربية ... ونظل هكذا لأوقات متصلة قد تمتد

بنا طويلا .. نظل (نحن صحبة الرفاق الزملاء الأصدقاء)نتصعلك تلك الصعلكة البريئة الحلوة الطلية .. حتى إذا أدركتنا الحاجة إلى شئ من الراحة وإلى شئ من الطعام والشراب دخلنا إلى (كافتريا) إكسلسيور بشارع سليمان عند ناصية له مع شارع عدلى .. وتناولنا أكواب الشاى ومعها بعضا من (البسكويت) أو من شرائح الفطائر الفاخرة .. وفى ليال أخرى كنا ندخل إلى (كافتريا) فندق أمية بشارع فؤاد بالقرب من دار القضاء العالى .. أو ندخل إلى مطعم سورى بممر الكونتيننتال (Continental) .. وكان ذلك المطعم الذى يتألق بالنظافة الفائقة وبالأجواء الوضيئة وبالموسيقى الخفيضة الحالمة .. كان يقدم وجبات شامية شهية .. خاصة أطباق الحمص بالزيت والبوهارات والليمون وإلى جوارها أطباق سلطة الطحينة وسلطة الخضار وأرغفة الخبز الطازجة الفاخرة.

هذا .. وعندما يكون معنا الصديق (هانى الشوا) — الذى كان يدرس بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .. (وهو ابن أخ زميلى وصديقى محمود الشوا وكلاهما سليلا أسرة من الوجهاء الأثرياء) أقول عندما يكون فى صحبتنا الصديق هانى ومعه سيارته الخاصة .. كنا نذهب سويا إلى منطقة الأهرامات بالجيزة أو إلى (كازينو) رومانس بشمال شبرا .. وقد نذهب لزيارة المتحف المصرى بميدان التحرير .. أو ندخل حديقة الحيوان بالجيزة أو حديقة الأسماك بالزمالك .. وكنا لدى أى من تلك الأماكن نتجاذب فى ود صاف أطراف الحديث ونمزح ونضحك ما وسعنا المزاح والضحك ..

★ فى شرفة سميراميس على نيل القاهرة:

فى ضحى أحد أيام الخريف العذبة الصافية من عام ١٩٦١ جال فى خاطرى أن أتناول كوبا من الشاى فى (كافيتريا) فندق سميراميس .. وكان ذلك الفندق لا زال فى مبناه الكلاسيكى الجميل قبل إزالته وإعادة بنائه حديثا على حالته الراهنة بنفس موقعه الرائع المتميز بالبر الشرقى للنيل بجانب مدخل كبرى قصر النيل .. كان ذلك الفندق يرفل فى بهائه العبقرى وبساطته الآسرة الفريدة .. يختال فى وشاحه الشفيف الرصين بين فندق هيلتون إلى شماله وفندق شبرد عن جنوبه مباشرة .. وكل منهما يفتقر فى معماره على الطراز الحديث إلى تلك اللمسة الساحرة الفاتنة التى كان عليها سميراميس مما جعله معقلا للأرستقراطية ولكبار النزلاء وعليتهم ... ومن هنا .. كان حرصى على النفاذ إلى هذا العالم واختراقه بحثا عن مشاعر جديدة تتحقق من خلالها معايشتى — ولو بعض الوقت — لتلك الأجواء غير المعهودة فى حياة الناس العاديين .. وكان الإقدام على مثل ذلك الفعل منذ ما يقترب من نصف قرن وقبل الذى حدث فيما بعد فى حياة المجتمع المصرى من حراك اجتماعى ومن سقوط كثير من الحواجز الإجتماعية والطبقية التى كانت منيعة فاصلة ... أقول إن الإقدام على فعل الاختراق الذى أشرنا إلى ملابساته وإلى طبيعة الأوضاع السائدة وقتها .. كان ذلك فى حينه يعد مغامرة مدهشة محفوفة بشئ من التوجس والرهبة .. تغشاها بعض أسباب الحذر والترقب .. بما يجعلها تتطلب بعضا من الجسارة ومن الثقة والاعتداد بالنفس القائمين على رؤية عقلية

تتعامل مع الأمور والأشياء فى حقيقتها الأصلية الخالصة المتجردة مما اصطنعه الناس على نحو يفارق الفطرة ... ولعل هذا الاستطراد فى استقصاء ديناميات (فاعليات) ذلك الموقف الذى حاولنا تفسير بعض جوانبه .. لعل ذلك قد أوصلنا إلى إنبلاج واحدة من الأقانيم التى تكشف لنا عن النبع الخالص الذى تنطلق منه أو تقوم عليه حجية أو مشروعية كل جهود الكفاح الشريف .. تلك الجهود المقترنة بحركات الإصلاح والتغيير وبعمل المناضلين والمصلحين من أجل الظفر بما هو حق وعدل فى جوهره وفى ما هى ذاته .. بما يجسد إعادة التوازن الطبيعى للأشياء وإعادة الوئام والانسجام بين عناصر الأمور والموجودات دون خلل أو جور .. ولا يعنى ذلك تساويا كميا أو توازنا ميكانيكيا حسيا وفق مفاهيم قوانين المادة والطاقة .. ولكنه إنسجام يتحقق وفق تلك النواميس التى فطر الله الناس عليها فى إطار التنوع والاختلاف والتكامل بين هذا وذاك من الناس وبما لدى أى منهم من الاستعدادات والملكات والإمكانيات على النحو الذى يتحقق معه مبدأ (كل ميسر لما خلق له) دون حيف أو جور على الحق الطبيعى للغير ودون استلاب آدميته أو افتئات على إنسانيته وكرامته ..

أعود فأقول إننى عندما دخلت إلى فندق سميراميس فى ذلك اليوم .. جلست إلى منضدة بالشرفة المطلة على النيل .. وطلبت إلى المستخدم أو (المتردوتيل) أن يأتينى بفنجان من الشاى .. وأثناء تناولى الشاى ومعه بعض الملحقات الشهية الفاخرة .. ألفيت نفسى أجلس إلى جوار أسرة سودانية .. يتحدث بعضهم إلى بعض فى ود وبشر ورضا .. وقد اتضح لى ساعتها أن رب تلك

الأسرة هو بعينه محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان الذى ترك منصبه – وقتها – منذ أيام لأسباب كنت قد علمت بها من أجهزة الإعلام .. وهكذا وفى لحظة عابرة ولكنها طلية هانئة .. لحظة من لحظات ذلك الزمن الجميل .. وجد الفتى الريفى (أو الشاب القروى) الذى أكمل دراسته الجامعية منذ عام أو يزيد وقد التحق بوظيفة حكومية يتقاضى عنها مرتبا متواضعا .. ولكنه قانع به وسعيد .. فتى تملأه أحلام رومانسية بغير حدود .. تجيش بين جوانحه آمال وردية غامضة تجعله مقبلا على الحياة فرحا بها فى نشوة وحبور ... وجد الفتى الريفى نفسه يغشى تلك الأماكن الارستقراطية بازخة الفخامة متألقة البهاء والروعة .. يصادف لقاء يجمعه فى معيه أولئك الكبار من علية الخلائق ...

ولم يكن مقصودا لذاته أبدا مجرد الولوج إلى تلك الأمكنة أو مثيلاتها من الأماكن ذات الطبيعة الخاصة غير الاعتيادية .. لكن الباعث من وراء ذلك كان تحقيق أكثر من غاية هى أبعد وأعمق من أى معنى شكلى أو سطحى يمكن التسرع إلى استنتاجه .. فهناك ما سبق الإشارة إليه فى السطور الأولى لهذه الفقرة .. وهو البحث عن مشاعر جديدة لا توفرها مفردات ومواقف الحياة الإعتيادية النمطية وإنما تساعد عليها أو تفجرها أجواء تلك العوالم التى تنطوى على درجة عالية من الإبهار والتألق ومن أسباب الحياة المنعمة المجلوة روعة وبهاء ... وهناك أيضا الولع بتحصيل معرفة جديدة تتصل بطرائق سلوكيات عملية يختص بها أناس ذوى ثقافة سلوكية لها طابعها المغاير للثقافة الشائعة بين غالبية أبناء المجتمع ... وقد يكون لذلك الولع (الذى نتحدث

عنه هنا) ... قد يكون له ارتباط بحاسة دارس الأنثروبولوجيا فى قسم الاجتماع بالجامعة من ميل إلى استقصاء ما هية نماذج من الأنماط الثقافية (Patterns of culture) وقد يجد القارئ تحققا للأخذ بمنهجية هذه الحاسة الانثروبولوجية لدى كاتب هذه السطور فى أكثر من موضع بهذا الكتاب .. فضلا عن غلبة المنحى السسيولوجى والسيكلوجى فى معالجة كثير من الموضوعات التى يضمها الكتاب .. وذلك بحكم التأثر بنوعية التخصص الأكاديمى طوال سنوات الدراسة الجامعية ...

فإذا عدنا إلى الحديث عن إمكانية الخروج بمعرفة جديدة يتاح تحصيلها بشأن ما يجرى من طرائق وأنماط للسلوك داخل ذلك العالم ذى الطابع الارستقراطى المتميز لرواد ذلك الصرح السياحى الفاخر (فندق سميراميس) خاصة فى بهائه القديم وفى روائه الذى كان عليه ... نقول إنه يمكن بالفعل عند اختراق ذلك العالم ومن خلال مشاهدة قصدية لما يقع ويجرى داخل تلك المنشآت السياحية الكبرى من كيفية الأفعال والتصرفات التى تصدر عن أولئك النزلاء .. يمكن الإلمام بنوعية الطريقة التى يتحدث بها بعضهم إلى بعض ... وكيف تكون طريقة مزاحهم وتفكههم وربما أيضا (تهريجهم) وعبثهم .. والكيفية التى يجلسون بها إلى الموائد وأسلوب استخدامهم أدوات (السيرفيس) فى تناول مأكولاتهم وأشربتهم ... الخ وهكذا فإن معا يشتى لمفردات ذلك المشهد من داخل تلك المنشأة السياحية الراقية الفاخرة .. جعلتنى ألتحم عن قرب حميم بتلك المرائى والأحوال ذات الطابع الخاص كأفق جديد (مختلف ومغاير بالنسبة لى) يمثل أحد فرائد

الآفاق التى يتسع لها ملك الله فى دنياه الواسعة ... تلك الآفاق العديدة على اختلاف أشكالها ومستوياتها كانت ولا زالت من الأمور التى يطيب لى أن استمتع بما تحمله إلىّ من شعور بالدهشة ومن إحساس غامر بمتعة الإستكشاف ...

★ داخل قاعة الإحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة:

كان يوم ١٩٧٧/٧/٢١ قد تحدد موعدا لحفل افتتاح المؤتمر القومى العام للحكم المحلى .. وأن تتم مراسيم افتتاح المؤتمر بحضور رئيس الجمهورية وكبار رجال الدولة وعدد من الشخصيات العامة مساء ذلك اليوم فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة (تلك القاعة التاريخية التى تعلوها القبة الشامخة للحرم الجامعى .. هى قاعة عملاقة تشى بالجلال والبهاء .. تتلألأ فى رصانة عبقرية بجماليات المعمار الشرقى المعاصر .. وإنها فى تصميمها وفى مكوناتها وتجهيزاتها تعد عملا هندسيا بديعا بالغ الاتقان والفخامة والروعة) ... هذا وقد كنت أحد أعضاء ذلك المؤتمر بصفتى أحد رؤساء الوحدات المحلية الذين يشكلون على مستوى الجمهورية فصيلا من المدعوين رسميا لحضور حفل الافتتاح والمشاركة (لمدة ثلاثة أيام) فى فاعليات لجان المؤتمر ..

وبينما نحن الحاضرين ليلتها فى حفل الافتتاح وقد امتلأت بنا مقاعد الصالة الكبرى للقاعة أمام منصة الاحتفال وكذا مقاعد طوابق المدرجات التى تحيط بالقاعة تحت الأضواء الكاشفة المتلألأة التى تلف ذلك الحشد الهائل انتظارا لقدوم الرئيس أنور السادات ... أقول بينما الحال هكذا .. ولم تزل أعداد

خفيرة من المدعوين تتدفق إلى القاعة من مختلف أبوابها العديدة ... وإذ بى وأنا أجلس فى أحد مقاعد الطوابق العليا لمدرجات القاعة إذ بى أشاهد من بعيد الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى يدخل إلى القاعة وقد اجتاز لتوه أحد الأبواب وسار قليلا بأحد الطرقات التى تفضى إلى مقاعد الطابق الأرضى ... غير أنه ما لبث أن توقف فى حيرة من أمره لا يدرى على وجه التحديد أين يتجه ليجلس فى مقعد بالقاعة .. وكان مما أثار دهشتى واستغرابى فى تلك الآونة .. أنه كيف يحدث للأستاذ الشرقاوى مثل ذلك الموقف الذى اعتبرته باهظا ومؤسفا وغير لائق فى حق ذلك الرجل الجليل صاحب المكانة الأدبية السامقة والمنزلة الفكرية الرفيعة المستحق عن جدارة كل حفاوة وتبجيل ... فهو ذلك الأديب الفذ والشاعر المسرحى .. صاحب (الفتى مهران) و (الحسين شهيدا) كما أنه يعد أحد رواد حركة الشعر العربى الحديث أو ما سمى بالشعر الحر .. وهو صاحب رواية (الأرض) وكتاب (محمد رسول الحرية) .. عبد الرحمن الشرقاوى ذلك الكاتب الاشتراكى الرصين والصحفى البارع الذى عمل رئيسا لمجلس إدارة روز اليوسف .. كما عمل — لعدد من السنوات — سكرتيرا عاما لمنظمة كتاب آسيا وأفريقيا .. ذلك الرجل الذى يمثل تلك القيمة الزاخرة الكبيرة .. ها هو قد دلف إلى داخل القاعة فى ذلك اليوم المشهود .. وقد مر — بالفعل — قبيل ولوجه الباب الذى دخل منه إلى القاعة .. مر بالعديد من مسئولى العلاقات العامة ومسئولى الأمن الذين يستقبلون المدعوين ويتأكدون من شخصية الداخل إلى القاعة عن

طريق بطاقة الدعوة الرسمية المعتمدة والتى بها إسم وصورة المدعو للمشاركة فى ذلك الاحتفال الذى يفتتحه ويحضره رئيس الجمهورية .. هذا فضلا عن أنه كان هناك كتيبا مطبوعا يضم جميع أسماء المدعوين وصفة كل منهم ..

أعود فأقول إن الأستاذ الشرقاوى — عقب دخوله إلى القاعة — تصادف لى أن شاهدته عن بعد من مقعدى .. وقد كان على الحالة التى أشرنا إليها من حيرة وعدم معرفة أين يتجه للجلوس .. كان الرجل بمفرده غير مصاحب لأحد معه .. أخذ يتطلع حواليه .. ونظارته الطبية السميكة على عينيه وقد سقطت فوقها هالات شديدة التوهج من الأضواء الكاشفة الساطعة بالقاعة .. وقد ظل على ذلك الحال بعض الوقت .. وساعتها خطر لى أن أهبط سريعا من مكان جلوسى إلى حيث يوجد الأستاذ الشرقاوى حتى آخذ بيده إلى المكان المعد لجلوس رجال الصحافة على جانب الصالة الكبرى أمام المنصة الرئيسية .. وقد كانت هناك بالفعل لافتة إرشادية مكتوب عليها بالعربية والإنجليزية [صحافة:Press] كانت اللافتة موضوعة فى مقدمة المكان المخصص لذلك .. غير أن الأستاذ الشرقاوى لم يشاهد تلك اللافتة التى كانت على مقربة من الموضع الذى وقف عنده فى حيرته تلك .. إلا أنه قبيل شروعى فى النزول إليه وجدت أحد الجالسين أمامه يقوم ويسأله عما يبحث .. وأعقب ذلك أن أشار له نحو المكان المطلوب ...

إن الباعث الذى جعلنى أذكر – بشئ من التفصيل – ما هو متصل بتلك الواقعة المرتبطة بالأستاذ الشرقاوى .. الباعث إلى ذلك أننى أردت استخلاص دلالة ما يمكن أن نستنبطه من وراء تلك الواقعة ... فالأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى صاحب تلك المنزلة الرفيعة الشامخة فى عالم الثقافة وفى دنيا الفكر والإبداع قد حدث له أو معه ذلك الذى أشرنا إليه عندما توجه لتلبية دعوة حضور واحدة من المحافل العامة ذات الطابع الرسمى والقومى ... هذا الأمر يعطى مؤشرا عن نوعية أو مستوى الاهتمام بأولويات التراتب فى سلم القيمة الاجتماعية .. ويكشف عن حجم الوزن النسبى لأقدار الناس فى العقل المصرى (إبان حدوث تلك الواقعة على الأقل) فلو أن الذى حضر للمشاركة فى تلك الاحتفالية كان أحد المسئولين من كبار الضباط سواء بالقوات المسلحة أو بالشرطة أو كان واحدا من نجوم كرة القدم أو من أولئك الذين نسميهم الفنانين خاصة فى مجال الغناء أو التمثيل ..لو حدث شئ من ذلك لكانت هناك بالفعل حفاوة بالغة واهتمام كبير يصاحب قدوم أى من تلك الشخصيات .. اعتبارا من بداية مجيئه عند باب الجامعة وحتى دخوله إلى قاعة الاحتفالات .. وربما كان هناك من يصحبه فى ترحاب وفى تبجيل بروتوكولى حتى يجلسه على مقعده ...

وقد تكون هناك – أيضا – علاقة بين ذلك الحال من عدم الاكتراث الذى قد يصل إلى درجة التجاهل بالنسبة لما يستحقه مثل أولئك الأعلام من أصحاب المكانة لدى النخبة الثقافية الرفيعة .. نقول قد يتصل ذلك بحال العلاقة الملتبسة غير

المستقرة التى هى عرضة للتأزم بين الدولة أو السلطة وبين فصيل أو آخر من المثقفين فى ضوء المد والجزر أو التذبذب فى موقف الدولة بين السخط والرضا إزاء بعض المثقفين حسب ما تقوم به السلطة أحيانا (فى ظل ملابسات سياسية معينة) من مناهضة بعض المفكرين والمثقفين نظرا لانتماءاتهم لأيديولوجيات بذاتها تلاحقها الدولة وتعمل على التضييق على أصحابها .. وربما يصل الأمر إلى اعتقالهم والتنكيل بهم فى ضوء الظرف السياسى القائم وقتها وما تحكمه من توجهات تقتضيها شروط اللعبة السياسية المعمول بها ..

(ج) مع أمكنة أخرى متنوعة بالقاهرة:

نختتم – فى هذه الفقرة – الحديث عن أمكنة عايشتها بالقاهرة بذكر مجموعة أخرى من الأمكنة المتنوعة وكان لى معها تجربة ذات أثر محبب إلى نفسى .. وسوف نجمل القول فى هذا السياق على نحو من الإيجاز دون تفصيل ...

فهناك – فى هذا المجال – هضبة الأهرام بالجيزة .. والمتحف المصرى بميدان التحرير .. ومتحف مختار المجاور لدار الأوبرا (الحديثة) عند الطرف الغربى لكوبرى قصر النيل .. كذلك هناك حديقة الحيوان بالجيزة .. وحديقة الأسماك بالزمالك وحديقة الحرية بالطرف الجنوبى لجزيرة الزمالك، وهذا المكان الأخير هو من المواقع الفاتنة ذات البهاء الخلاب والرونق البديع والبساطة العبقرية الساحرة والهدوء الحالم الأثير .. إنه مكان وضيئ ناصع البهجة يبعث على الشعور بالصفاء وعلى

الإحساس العميق بطمأنينة النفس وسكينة الروح .. وكثيرا ما أفاد مخرجو الأفلام السينمائية من هذا المكان فى تصوير المشاهد الرومانسية .. وإلى الشمال الشرقى من حديقة الحرية توجد حديقة الأندلس على الحافة الشرقية للجزيرة المطلة على النيل .. وهى حديقة غاية فى الأناقة والتنسيق البديع .. تغشاها خطوط ممتدة من أشجار (الفيكس) المشذبة فى رونق جميل .. تتخللها مشايات مغطاة برمال صفراء .. وعلى جنباتها سبائك من الزلط الملون تحوط أحواضا مكسوة بحشائش كثيفة يانعة الأخضرار كأنها قطيفة مخملية ناعمة وتزدان الحديقة بمجموعة من التماثيل الرخامية الشهباء لأسود صغيرة تنبثق من أفواهها المياه.. كما تضم الحديقة نافورات رشيقة تنسكب مياهها فى أحواض مرمرية مصقوله ناصعة..

ثم نذكر تلك الحديقة ذات الطابع الكلاسيكى الفريد . (حديقة الأورمان بالجيزة) التى تقع إلى الشمال من حديقة الحيوان . وحديقة الأورمان هذه قد أنشأها الخديوى اسماعيل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ضمن المنشآت الضخمة الرائعة التى أراد الخديوى بإقامتها أن ينقل أرض المحروسة إلى الحداثة والعصرية على الطابع الأوربى.

وقد استجلب الخديوى إلى تلك الحديقة أنواعا نادرة من الأشجار الضخمة العملاقة ومن النباتات والأزهار ذات الفصائل الممتازة .. ولا تزال تلك الحديقة من أروع الحدائق المصرية وأجملها ولم تزل تحتفظ بخصوصية متميزة ذات طابع بديع خلاب ..

وأخيرا .. فإنه بمتابعتنا الحديث عن تلك الأمكنة والمواقع القاهرية .. فلا أنسى ذكر الحديقة اليابانية بحلوان .. تلك الحديقة التى سعدت أيما سعادة بزيارتها والاستمتاع بما تضمه وتوفره من مختلف أسباب البهجة والدهشة والاستجمام .. وقد كان لى ذلك ذات يوم فى خريف عام ١٩٦١ .. أمضيت هناك مع صحبة حميمة من الأصدقاء ساعات هانئة أيام زمن الصفاء و(روقان البال) .. أيام كان نهر الحياة يتدفق بنا طروبا نقيا رقراقا .. لا تشوبه أو تفسده أفاعيل تكدر صفو الليالى وبهاء الأيام وطلاوتها .. إلا ما كان يقع للبعض – أحيانا – من منغصات تظل عند المستوى السطحى من نفس الإنسان دون أن تخترم أعماق روحه بما يجعله منقسما على ذاته وبما يصيبه بالاضطراب فى تواصله الطبيعى مع الآخرين ومع الأشياء من حوله على نحو يصير معه مشتت النفس مفرق الخاطر ضحلا فى درجة حضوره النفسى .. وكل ذلك من الأمور التى تفشت – فى السنوات الأخيرة – لدى الكثيرين من أفراد المجتمع على نحو لافت يختلف كثيرا عن ذى قبل .. حتى لكأنك تجد غالب أهل المدن الكبرى على وجه الخصوص وهم يتدافعون يوميا فى كثير من الشوارع المكتظة التى صارت خانقة .. يغشاها الضجيج والغبار وعادم السيارات فى كل فراغات أجوائها .. نقول كأنك تجد هؤلاء الذين هم نموذج لما فعلته أحوال الحياة بالناس فى الزمن الأخير وما حفلت به الأيام من مستجدات وتقلبات دراماتيكية اجتاحت وأربكت كثيرا من مفردات الحياة اليومية والمعيشية للناس .. تجدهم وأنت تقرأ

على وجوههم ما يعتمل فى دخائلهم من قلق وحيرة واضطراب يكاد يستحيل ذهولا .. إنهم منهمكون فى تدافعهم كأنهم يطاردون شيئا غامضا مجهولا لا يدركون ما هيته تحديدا على وجه اليقين .. يهرولون من ورائه ولا يلحقون به أبدا .. كأنهم قوافل من أشباح شاردة أو أرواح هائمة على وجوهها تسعى فى لهفة إلى حيث لا تدرى ولا تريد.. وبهذا الذى يتبدى على محياهم يصيرون كأنهم يعانون حالة من استلاب الشعور بالأمان ومن فقدان السكينة والاطمئنان.. مستنفرون مضغوطون وربما مقموعون مأزومون فى أعماق نفوسهم لسبب أو لآخر أو لأسباب شتى فى وقت واحد.. وتلك حالة لا يكاد يفلت من آثارها كل من الفقراء والأغنياء على السواء.. البسطاء وعوام الناس إلى جانب أصحاب الجاه والمكانة من صفوة المجتمع.. حدث ذلك من جراء ما أصاب المناخ العام فى المجتمع وما لحق بإيقاع الحياة اليومية من عوامل وأسباب متسارعة اجتاحت مفردات كل شئ وأدخلت الناس فى شبكة معقدة من الحسابات غير المسبوقة اجتماعيا واقتصاديا وروحيا.. كل ذلك أفرز أوضاعا وأحوالا يفسرها البعض على أنها أعراض حالة مخاض تسبق ميلادا جديدا تأتى من بعده تحولات.. تتغير وتتبدل بها ومعها حياة المجتمع.. ويرى البعض الآخر من المحللين والمنظرين أن تلك الوضعية أو ذاك الحال الذى نحن فيه.. هو محصلة أخطاء عبثية غير مسئولة نحن جميعا نتحمل تبعتها وأننا مسئولون عن تفاقمها واستفحالها إلى الحد الذى وصلنا إليه بل وربما إلى ما قد يزداد معه الأمر سوءا

دون إمكان التكهن بأى مآل مجهول العواقب قد تنتهى إليه أوضاع المجتمع..

٢- مع أمكنة خارج القاهرة

نتناول فى هذا السياق من الكتاب .. الحديث عن أمكنة كان لى مع كل منها تجربة عشت من خلالها مواقف وأحداث ارتبطت بها وقائع وشخصيات .. نذكر بعضها باعتبارها تمثل جانبا من معالم طريق رحلة العمر دون أن نقف عندها طويلا وحسبنا أن نشير فى إيجاز إلى بعض أمور صاحبتها وارتبطت بها ... وهناك أمكنة أخرى نقف عندها فى شئ من الروية .. نتناول ما اكتنفها واتصل بها على نحو أكثر تفصيلا وأبعد عمقا .. وربما نشير إلى بعض ما يمكن استخلاصه من معان ودلالات تشى بها أو تفصح عنها ..

(أ) فى مديرية التحرير عام ١٩٥٥.

قبيل انتهاء العام الدراسى - عندما كنت بالفرقة الرابعة بمدرسة بنها الثانوية - اشتركت فى رحلة نظمتها المدرسة إلى مديرية التحرير فى ربيع عام ١٩٥٥ .. وقد قرر القائمون على شئون الرحلة أن يتجمع الطلاب ليلة السفر بالصالة التى كانت تستخدم مطعما للمدرسة سابقا ثم صارت مقرا لنادى المدرسة .. وقد كان المبيت بالمدرسة ليلتها لازما لضمان موعد منضبط لركوب القطار من بنها مبكرا عند الفجر تقريبا .. وها نحن -

آنذاك – قد احتشدنا بمحطة بنها صباح ذلك اليوم .. وقد شملتنا بهجة غامرة .. تتوثب داخلنا حالة من جيشان صاخب الفرحة .. ومن مراح حلو لذيذ تنتشى به جوانحنا .. وما أن جاء القطار حتى ركبنا إلى القاهرة .. وهناك كان علينا أن نستقل قطارا آخر من داخل (محطة مصر) يصل بنا إلى مديرية التحرير مرورا بالمناشى والخطاطبة .. ولما كان موعد قيام ذلك القطار لم يكن قد حان بعد .. فقد كانت لدينا فسحة من الوقت أتاحت لنا أن ندلف إلى ميدان باب الحديد (كما كان يسمى منذ أكثر من نصف قرن) .. ذلك الميدان الفسيح الصاخب بحركة متصلة متجددة للسيارات والترامواات التى تقطع أقطار الميدان الكبير .. وقد كان شيئا لافتا مدهشا أننى ساعتها أبصرت داخل الميدان تمثال نهضة مصر الذى صاغه المثال الكبير محمود مختار .. يقف التمثال شامخا رصينا .. يبعث فى نفس الناظر إليه كثيرا من المعانى والدلالات التى تشى ببراعة الأداء الجمالى فائق الروعة وتجسد رمزا عبقريا للروح المصرية فى رسوخها وأصالتها وفى توثبها على طريق النهضة والرقى ... وكان ذلك التمثال لم يزل منذ عام ١٩٢٧ رابضا فى مكانه بميدان محطة مصر قبل نقله فيما بعد إلى مكانه الحالى بالجيزة على مقربة من المدخل الرئيسى لجامعة القاهرة ... وأذكر أنه فى ذلك الوقت الباكر من صباح ذلك اليوم الربيعى الأثير كانت تتدافع من حول التمثال ومن فوقه أسراب متلاحقة من الضباب المشبع بذرات الطل التى تصافح وجوهنا فى رفق طلى وديع ...

ثم ها نحن – أفراد جماعة تلك الرحلة المدرسية – قد عدنا أدراجنا إلى رصيف القطار الذى يقلنا إلى غايتنا التى نحن إليها ذاهبون .. وما أن تحرك القطار وأخذ يطوى الأرض وامتد بنا الطريق غير بعيد حتى عبرنا النيل لا أدرى من أين على وجه التحديد ... وشمر القطار عن ساعده وزاد من سرعته .. وانطلق مدويا بصفارته القوية .. يملأ بأصدائها الآفاق من حوله .. يشق – وسط الحقول – تلك الأجواء الندية التى لم تزل تغشاها حبيبات الطل الرطيب .. ولم يكد القطار يمضى طويلا حتى الفينا أنفسنا نخترق مساحات ظليلة وسط غابة من النخيل تتخللها مزروعات يانعة الاخضرار .. تلك كانت أراضى بلدة (المناشى) التى لا أذكر إن كان القطار قد توقف بمحطتها أو أننا مررنا بها دون توقف ... وتواصل سير القطار .. يمخر بنا الآفاق الممتدة صوب الشمال الغربى .. ومررنا على العديد من البلدان .. إلى أن توقف بنا القطار بمحطة واحدة من تلك البلاد البعيدة التى لم نعهد مثيلاتها فى حياتنا اليومية داخل البنية العمرانية المعتادة لنا فى أقاليم الدلتا .. وهناك عند محطة مديرية التحرير .. التى نزلنا بها كانت تنتظرنا بعض السيارات .. استقلت كل مجموعة منا إحداها .. وكان برفقتنا داخل السيارة الأمامية موظف لدى الجهاز الذى يدير مديرية التحرير .. وهو مندوب مكلف بالإرشاد والشرح والتوضيح .. وكان ذلك المرشد السياحى أو مسئول العلاقات العامة الخاص بالفوج الذى يضم أفراد رحلتنا .. موظف يدعى (عبد السلام) ... كان رجلا ظريفا لا يخلو من غرابة تثير الضحك أو الاشفاق حينا .. والاستياء

والضجر أحيانا ... كان كذلك فى طريقة حديثه وفى إشاراته وحركاته بل وفى ملبسه الذى - وان كان حسن الهندام ويعلق فى رقبته رابطة عنق(كارافات) — إلا انه يلبس سترة بدلته(الجاكت) دون أن يضع ذراعيه داخل أكمامها بما يجعل الأكمام تتدلى على جانبيه .. وتكون — بفعل حركة السير أو بفعل الرياح — تكون صاعدة هابطة متأرجحة وقد تصعد فجأة وبشدة فترتطم بوجهه أو تتلفع حول عنقه ... أما عن أسلوبه فى الشرح والتوضيح للضيوف الزائرين .. فكان مدهشا مسليا مثيرا للعجب والغرابة حيث يضع إحدى قبضتيه فى وسطه ويرفع الأخرى فى حركة مسرحية — لا تخلو من تصنع للرشاقة والتأنق .. مشيرا بإصبع السبابة في شيء من الاستعلاء والشموخ مشيرا إلى هذا الشيء أو ذاك مما تستلزمه عملية الشرح والتوضيح .. وهكذا — ومن خلال تنقل تلك المركبات بنا على طرق أسفلتية تتخلل مساحات صحراوية هائلة الاتساع — كنا نهبط (ومعنا الأستاذ عبد السلام) عند هذه المنشأة أو تلك من القرى الجديدة التى تجرى إقامتها مثل قرية أم صابر أو قرية عمر شاهين .. ولدى كل محلة أو مستعمرة من تلك المستعمرات العمرانية — التى كانت تتم إقامتها حديثا .. كنا نشاهد منشآت بداخلها قطعان من الماشية أو قطعان من الدجاج أو البط أو الديوك الرومى .. وهناك أيضا توجد بنايات كمخازن للمهمات أو للحاصلات الزراعية ومنشآت أخرى تجرى إقامتها لتكون مقرا لمدارس أو وحدات صحية أو مساجد أو نواد...

هذا وقد قضينا يومها عددا من الساعات داخل ذلك المجتمع التعميري الجديد .. وكان هذا بالنسبة لى تجربة مدهشة ممتعة .. التقيت من خلالها ولأول مرة بعالم الصحراء وما تتسم به تلك البيئة من خصائص ومكونات طبيعية وحياتية تختلف تماما عن العمران التقليدى الذى عهدناه وألفناه بالقرى والمدن بدلتا النيل .. فضلا عن أن مثل تلك الرحلات الصحراوية كانت – إلى جانب الاستمتاع بالأسفار وما يرتبط بها من مشاهدات وملاحظات تتصل بمجتمعات جديدة مثل مشروع مديرية التحرير – أقول كانت بالنسبة لنا فى تلك السن الباكرة من العمر تضع البذرة الأولى لأمر حيوى فى بناء وتكوين وعى سياحى واقتصادى يتصل بقضايا المجتمع وبمستقبل الوطن حين يتاح لنا ان نعاين بأنفسنا – من خلال اتصال مباشر – مشروعا قوميا تنفذه الدولة للمساهمة فى تنمية المجتمع ونهوضه بما يعمل على توفير حياة أفضل بتحقيق قيمة مضافة على طريق التقدم والازدهار ... بصرف النظر عن مدى ما تحقق بالفعل من نجاح أو فشل لذلك المشروع (مديرية التحرير) أو لغيره من المشروعات ومن الجهود الإنمائية والحضارية التى تنشد مزيدا من الوفرة ومن الرخاء والرفاهية..

وها نحن قد أدركنا وقت الأصيل فى ذلك اليوم الحافل المحتشد بتلك الأحداث والمرائى الجديدة المدهشة التى تبشر بإنشاء واستزراع عمران ينبض بمختلف مظاهر الحياه الواعدة بالاخضرار والخيرات فى قلب تلك الصحراء الشاسعة القاحلة ..

وسط ذلك التيه اللانهائى من الرمال التى يلفها صمت سحيق يتسربل بمظاهر الوحشة والعدم ... وكأننا وقد عشنا تلك الساعات داخل هاتيك التجربة الحية من تجارب تعمير الصحراء وتلقيح القفار بأسباب النماء والإزهار .. كأننا قد عاينا مشهدا حافلا من مشاهد فصول تلك الملحمة المتجددة لجدلية الصراع الموصول أبدا بين أسباب الحياة وبين دواعى الموت والفناء .. ونعود إلى قول إنه عندما أدركنا وقت الأصيل واتجه موكب الشمس صوب الأفق الغربى مؤذنا باقتراب وقت المغيب .. ركبنا قطار العودة .. ولم نرجع من نفس طريق مجيئنا فى الصباح .. ولكن اتجه بنا القطار شمالا حتى توقف بنا فى محطة كوم حمادة .. ثم بعدها فى محطة إيتاى البارود حيث نزلنا بتلك المحطة وأمضينا هناك بعضا من الوقت انتظارا لمجيئ القطار القادم من الاسكندرية إلى القاهرة مرورا بمحطة طنطا ثم محطة بنها التى نزلنا بها بعد ساعة من وقت الغروب ...

وهكذا عدنا أدراجنا إلى المكان الذى بدأنا عنده رحلتنا فى الصباح الباكر ... وبهذا الإياب الميمون الذى عدنا به سالمين سعداء .. عشنا تجربة طلية أكملنا بها ومعها دورة من دورات الحياة ... فما حياة الناس فى هذه الدنيا إلا سلسلة موصولة من أشواط ودورات لتجارب ذاتية أو جماعية يحيونها مع تنوع وتفاوت نصيب كل منهم من الرضا والسعادة .. ومن المعاناة والشقاء ...

(ب) فى الأقصر وأسوان عام ١٩٥٦

فى شهر يناير ١٩٥٦ عندما كنت بالسنة النهائية للتعليم الثانوى .. أتيح لى الذهاب فى رحلة إلى الأقصر وأسوان ضمن فوج طلاب السنة الخامسة بمدرسة بنها الثانوية من خلال البرنامج الذى وضعته الدولة إعتبارا من العام الدراسى ٥٤ — ١٩٥٥ واستمر تنفيذ ذلك البرنامج سنويا على امتداد حقبة من أعوام متصلة بقيام طلاب السنة النهائية بالتعليم الثانوى العام على مستوى الجمهورية برحلة مجانية إلى الأقصر وأسوان على حساب الدولة ... وكانت تلك الرحلة — بالنسبة لى — حدثا إيجابيا مثيرا من جوانب عديدة ذات أثر عميق بين تجارب حياتى التى سعدت بها وأفدت منها كثيرا ... ومن الجوانب التى جعلت تلك الرحلة المدرسية رحلة غير تقليدية .. أن أيامها امتدت إلى قرابة أسبوع كامل ... وأتاحت لنا أن نمضى بالقطار (مرة واحدة متصلة) وسط بلدان الصعيد على امتداد الشريط الخصيب لوادى النيل فى مصر من القاهرة حتى الشلال جنوب مدينة أسوان .. وأن نشاهد ونعايش ذلك الكم الهائل من آثار مصر القديمة التى من أهمها وأبرزها معبد الكرنك وما يضمه من إبداعات فائقة الروعة والبهاء والجلال .. وإن كان من أشد الأمور التى حيرتنى ونحن نسير وئيدا بين تلك الأعمدة الضخمة العملاقة شاهقة الارتفاع كثيفة العدد بتقاربها إلى بعضها فى مدى لا يزيد عن مترين تقريبا بين العمود والآخر داخل معبد الكرنك ... أقول إن أشد ما حيرنى وأثار تعجبى هو ذلك الذى شاهدته من وجود كل ذلك الكم الكثيف من الأعمدة المتقاربة هائلة الحجم بما يجعل الواحد

منها يزن مائة طن أو يزيد من الأحجار الصلبة التى جرى صقلها وتسوية جوانبها وصياغة ما هو قائم على امتداد أسطحها الدائرية على نحو جمالى دقيق وتتويج قمتها على هيئة زهرة اللوتس ... لم أجد فى تلك الغابة المزدحمة من الأعمدة بالكيفية التى أشرنا إليها داخل ذلك الحيز أو المنظور المحدود ... لم أجد مسوّغا يبرر اللجوء إلى إقامة ذلك الحشد من الأعمدة على نحو لا يخدم – من وجهة نظرى – غاية أو هدفا يحقق وظيفة تقتضيها ضرورة هندسية معمارية أو تتطلبها دواعى إقامة شعائر الطقوس التعبدية لأى ديانة من الديانات باعتبار ذلك البهو من الأعمدة داخل معبد من المعابد الكبرى لدى قدماء المصريين ... ناهيك عن الإفراط أو الإسراف فى إنفاق كل ذلك الجهد متعدد الجوانب باهظ التكلفة الذى هو وراء إقامة وتشييد تلك الأعمدة بالكيفية التى هى عليها .. وهناك أيضا ما يمكن استنباطه من دلالة شيوع وسيطرة شكل من أشكال التسخير فى حشد الطاقات لتنفيذ مثل تلك الأعمال على النحو غير المفهوم وغير المبرر بما لا يخدم أو يسد حاجة من الحاجات الأساسية التى تتطلبها حياة الناس اليومية .. فليس من المتصور نظريا أو عمليا أن السواد الأعظم من عامة الناس إبان تلك العصور يسمح لأى منهم باستخدام تلك المعابد فى أداء طقوس عباداتهم ... كما أن أداء طقوس العبادة بالنسبة لأفراد الطبقة العليا من صفوة المجتمع لم يكن يلزمها أن يكون المعبد على ذلك النسق من التكوين الذى أشرنا إلى خصائصه .. وهى خصائص ومواصفات ليس من تفسير مقنع وراءها غير أن تكون مكونات المعبد بالكيفية التى تم

تشييده عليها هى أمر مقصود لذاته من ناحية الإبهار المعمارى الضخم بخصائصه التى تبعث فى النفوس الرهبة والجلال لبيان عظمة الفرعون بأن يترك أثرا يخلد ذكراه على امتداد السنين والأحقاب .. وهو نفس المعنى الذى أشرنا إليه بالصفحات السابقة من هذا الكتاب فى حديثنا عن كثافة وغزارة إقامة المساجد الضخمة المتجاورة والمتقابلة بالقاهرة الفاطمية لدى شوارع الغورية والمعز وغيرهما من الشوارع المحيطة بالمنطقة ..

وكان من الأمور المدهشة الممتعة فى رحلتنا تلك .. قيامنا بالعبور فوق جسم خزان أسوان .. ذلك المشروع الهندسى الكبير الذى تمر مياه النيل عنده من خلال ١٨٠ (مائه وثمانين) فتحة عملاقة .. هذا بالإضافة إلى عمل الأهوسة جهة الشاطئ الغربى..

أما عن جزيرة النباتات التى تقوم فوق ربوة عالية وسط نهر النيل أمام مدينة أسوان .. فهى جزيرة فائقة النضارة والروعة .. تعلوها حديقة يانعة الإخضرار مساحتها تبلغ سبعة عشر فدانا .. ويذكر أن تلك الحديقة قد أنشأها اللورد الإنجليزى كتشنر عام ١٨٩٨ وأنه قد استجلب إليها أنواعا نادرة ممتازة من الأشجار والنباتات والزهور ... ولقد قضينا بين جنبات وأنحاء تلك الحديقة ساعات هانئة مبهجة سعيدة ... ومعلوم أنه يقع على ظهر تلك الجزيرة الأسطورية الفاتنة .. ضريح الأغاخان .. والجزيرة بموقعها العبقرى الخلاب كأنها يا قوته نفيسة أو زمردة كبيرة ذات ألق نضير .. يتضوع منها عبق المسك والياسمين والريحان .. تمرح فى سمائها الفراشات الملونة وتصدح الأطيار الرشيقة الطروب بأطيب الأغاريد وأعذب الأصوات الحلوة الشيقة

... وتطل من مياه النيل حول الجزيرة مجموعة متناثرة من الصخور الملساء كأنها وصيفات حسان تقع بين يدى مليكتها التى تختال فى عليائها مزهوة بمفاتنها ترهف سمعها إلى أهازيج ... تنشدها لها تلك الوصيفات الحسان ...

أما عن مدينة أسوان ذاتها ... فهى نموذج للمدينة الوضيئة النظيفة الهادئة ذات الاجواء الصحوة النقية والشمس الساطعة الدافئة ...

وكانت آخر الجوانب الطيبة النافعة التى تضمنتها تلك الرحلة المتعة الشيقة ... أننا فى طريق العودة ركبنا القطار لمدة ٢٢ (أثنين وعشرين) ساعة متصلة من محطة أسوان حتى محطة القاهرة مرورا بعشرات البلدان التى توقف القطار عند بعضها ... ولم نكن نحن الطلاب فى سفرنا هذا الطويل الممتد مئات الأميال مجرد ركاب للقطار على نحو نمطى تقليدى كبقية المسافرين .. ولكن بحكم السن وبحكم حب الاستطلاع الطبيعى لدينا كشباب يحرص على الاستمتاع بتجربة الاكتشاف والدهشة فى التعامل مع كل جديد يعرض لنا ... فقد كان كل منا — أو كل من غالبيتنا على الأقل — محتشد بحالة من النشوة الغامرة بما يجعله مفتح الحواس متوهج الوعى والمشاعر لتحصيل والتقاط أكبر قدر من التعرف على ما يجرى حولنا أو نجوس خلاله أو نخترقه بالقطار من قرى ومدن على امتداد الوادى الخصيب بصعيد مصر وما تحفل به تلك البلدان من بشر ومن حقول ونخيل وأشجار ومن أنعام ودواب ومن ترع وجداول وسواق وشواديف .. ومن بنايات

واكـواخ وخيـام .. ومـن مـآذن للجوامـع وأبـراج للكنـائس .. ومـن مداخن سامقة الارتفاع لورش صناعة الطوب أو لمحالج القطن أو لـبعض المصـانع .. وكـان مـن أطـرف الأشـياء وأكثرهـا مـدعاة للاستمتاع والبهجة .. إننا كنا نجد (لدى كثير من المحطات التى يتوقف بها القطار) صبية وغلمانـا يقفون على رصيف المحطة ومع كل منهم بعض من أعواد القصب التى تم إخلاء ما عليها من أوراق فصـارت نظيفـة لامعـة .. يعرضـون تلـك الأعـواد للبيـع ويميلون بها فى أيديهم نحو نوافذ وأبواب عربات القطار حتى يشترى أى منا ما يشاء وما يطيب له من أعواد القصب ...

وهـا نحـن قـد وصـل بنـا القطـار أخـيرا إلى (محطـة مصـر) بالقاهرة وكنا وقتها فـى أول سـاعات الليـل .. نـزلنـا لنستقل بعد قليل قطارا آخرا نصل به إلى بنها ..

وهكذا أكتملت وقائع تلك الرحلة الحافلة بالمتعة والترويح وباكتساب معارف وتجارب شيقة نافعة .. خاصة ما عايشناه من التحام بذلك التراكم الهائل لأشياء هى رموز لأحداث ممتدة بعيدا عبر احقاب خلت فى عمق التاريخ ...

(ج) رحلات وزيارات إلى مدن وبلدان اخرى.

★ فى الفيوم عام ١٩٦٠

فى ربيع عام ١٩٦٠ عندما كنت بالسنة النهائية من دراستى الجامعية ... اشتركت فى رحلة نظمتها الكلية إلى الفيوم لمدة يوم واحد .. وفى ذلك اليوم قمنا بزيارة وقضاء بعض الوقت لدى الأماكن التالية بمحافظة الفيوم:

- مدينة الفيوم .. حيث استمتعنا بمشاهدة أبرز معالمها .. كالسواقى العملاقة دائمة التشغيل والدوران آليا على بحر يوسف
- بحيرة قارون .. التى نزلنا عند إحدى النقاط بسواحلها الممتدة التى تزدان بكثير من البلاجات والمنشآت السياحية .. ويشاهد الرائى من فوق الشط داخل البحيرة .. يشاهد منظرا خلابا مبهرا لأشرعة بيضاء تتمايل فى رفق وديع فوق مراكبها التى تحتشد بها صفحة مياة البحيرة .. بعضها قريب إلى الشاطئ .. وبعضها الآخر متناثر فوق المساحات السحيقة فى إتجاه الأفق البعيد الذى يبدو للناظرين مطبقا على مياة البحيرة ذات المساحات الشاسعة الممتدة آلاف الأفدنة من المياه ...
- ثم اختتمنا برنامج الرحلة بالذهاب إلى (بلدة السليين) ذات المرتفعات والمدرجات النباتية الوارفة التى تتخللها عيون المياة العذبة ... وهناك قضينا ساعات ممتعة من الاستجمام ومن المرح واللهو الحافل بالتريض بين خمائل خضراء نضرة يانعة .. وبين أحواض مطرزة بالرياحين والأزهار وينابيع من ماء نمير ينبثق نافورات ذات أشكال رومانسية رشيقة بديعة الإنسياب .. وقد تخلل ذلك ضحكات وشئ من شقاوات الألعاب الخفيفة المحشوة بالمزاح والمرح ...

وعند قدوم المساء تحركت الحافلة من هناك فى طريق العودة إلى القاهرة التى دخلنا إليها ليلا ...

★ في غزة عام ١٩٦١

خلال شهر إبريل ١٩٦١ إشتركت فى رحلة لمدة أسبوع إلى قطاع غزة (وقد أعدت الرحلة ونفذتها المصلحة الحكومية التى

كنت أعمل بها فى القاهرة) — وكان قطاع غزة الذى هو تابع لفلسطين يقع تحت إشراف الحكومة المصرية حسب الترتيبات التى قررتها هيئة الأمم المتحدة فى ذلك الشأن بعد حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ...

ركبنا القطار فى الصباح من القاهرة ... وما أن وصلنا إلى مدينة الإسماعيلية .. نزلنا بمحطتها عندما قيل إننا سنواصل رحلتنا بعد ساعتين تقريبا .. فكانت فرصة أتاحت لنا النزول إلى بعض شوارع الإسماعيلية وحدائقها .. وتناول البعض ما طاب له من مأكولات ومشروبات لدى محلات ومقاهى تلك المدينة العامرة الجميلة ... ثم استأنف بنا القطار السير حتى نزلنا ببلدة القنطرة غرب .. وعبرت بنا المعدية عرض قناة السويس إلى القنطرة شرق .. ومن هناك ركبنا قطارا آخراً واصل بنا السير عبر شمال سيناء ... ثم داخل قطاع غزة ... وهناك عند مدينة غزة إنتهت مسيرة الذهاب فى سفرنا .. وقد وصلنا غزة وقت الأصيل بعد عصر ذلك اليوم .. وذلك بعد أن مر بنا القطار على العديد من البلدان والمدن المصرية والفلسطينية .. حيث شاهدنا رمانة وبئر العبد والعريش والشيخ زويد ورفح ... ثم خان يونس ودير البلح وأخيرا غزة التى نزلنا بها ..

وما كان لى أن أتحدث عن مسيرتنا بالقطار مئات الأميال على امتداد شمال سيناء دون أن أشير إلى بعض المشاهد غير النمطية ذات الطبيعة الخاصة التى كانت بالنسبة لى تجربة مدهشة حافلة بالطزاجة والإثارة ...

فكم شاهدنا أكثر من مرة والقطار يخترق بنا الصحراء الواسعة كأنها بحار شاسعة من رمال تضم بين فيا فيها كثبانا وبطاحا خفيضة لا تحجب الرؤية على امتداد الأفق البعيد ... أقول كم شاهدنا فرائدا أو قطعانا من الظباء وغيرها من الغزلان الرشيقة التى كانت تقفز مسرعة .. ربما بسبب صوت القاطرة البخارية ذات الضجيج التى كانت تجر عربات القطار .. وربما لفرارها من حيوانات ضارية تراءت لها من بعيد فعجلت بالهروب قبل أن تداهمها وتطبق عليها ... كما كنا نشاهد قوافلاً من الإبل تحمل أمتعة ومعها أصحابها من البدو .. يركب بعضهم فوق ظهورها ويحدوها البعض الآخر راجلين ...

وعند مشارف مدينة العريش يقترب خط السكة الحديدية من شاطئ البحر المتوسط .. وهناك شاهدنا شاطئ النخيل المنبسط فى انسياب متدرج بديع تتخلله مجموعات حاشدة من أشجار النخيل .. كأنها عرائس البحر الساحرة الفاتنة التى خرجت لتوها من بين الأمواج تنفض زبد البحر عن شعرها المخضل ... وها هى ظلال مواكب النخيل بهاماتها العالية .. تتمايل فى دعة وفى إيماءات متدلهة رقيقة حالمة .. تلك الظلال الوديعة التى ترصع صفحة رمال الشاطئ النظيفة الناعمة بين أشجار النخيل الباسقة ... ذلك المشهد بارع الجمال كان يشكل أمام أعيننا لوحة طبيعية عبقرية البهاء ... بل كأن الطبيعة فى ذلك المكان وفى تلك اللحظة قد احتشدت فى أزهى وأروع حللها لتحتفل بنا وتحيينا نحن المارين بها القادمين إلى جوارها ... وعندما توجه بنا القطار غير بعيد .. وألفينا ذلك الموقع الجميل

قد صار خلف ظهورنا ... طاف بى خيال عذب أثير .. حتى كأن سعف النخيل فى تلك الغابة الشاطئية يانعة الإخضرار .. كأن سعف النخيل فى حركته تلك المتهدجة حينا .. المضطربة أحيانا .. كأنه أذرع ترفع أكفها إلى السماء تدعوا لنا بسلامة الذهاب والإياب فى سفرنا هذا ...

وكان من بين ما أثارته فى نفسى — أيضا — تجربة السفر عبر شمال سيناء .. أن تلك التجربة المدهشة الشيقة قد جعلتنى (وأنا أخبُر وقائعها الطلية فى حينها) أشعر أنه يتدفق فى خاطرى فيض من تصورات ترتبط ببعض الذى جرى على امتداد الأحقاب والعصور فوق هذه الأرض من شمال سيناء كمسار أو معبر للجيوش والحملات العسكرية إلى وادى النيل فى مصر الكنانة .. سواء من جانب الفرس والتتار وجيش عمرو بن العاص أيام الفتح الإسلامى لمصر .. أو ما تبع هذا وذاك من جيش ابن طولون وجيش صلاح الدين الأيوبى ... ثم جيش العثمانيين بقيادة سليم الأول .. فضلا عن أمراء المماليك وغيرهم من الغزاة والطامعين .. ومن الفاتحين والقادة العظام الذين أتوا إلى مصر لتخليصها من عسف حكام طغاة غاصبين ... كذلك كانت هذه الأرض فى شريطها الساحلى مسارا ومعبرا لجيوش وحملات عسكرية خرجت من مصر إلى أرض الشام وإلى أرض الرافدين (العراق) وإلى بلاد الجزيرة العربية والخليج العربى وربما إلى ما وراء ذلك من بلاد وسط آسيا كما حدث أيام الإسكندر الأكبر .. وكما وقع من حملات عسكرية قبله وبعده من جيش أحمس طارد الهكسوس وجيوش كل من تحتمس الثالث ورمسيس الثانى

فى توسعاتها لتكوين إمبراطورية مصرية أو لصد بعض الغزاة فى تحرشهم بمصر .. كما حدث عندما خرج رمسيس الثانى لملاقاة ملك الحيثيين وقهره والانتصار عليه فى موقعة قادش بأرض الشام ... ثم ما كان بعد هؤلاء من جيوش حكام مصر من المماليك مثل الأمير قطز وغيره لصد وتأديب الغزاة الطامعين من المغول ومن بعض الصليبيين قبل زحفهم إلى مصر واختراق حدودها الشرقية .. ثم ما كان من حملات التوسع شرقا بقيادة القائد الباسل إبراهيم باشا أيام حكم أبيه محمد على ...

أعود فأقول إنه قد احتدمت فى عقلى — ونحن نعبر بالقطار شمال أرض سيناء — احتدمت تلك السلسلة من الرؤى التى استرجعت من خلالها فى وعيى ومخيلتى دراما تلك الأحداث التى أشرنا إليها .. كما أنه قبل كل هذا الذى تحدثنا عنه وربما معه وفى تضاعيفه .. فقد جال فى خاطرى أيضا — ما كان من عبور تلك الأرض بواسطة بعض الأنبياء والرسل ومعهم بعض ذويهم إبان مرحلة من مراحل حياتهم ... سواء وهم أطفال أو غلمان ... كما هو الحال بالنسبة ليوسف الصديق وأخوته .. ثم أبويه بعد أن مكن الله له فى الأرض وصار عزيز مصر قائما على خزائن الخيرات بأرض الكنانة ... وما حدث بعد ذلك بالنسبة للمسيح عيسى بن مريم مع والدته فى رحلة العائلة المقدسة إلى مصر فرارا من بطش حاكم الروم وجبروته فى أرض الشام ... وكذلك ما كان قبل يوسف وعيسى من مجيئ أبى الأنبياء إبراهيم الخليل ومعه زوجه سارة إلى مصر .. ثم عودتهما منها ومعهما

زوجه الأخرى هاجر (المصرية) أم إسماعيل نبى الله ورسوله ... عليهم جميعا سلام الله ورحمته وبركاته ... كما جال بخاطرى أيضا .. ما كان من رحلات قوافل الحج إلى بيت الله الحرام – قبل استخدام البحر والجو فى رحلات الحج – فقد كانت القوافل البرية على ظهور الجمال والخيول والدواب تخرج من مصر إلى الحجاز عبر سيناء .. وقد قيل لى أن جدى الأكبر (الحاج عامر) عندما قام بأداء فريضة الحج فى أحد أعوام النصف الثانى من القرن التاسع عشر (منذ مائة وخمسين عاما تقريبا)قد سلك (ضمن قافلة من قوافل الحج نفس الطريق عبر شمال سيناء ..

وبعد كل تلك الأطياف – التى تحدثت عنها – مما أوحت به تجربة الحضور المباشر داخل صحراء الشمال فى سيناء .. وما سبق ذلك من الحديث عن انطباعاتى الخاصة بشأن تلك المرائى ذات الطبيعة الخاصة التى بهرتنى وأدهشتنى ونحن نجتاز بالقطار تلك البقاع القاحلة التى يلفها الصمت ويشيع فى أرجائها السكون وان كان لها سحرها الخاص وفتنتها الخلابة التى تتجلى ذروتها فى منطقة العريش عند إطلالها على شاطئ النخيل بساحل مياه المتوسط ... أقول بعد هذا الاستطراد والتطواف نعود إلى استئناف حديثنا عن فاعليات مراحل الرحلة إلى غزة التى وصلناها وقت الأصيل فى ذلك اليوم الميمون ...

وهناك قضينا بضعة أيام ... أنفقنا جانبا منها فى التجوال بسوق (فراس) الذى كان يغص بالعديد من السلع والحاجيات ذات الأسعار المنخفضة التى هى فى غالبها تدخل فى إطار الاستخدام

الشخصى من ملبوسات جاهزة وأدوات منزلية وأشياء أخرى قريبة من ذلك .. وقد كان ما يضمه ذلك السوق أمرا مغريا يشجع على الشراء .. كل على قدر رغبته فى الاقتناء وفى حدود ما معه من نقود .. وفى بعض الأوقات خاصة فى الصباح وقبيل الغروب .. كان يذهب بعضنا إلى شاطئ البحر المتوسط .. وكان تحركنا داخل المدينة بواسطة سيارات التاكسى نجوس بها شوارعا وطرقا ذات طبيعة خاصة .. حيث أن السائر فى بعضها يجد نفسه فى حالة صعود وهبوط متكررين ...

وأذكر أننى فى أحد الأيام التى قضيناها هناك بمدينة غزة .. نزلت ضيفا على أحد زملائى أيام الدراسة بكلية الآداب .. وهو من أسرة ذات جاه ومكانة مرموقة فى غزة .. حتى أن عمدة غزة (رئيس البلدية) كان لأكثر من مرة من بين أفراد تلك العائلة .. وكانت لديهم أملاك شاسعة من بساتين (أو بيارات كما يسمونها) الموالح وغيرها من حدائق الفاكهة ... وزيارتى لمنزل زميلى هذا كانت استجابة لدعوة كريمة منه لتناول طعام الغذاء عنده بمنزلهم الذى كان على هيئة قصر صغير به حديقة أمامية .. وقد أنفقت ساعات هانئة سعيدة فى ضيافة ذلك الصديق .. طوّفنا فيها – من خلال أحاديث عذبة طلية – فى مجالات عديدة تتصل بذكرياتنا الممتعة الشيقة عن أيام حلوة رائعة من سنوات الدراسة بالجامعة ..

وفى عصر ذلك اليوم .. عدت من بيت صديقى الغزاوى إلى البناية التى كنا ننزل بها نحن أفراد تلك الرحلة ... وعند فجر

اليوم التالى ركبنا من محطة غزة القطار الذى عاد بنا بسلامة الله إلى القاهرة ...

(د) فى بلدان أقمت بها:

نختتم الفصل الثالث من الكتاب بهذه الفقرة التى نكمل بها الحديث عن تجربتى مع أماكن عايشتها مما أسهم فى تكوين خبرتى بالناس والحياة .. وهى معايشة كان كل جانب منها رافدا متميزا له خصائصه فى منظومة تلك الروافد المتنوعة الثرية التى أنضجت تجربتى الذاتية ..

ونستطيع أن نقسم الحديث فى هذا المجال إلى عنصرين:

(١) بلدان أقمت بها إقامة مؤقتة بعضا من الوقت:

★ فى دمنهور عام ١٩٧٩:

خلال شهر فبراير ١٩٧٩ ولمدة أسبوعين أقمت بمدينة دمنهور لحضور دورة تثقيفية فى مجال الأسرة والسكان حضرها عدد من رؤساء القرى (الذين كنت وقتها واحدا منهم) ومعهم مسئولون آخرون تابعون لوزارات أخرى ممن يتصل عملهم بذلك المجال ... وكانت إقامتنا ومحاضراتنا بأحد الفنادق السياحية داخل تلك المدينة التى كانت لنا جولات يومية لدى كثير من أحيائها وشوارعها وما بها من مرافق ثقافية وترفيهية ومن نواد ومكتبات عامة ... وقد أتاح لنا ذلك أن نقف على بعض جوانب الحياة وطرائق الناس وأحوالهم هناك .. سواء عامة الناس من الأهالى أو المسئولين عن إدارة بعض الأجهزة والمرافق الحكومية

وغير أولئك وهؤلاء من القائمين على بعض مؤسسات المجتمع المدنى ...

★ فى طنطا عام ١٩٨٠:

أقمت أسبوعين بمدينة طنطا فى شهر يناير ١٩٨٠ لحضور دورة تدريبية لرؤساء القرى لدى بعض محافظات الدلتا ... وكانت إقامتنا ومحاضراتنا داخل قصر قطينى باشا (سابقا) الذى اتخذوه مقرا للمركز الإقليمى للتدريب فى مجال الإدارة المحلية ... وقد قضينا أياما وأمسيات ممتعة جميلة لدى مختلف أنحاء تلك المدينة الكبيرة الزاخرة بالنشاط والحركة وبالحيوية الصاخبة المتصلة المتجددة باعتبارها مركزا تجاريا واسعا فى مجال الكثير من السلع والخدمات .. كما أنها مدينة يؤمها غالب سكان الدلتا باعتبارها مركزا كبيرا للسياحة الدينية .. ربما على مدار العام وان بلغت الذروة أيام الاحتفال السنوى بمولد البدوى .. حيث تكون طنطا وقتئذ مقصدا لقوافل عديدة ترتحل إليها من معظم أنحاء البلاد المصرية وربما العربية المجاورة ... وقد أتاحت لنا مدة إقامتنا بتلك المدينة أن نعيش زخم الحياة اليومية المتدفقة المترعة بتلك الحيوية الهائلة ذات الطبيعة الخاصة بما يجعل طنطا كأنها بوتقة كبرى تنصب وتنصر بها تيارات وتدفقات لموجات متصلة متجددة دوما من البشر ومن النشاط التجارى والسياحى .. مما جعلنا – أيامها – نعيش تلك الحالة من تجارب الحياة المثيرة المدهشة ...

★ فى بورسعيد عام ١٩٨٣

كنت سكرتيرا عاما لمدينة فارسكور فى ذلك الحين (عام ١٩٨٣) ويدخل ضمن مهام عملى القيام بالإشراف على مرفق النقل النهرى بين مدينة فارسكور وبلدة كفر سليمان البحرى بالشاطئ الغربى للنيل ... ونظرا لأننى كنت رئيسا لمجلس إدارة ذلك المرفق .. فقد كان علىَّ ومعى لجنة مختصة من العاملين بمجلس مدينة فارسكور (الوحدة المحلية) متابعة إتمام تصنيع وحدة نقل نهرى (معدية) لدى شركة القنال لبناء السفن ببورسعيد ... وكنا فى بعض مأموريات المتابعة نحتاج إلى المبيت هناك مما أتاح لنا (خاصة فى المساء والليل) فرصة ارتياد مختلف أحياء ومناطق بورسعيد وبورفؤاد .. نتجول فى الميادين والشوارع الفسيحة النظيفة المتحقق بها ما يعرف بالتنسيق الحضارى تخطيطيا وعمرانيا على نحو راق بديع .. ومعلوم أن بورسعيد تقع عند المدخل الشمالى لقناة السويس .. وبها ميناء بحرى كبير زاخر بحركة البواخر والسفن .. وأنها مدينة ساحلية تقع على شاطئ المتوسط وبها بلاجات ساحرة خلابة خاصة شمال وشمال شرق بورفؤاد .. تسبح فى فضائها أسراب طيور النورس تشدوا بأصواتها الشجية العذبة ... وبالاضافة إلى كل هذا وغيره .. فقد كانت تلك المدينة (ذات الطبيعة الخاصة) منطقة حرة تزخر محلاتها وشوارعها بالعديد من السلع الإستهلاكية المتنوعة .. مما جعل المدينة — أيامها — تعج بآلاف من البشر يأتون إليها يوميا من مختلف المحافظات للتسوق وشراء ما يتوقون إليه من ملبوسات جاهزة ومن أجهزة كهربائية ومنزلية بأسعار منخفضة

نسبيا مما جعل المدينة تعيش غالب يومها من ليل أو نهار حالة غاصة بالنشاط والحركة الدائبة ومن الجيشان والصخب على نحو لا يكاد يهدأ إلا قليلا ...

★ فى الإسكندرية:

أذكر أننى سافرت إلى الإسكندرية ثلاث مرات .. الأولى فى أغسطس ١٩٦٤ — والثانية فى سبتمبر ١٩٧١ — والثالثة فى نوفمبر ١٩٨٤ ... وكانت زيارتى إلى الإسكندرية فى كل من المرتين الأولى والثالثة .. زيارة عابرة لم تزد عن مبيت ليلة واحدة .. أما زيارتى الثانية (فى سبتمبر ١٩٧١) فقد اتصلت إقامتى بالإسكندرية خلالها لمدة أسبوع نزلت خلاله ضيفا على أسرة أحد أقاربى الذى كان يقطن بأبى قير (إحدى الضواحى الشرقية لمدينة الإسكندرية) ...

وأكتفى بالحديث عن بعض الذى خبرته بمعايشتى لجوانب من الحياة بالإسكندرية فى تلك الأيام ... أذكر من ذلك أننى حرصت على مشاهدة أكبر قدر ممكن من الشريط الساحلى باعتباره من أهم معالم المدينة الكبيرة لاحتواء طريق الكورنيش على الواجهة الزاخرة للمدينة .. من بنايات ومحلات سياحية .. وأماكن للترفيه والاستجمام .. و(بلاجات) .. فركبت فى أحد الأيام حافلة للنقل الجماعى (سيارة أتوبيس) قطعو بها حوالى عشرين كيلو متر على امتداد المسافة من أبى قير حتى منطقة الرمل والمنشية ... وعندما نزلت بميدان المنشية تجولت بعض الوقت داخل ذلك الميدان الفسيح .. ثم اتجهت شرقا إلى محطة الرمل

وهـى مـن المنـاطق الزاخـرة الشـهيرة بالإسـكندرية .. ويسـتطيع المشاهد من ذلك الموقع رؤية امتـداد ميـاه البحـر بالمينـاء الشـرقى والسلسة المعقوفة التى تقوم قلعة قايتباى فى نهايتها .. هـذا وقـد تابعت يومها التجوال داخل شارعى سعد زغلول وصيفة زغلول .. وهما من أرقـى وأفخـم شـوارع الإسـكندرية ... ومـن الأمـاكن التـى حرصت على أن أعايشها وأستمتع بمباهجها .. المنتزه والمعمورة ... فقد قضيت يوما بـالمنتزه ... بدأتـه بالـدخول إلى منطقـة (قصـر المنتـزه) والاسـتمتاع بـالتجول فيمـا حـول القصـر مـن حـدائق فسيحة يانعة الاخضرار .. رائعـة التنسيق .. تبعـث علـى الشعور العميق بالصفاء والبهجة .. ثـم قمـت بالـدخول مـن تلـك المنطقـة الجميلة عبقرية البهاء إلى (بلاج) المنتـزه الـذى هـو مـن البلاجـات الخاصة ذات الطابع الأرستقراطى الراقى ... وقد نـزلت – يومهـا – إلى مياه البحر للاستحمام حينا .. ثم الخروج مـن المـاء والاسـتلقاء أحيانا على رمال الشاطئ الناعمـة الوضيئـة الناصـعة للاسـتجمام تحت أشـعة شمس الخريـف الدافئـة فـى رفـق حـالم بـين نسـائمه المنعشة التى تصافح الوجوه وتلثم الأجساد فى ود شفيف ..

وفى اليوم التـالى .. قضـيت سـاعات بـبلاج المعمـورة المتـاخم لشاطئ المنتزه جهة الشرق منـه .. وكان كـل مـن هـذين الـبلاجين (المنتزه والمعمورة)من أرقى البلاجات الخاصة على امتداد شواطئ الإسكندرية ... وقد كان من الدوافع التى حدت بـى إلى قضـاء تلـك السـاعات الطليـة الهانئـة لكـل مـن هـذين المكـانين المتميـزين (بالاضـافة إلى مـا يـوفره التواجـد لـدى كـل منهمـا مـن الاسـتمتاع المباشر) فقد كان الباعث الأساسى من ذهابى إلى هنـاك .. هو نفس

الباعث الذى سبق أن أشرت إليه فى فقرة متقدمة من هذا الكتاب ... باعث يتصل بحرصى على قضاء بعض الوقت (بكافتريا) فندق سميراميس بالقاهرة فى مطلع الستينات ... فذلك الباعث (فى كلتا الحالتين) كان من أجل اختراق ذلك العالم الأرستقراطى المغاير لما درج عليه عامة الناس فى حياتهم اليومية البسيطة المتواضعة .. وذلك للوقوف على بعض مفردات ما يجرى داخل هذا العالم السحرى الغامض .. من أجل أن تتاح لى فرصة مواتية يتوفر من خلالها أن أعيش لحظات غير نمطية بحثا عن مشاعر جديدة .. وتوقا إلى تحقيق نوع من الحالة الذهنية الأثيرة المصاحبة لمشاعر الإكتشاف والدهشة ..

وما كان حديثى عن بعض الانطباعات التى عشتها بوجودى داخل هذه المدينة (الإسكندرية) ذات التاريخ العريق والحافل والتى واصلت تجددها وتراكمها الحضارى آخذة بأسباب الحداثة والمعاصرة ... أقول .. ما كان حديثى هذا عن الإسكندرية لينتهى قبل أن أشير إلى أطياف جالت بخاطرى تتصل برؤى أوحت بها تلك الزيارة التى قمت بها إلى هناك فى أوائل سبعينيات القرن الماضى ... فقد تدفقت – ساعتها - إلى مخيلتى فرائد من صور مجلوّة عن عدد من الأحداث التاريخية ومن الشخصيات ذات الدور الكبير فى صناعة تلك الأحداث التى هى بمثابة معالم بارزة على طريق حلقات الدراما البشرية عبر العصور .. تذكرت ما سبق أن تعلمناه وقرأنا عنه بشأن قيام الإسكندر الأكبر – ذلك الفاتح الكبير الأشهر – الذى دانت له الممالك والأقطار التى كانت تمثل

غالب بلدان العالم المعمور والمعروف إبان تلك السنين السحيقة خلال النصف الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد .. أقول قيامه بإنشاء مدينة الإسكندرية وقد اختار لها ذلك الموقع الفريد المميز من شمال مصر على ساحل المتوسط مكان بلدة صغيرة هى قرية (راقودة) .. وما أعقب ذلك من بقاء اتخاذ الإسكندرية حاضرة (عاصمة) حكم البطالمة لمصر .. أولئك الذين كانت آخرهم كليوباترا Cleopatra المتوفاة عام ٣٠ قبل الميلاد .. فاتنة الدنيا وحسناء الزمان كما قال عنها الشاعر على محمود طه ... وما كان من معارك بحرية طاحنة .. ساحتها أمام مدينة الاسكندرية فى نهاية حكم تلك الملكة الداهية الساحرة اللعوب التى خلبت لب أسياد البلاط الإمبراطورى فى روما أمثال (يوليوس قيصر) والقائد الحربى الكبير (مارك أنطونيو) وما إنتهى إليه الصراع بينهما وما شاب ذلك وتداخل معه من دسائس وحروب قامت على دهاء السياسى الحصيف (يوليوس قيصر) وعلى عنفوان وطيش القائد الشاب الوسيم (أنطونيو) ثم غفلة وضعف (بطليموس) — أخوها الملك الصغير — الذى تخلصت منه بحنكتها الماهرة ... لقد دوخت كليوباترا كل هؤلاء ومَن حولهم وفى ركابهم ... دوختهم بدهائها وبراعتها الفذة وبفتنتها واستمالتها لكبارهم ... لقد كانت تلك الملكة الفاتنة تجمع بين الجمال والمجون والخلاعة والسحر الغامض وبين الذكاء والحكمة وقوة الشخصية .. بين الدهاء والمراوغة والشر والهلاك وبين النبل والحنان العبقرى والروعة الآسرة ... وكل هذه السمات والخصال نقائض متباينة يندر أن تتسق داخل إهاب شخصية واحدة .. إلا

أنها كانت كذلك عند كليوباترا .. تلك الشخصية الاستثنائية الفذة التى كانت – ولا تزال – تبهر وتحير الباحثين والمفكرين .. إن تلك الصبية العبقرية الماجنة لم تكن (بهيمية اللذات والشهوات ولكن هى عاشقة للعبقرية) .. كما أنه ليس من الحصافة – فى ميزان فهم أقدار الأفذاذ من الناس – أن نعتبرها مجرد امرأة ولهاء سوقية مبتذلة .. ولكنها أدارت واستثمرت مختلف عناصر المعطيات (Givens) التى أتيحت لها فى تكوينها وفطرتها ..وقد أبدع كل ذلك هذا النموذج البشرى الفذ بصرف النظر عن القيمة الحقيقية لمثل هذا النسق أو تلك المنظومة من السجايا والخصال فى ميزان علم الأخلاق أو حسب معايير فلاسفة التاريخ ...

وأخيرا .. نختم الحديث فى تلك الإطلالة على عالم كليوباترا .. فنقول إن تلك الدراما التاريخية التى أضرمت كليوباترا نيرانها .. قد أنتهت فصولها إلى تلك النهاية التراجيدية المفجعة بمصرع كليوباترا منتحرة بسُم الحية الرقطاء التى جعلتها تلدغها فى صدرها ... ومن ناحية أخرى فقد حدث أن تأججت فتنة الانقسامات والصراعات فى سدة الحكم فى روما بما أفضى إلى تلك الفظائع والأهوال التى إنتهت بالفتك بيوليوس قيصر عاهل الامبراطورية الرومانية ... ومن الأقوال الطريفة التى ذكرها أحد الكتاب (ربما يكون ديل كارنيجى) لبيان تأثير جمال كليوباترا بإفتتان حاكم روما بها وما حدث من وقوع قائد جيش الامبراطورية فى غرامها وما نشأ عن هذا وذاك من أحداث

تاريخية ومن معارك طاحنة أفضت إلى تحولات دراماتيكية لدى كل من روما والإسكندرية إبان القرن الأخير قبل الميلاد مما حدى بذلك الكاتب أن يذكر قولته التى فحواها:

(لو كان أنف كليوباترا أكبر– ولو قليلا– مما كان عليه .. لتغير وجه التاريخ) ...

وننتقل إلى الحديث عن بقية ما تمثل فى مخيلتى من رؤى ترتبط بمدينة الاسكندرية .. فقد شهدت تلك المدينة تعاقب أحداث تاريخية لاحقة كان من بينها .. نزول جيوش الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت فى أول مراحل غزوه واحتلاله الديار المصرية (فى الفترة من عام ١٧٩٨ حتى عام ١٨٠١ ... وما حدث بعد ذلك من قيام الأسطول الإنجليزى بضرب مدينة الاسكندرية كبداية لدخول الاحتلال البريطانى إلى مصر الذى بدأ عام ١٨٨٢ ولم تخرج قواته من البلاد إلا بعد إتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤ ... وأخيرا ما كان من خروج الملك فاروق من الاسكندرية فى ١٩٥٢/٧/٢٦ مبعدا عن مصر عقب قيام ثورة يوليو .. ثم ما أعقب ذلك من قيام الرئيس جمال عبد الناصر بالإعلان عن تأميم قناة السويس فى مؤتمر جماهيرى حاشد بميدان المنشية بالاسكندرية يوم ١٩٥٦/٧/٢٦ وغير هذا وذاك من الأحداث التى أشرنا إليها .. فيما كانت عليه الاسكندرية فى الزمن القديم من كونها واحدة من كبريات عواصم العالم .. عندما كانت زاخرة بذلك الزخم الهائل من النشاط والرواج الفكرى والعلمى .. وحيث كانت قبلة للفلاسفة والعلماء .. ومركزا عالميا للتجارة وللوفود والقوافل من أطراف المعمورة .. وظلت هكذا عاصمة

للديار المصرية حتى القرن السابع الميلادى عندما تم الفتح الإسلامى لمصر وإتخاذ عمرو بن العاص الفسطاط مقرا جديدا لتولى شئون البلاد والعباد فى أرض الكنانة ... وأخيرا .... كم أود أن يتاح لى الاطلاع ولو على شئ مما كتبه عن روح الاسكندرية كل من: دانتى – فورست – داريل – كفافيس – إدوار الخراط – إبراهيم عبد المجيد.

(٢) بلدان أقمت بها طويلا :

ويتمثل ذلك فى إقامتى عقودا متصلة من السنين .. بلغت خمسة وثلاثين عاما (١٩٦٢ - ١٩٩٧) .. أقمت طوال تلك الفترة بمدينة (فارسكور) فى محافظة دمياط إبان سنوات عملى الوظيفى بالمحليات والتى إنتهت ببلوغى سن المعاش عام ١٩٩٥ وقد أعقب ذلك أن مكثت عامين آخرين امتدادا لسنوات إقامتى بفارسكور قبل عودتى للإقامة ببلدتى بمحافظة المنوفية ..

ومن الطبيعى أن تجربة إقامتى بمدينة فارسكور على امتداد تلك السنوات قد ارتبطت بها معايشتى لأهل هذه المدينة ولغيرهم من بقية أهالى محافظة دمياط فى كثير من مدنهم وقراهم بحكم طبيعة عملى رئيسا للعديد من بلدان هذه المحافظة ... بل وبحكم تعاملى اليومى خارج مجال عملى الوظيفى فى مختلف مناشط الحياة الإعتيادية وعلى العديد من الأصعدة والمستويات داخل هذا المجتمع الدمياطى الذى له طبيعة خاصة مميزة باعتباره مجتمع كل العاملين .. الزاخر طوال العام بالنشاط والحركة فى كثير من مجالات الحرف والصناعات وفى النشاط التجارى والسياحى بما يجعل (الدمايطة) يشكلون حالة

ذات طابع مميز من الحرص على اقتناص كافة فرص العمل المتاحة بل والتى يمكن إيجادها ... وهى فرص عمل منتج يحقق قيمة مضافة ويوفر دخولا متزايدة ليس لها سقف محدد بما يخلق حالة من الرواج والإزدهار .. وما يترتب على كل ذلك من أنماط ومستويات معيشية معينة تنعكس بطبيعة الحال على نهج الحياة اليومية وعلى أساليب تعامل الناس وسلوكياتهم ...

إن تجربة إقامتى الطويلة داخل المجتمع الدمياطى .. هى تجربة تبلغ من الإتساع والعمق حدا – يفوق بكثير ما أتناوله منها بالحديث فى هذا السياق من كتابى هذا ... بل إن الحديث عن تجربة كهذه يتطلب كتابا قائما بذاته حتى يتم تناول مختلف جوانب هذا الأمر من كافة أطرافه وزواياه وما يرتبط به من أطياف وظلال تتصل بأيام وليال خبرت فيها ألوانا من السعادة الفائقة ومن الاستمتاع الطيب بمباهج الحياة وزينتها .. كما تخللتها صنوف من المعاناة المضة التى شقيت بها أيما شقاء ...

وحسبى فى هذا الصدد أن أشير – على وجه الإجمال – إلى بعض ما أثر به هذا المجتمع الدمياطى فى نفسى وفى عامة شئونى الحياتية ..

إن المجتمع الدمياطى – بإعتباره أحد أقاليم المجتمع المصرى – يتسم (بطبييعة الحال) بالخصائص العامة والأساسية التى تغلب على طابع الثقافة المصرية ... غير أن هذا لا يمنع أن يكون لهذا المجتمع الدمياطى المحلى خصائص نوعية تجعل له ما يميزه من ثقافة فرعية (sub – culture) لها طابعها الخاص

.. تتمثل فى طرائق وأنماط الحياة اليومية وفى أسلوب تفكير الناس وما يغلب على عاداتهم وأولوياتهم فى تراتب خياراتهم وما يتصل بسلم الأفضليات عندهم ... مع الأخذ فى الاعتبار ما هو قائم لديهم من الارتفاع النسبى لمعدلات الدخول ومن الوفرة النسبية لنوع من الرخاء المادى والمعيشى .. سواء بسبب عائد النشاط الحرفى والتجارى الزاخر (السابق الإشارة إليه) .. أو بسبب غزارة عائد العمل بالدول الخليجية والنفطية منذ عشرات السنين الذى تقوم به أعداد هائلة منهم على نحو يجعل ما إنه يكاد لا توجد أسرة بينهم تخلو من سفر واحد أو أكثر للعمل لدى تلك الدول وما يترتب على ذلك من الحصول على دخول نقدية عالية تنشأ عنها تدفقات مالية بغزارة تضخ فى قنوات الإنفاق عند هؤلاء وأفراد أسرهم الذين هم فى غالبهم يظلون يقيمون ويعيشون فى مدنهم وقراهم داخل محافظتهم .. ويتمثل ذلك الإنفاق الوفير فى إرتفاع معدلات أنماطهم الاستهلاكية للحاجيات واللوازم اليومية .. وفى مقتنياتهم وما يقيمونه من عقارات فضلا عن تراكم أرصدتهم لدى الأوعية الإدخارية أو فى استثمار جانب منها فى مشروعات وأنشطة ذات عائد ... وهذا كله أمر طيب وإيجابى بارك الله لهم فيه وزادهم من فضله ... وأعود فأقول إن مجمل هذه الخصائص التى تجعل المجتمع الدمياطى على هذه الحالة التى يكون معها مختلفا نسبيا عن كثير من بقية محافظات مصر .. تلك الحالة التى هى فى النهاية كان لها جوانبها الإيجابية .. كما كان لها بالفعل جوانبها السلبية فى حياة هؤلاء (الدمايطة) بل وفى انعكاساتها على من يعيشون بينهم من ذوى

الدخول المحدودة بمن فيهم الموظفين غير الدمايطة الذين أتوا من محافظات أخرى ويعملون داخل مدن وقرى دمياط ..

إن تلك الوضعية التى شكلت المناخ العام لنمط الحياة بالمجتمع الدمياطى ... قد أوجدت بالنسبة لى - وأنا ألتحم بحكم شروط الضرورة فى تفاعل من التعامل اليومى مع أهل ذلك المجتمع — أوجدت لى ظرفا حياتيا ملتبسا ومركبا تغشاه غير قليل من أسباب القلق والاضطراب أحيانا .. ومن عوامل الارتباك والمعاناة تارة أخرى خاصة إبان العشرين سنة الأخيرة التى عشتها هناك اعتبارا من بداية تراكم وتفاقم الآثار السلبية للإنفتاح الاقتصادى الاستهلاكى والترفى الذى وصف بأنه انفتاح (السداح مداح)غير المدروس وغير المخطط فى إطار قواعد وضوابط توجه مساره بما يخدم كل فئات المجتمع ويحقق تنمية شاملة متوازنة للوطن ... فقد كانت الحياة تسير بنا هناك — قبل أن تدور عجلات ذلك الانفتاح العشوائى المجنون اعتبارا من النصف الثانى من سبعينيات القرن الماضى — كانت تسير بنا الحياة على نحو به قدر ملائم نسبيا من السلاسة واليسر ومن الشعور بالأمان والطمأنينة .... إلى أن أحيط بنا نحن أصحاب الحياة المعيشية الاعتيادية من ذوى الدخول المحدودة عندما بدأت تهب علينا رياح ذلك الانفتاح المنفلت و قد اجتاحت المجتمع المصرى من كافة أقطاره فى مدنه وقراه .. فغرق بسببه من غرق وركب أمواجه العالية من ركب ... و بالنسبة للمجتمع الدمياطى قد ضاعف الإنفتاح من حجم ذلك الإنقلاب الجامح فى مستويات

الـدخول لـدى غالبيـة الأهـالى مـن الحـرفيين بـل وحتـى العمـال العاديين غير المهرة ودخلت معهم فى هذا السياق شرائح إضافية من بعض الفنيين والمهنيين كما انضم إلى هـذا الركـب أيضـا كـثير من العاملين المستخدمين لـدى أجهـزة الدولـة الـذين حصلوا علـى أجازات بدون مرتـب أو تركـوا الوظيفـة نهائيـا والتحقـوا بأعمـال لدى دول الخليج وبقية دول النفط ومن لم تتـح لـه مـن هـؤلاء أى من فرص العمل خارج مصر وما يرتبط بذلك مـن دخـول عاليـة .. فقـد انخـرط فـى أعمـال وأنشـطة محليـة ذات عوائـد ماليـة مرتفعـة تتصـاعد تباعـا تصـاعدا طرديـا مـع الزيـادات العاليـة المتلاحقة فى الدخول التى تدفقت بغزارة فى أيدى أولئـك الـذين أشرنـا إليهم .. وهى أعمال (بما فيها الهامشية التـى لم يكـن للنـاس عهد بها من قبل حتى لو كانت غير مشروعة وربمـا غـير شريفة) مما أوجدته سياسة الانفتاح (الهيامونى) العشوائى الذى أشرنـا إلى بعض خصائصه وما جلبه من تحولات سلبية ... إن تلـك الـدخول المرتفعة المباغتة والتى اغترف منها (بغير حدود أو سـقف معلـوم) أولئك أو هؤلاء .. قد صاحبها بطبيعة الحال ارتفـاع متصـاعد فـى أسعار مختلـف السلع والخـدمات بمـا فيهـا تلـك التـى تلـزم إشـباع الحاجات الأساسية فى حيـاة النـاس اليوميـة .. الأمـر الـذى بـرزت معه أزمـة حقيقية ومشكلات معيشية واقعيـة لـدى ذوى الـدخول الثابتـة والمحدودة ومن بينهم أو فـى طليعـتهم الموظفـون الـذين لا دخل لهم غير مرتباتهم التى يتقاضونها من عملهم فـى وظائفهم (وقد كنت واحدا من هؤلاء) ...

وكان من الأمور الطريفة (التى تمثل مفارقة هزلية مريرة تكشف عن مدى العبثية التى وصلت إليها الأحوال بين الناس) أنه بعد أن صار معلوما للكافة أن أقل الدخول وأكثرها تدنيا وانحدارا ... هى دخول الموظفين — الذين هم تاريخيا .. قد ظلوا عشرات السنين فى رغد من العيش الوفير المزدهر الآمن .. يتمتعون بحياة مستقرة مريحة راضية — نقول إنه بعد أن داهمتهم الأحوال الجديدة .. فقد دأب بعض بائعى السمك فى فارسكور (حيث كنت أقيم) وهم ينادون أو يعلنون عن سلعتهم تلك داخل السوق اليومى لبيع السمك .. يجأرون بصوت عال عندما يشرعون فى بيع أدنى مستويات الأسماك حجما ونوعا (يسمونه .. السمك الشر — بتشديد الشين وكسرها -) يجأرون فى مناداتهم بقول: (سمك الموظفين وصل) ويا للهوان الذى أفضت إليه تلك الأوضاع .. وهى أوضاع مقلوبة .. غير طبيعية وغير عادلة نتيجة ما صنعت أيدى الناس وأيدى الدولة بتخليها عن دورها ومسئوليتها فى ضبط تلك الأوضاع المختلة وفى العمل على إيجاد حالة من التوازن النسبى لها .. كيف سمحت الحكومة أو الدولة أن تصل الأمور إلى ذلك الحد .. بل إلى ما هو أسوأ فى مجالات أخرى عديدة تتصل بالحياة اليومية لسائر جمهور المواطنين من الناس الكادحين ... إن هؤلاء الموظفين الذين يديرون شئون الدولة — على اختلاف مواقع مسئولياتهم وتباين الأعمال المنوطة بأى منهم — هؤلاء كانوا بالأمس القريب يمثلون شريحة من شرائح الصفوة فى المجتمع المصرى .. كانوا يمثلون نخبة أو طليعة فى مجتمعاتهم

المحلية – أدبيا وماديا – وكان رزقهم – المتمثل فى المرتب الشهرى المضمون المنتظم – يأتيهم رغدا بإذن الله .. أول كل شهر ولا يتخلف أبدا .. وإذا كانت تطورات الأوضاع التى جلبها الانفتاح قد أحدثت ذلك التفاوت الجسيم بين الدخل المتدنى الذى يحصل عليه الموظفون قياسا بدخول الشرائح الأخرى فى المجتمع خاصة تلك التى أفادت من موجة الانفتاح أو استغلت ذلك المناخ الجديد استغلالا شابه كثير من الأساليب غير المشروعة وغير الشريفة .. وإذا كانت تلك الوضعية الجديدة أكثر حدة فى سلبياتها لدى المجتمع الدمياطى للاعتبارات الخاصة التى أشرنا إليها آنفا ... فقد كانت سلبيات تلك الوضعية عامة على مستوى كافة محافظات مصر .. وكان على الحكومة أن توائم وتوازن (بكافة الآليات والوسائل التى لا تعدم التوصل إليها والعمل بها) .. توازن بصفة مستمرة بين تكاليف المعيشة ودخول السواد الأعظم من الأفراد .. وتلك المهمة وذلك النهج اللازم والمسئول فى إدارة شئون المجتمع .. هو من بين أسباب وعوامل الحفاظ على تماسك البناء الاجتماعى .. بل هو من دعامات الاستقرار السياسى ... غير أن الدولة لم تفلح بالفعل فى كبح جماح ذلك الانفتاح العشوائى المنفلت وما أعقبه وترتب عليه من توابع وآثار سلبية ... فكان ما كان من شيوع كثير من مظاهر الارتباك والخلل فى الأداء العام الذى أفرز عديدا من العاهات والتشوهات المجتمعية التى ظلت تزداد تفاقما .. ولا زال كثير من فئات المجتمع تعانى من آثارها العسيرة الممضة شديدة العنت والإيلام حتى الآن [خاصة ما ترتب عليها من خلل واضطراب فى القيم والمعايير الاجتماعية] ..

وبالرغم من كل ذلك فقد استطاع البعض ممن قست عليهم تلك الظروف .. أن يحتفظوا بقدر ملائم من التماسك ومن مقاومة عوامل الإنكسار أو السقوط .. وإن كلفهم ذلك التماسك وتلك المقاومة مقابلا هائلا وفادحا من وخزات عميقة نافذة من اللوعة والحسرة كانت (من حين لآخر) تنهش فى نفوسهم .. إلا أنهم فى النهاية تمكنوا من تجاوز تلك المشاق والصعاب وارتفعوا فوقها فى تجلد وفى صبر نبيل .. ومن خلال ذلك التسامى فى عملية ملاعبة شرور تلك المحن الحياتية المعيشية .. سعيا متصلا منهم فى تفادى مصارعها .. استطاع هؤلاء مع تلك الظروف الوعرة وبالرغم منها .. استطاعوا أن يتشبثوا بمواصلة الإقبال على الحياة وباقتناص أية فرصة متاحة أو يمكن إيجادها للإستمتاع بمباهج الحياة وطيباتها مهما كانت بسيطة متواضعة .. وفى ذلك تجسيد لانتصار إرادة الحياة لديهم ولتجدد صحوتها وتوهجها ...

الفصل الرابع
حكـــايات من بلـــدنا

المقصـود بالحكايـات هنـا .. أنهـا وقـائع (Events) تتصـل بأوضـاع وحـالات وشخصيات واقعيـة تمثـل جوانـب مـن نسـيج مكونات الخبرة الحياتية اليومية التى كانت تشكل ملامـح الواقـع الإجتماعى الذى عاشه كاتب هذه السطور داخـل بيئتـه الريفيـة التى نشأ بهـا فـى قريتـه (إسطنها/منوفيـة) علـى امتـداد سـنوات وعيه الباكر فى أوائل أربعينيات القرن الماضـى وربمـا قبيـل ذلـك فـــى أواخـــر الثلاثينيـــات .. ومـــا أعقـــب ذلـــك مـــن ســـنوات الخمسينيات...

فهـــذه الحكايـــات ليســـت قصصـــا أو (حواديـــت) (Tales/Stories) بالمعنى الفنى الذى يجعل أيا منها جنسا مـن أجناس الكتابة الأدبية بشروطها المعروفة .. ولكنها صور قلمية أو لوحات تعبيرية تحكى وتصور مـا يتصـل بوقـائع التقطهـا الكاتـب من بين غمار أحداث حياته التـى عاشـها فـى بلدتـه باعتبـار تلـك الوقـائع ذات دلالـة معينـة عنـد الكاتـب .. وقـد ظـل لهـا نبضـها المتجدد فى ذاكرته عن أحداث وأشخاص ارتبطت بهـا وبهـم تلـك الوقائع ... وعموما فإن قريتـى وكـل قريـة مصـرية تعـد بالفعـل منجما يضم مخزونا هائلا من التجارب والأحداث والشخصيات ... بوتقة ترسبت بداخلها طبقات من نضالات الحيـاة وأشـواقها ومـن

صراعاتها وشهواتها وأطماعها ... وأعتقد أن القرية المصرية لم تأخذ حتى الآن حقها الطبيعى من جوانب كثيرة .. ومن بين مظاهر ذلك التهميش عدم التنبه بالقدر الكافى إلى الاهتمام الجاد بقضايا القرية وبما هو متاح لديها من إمكانات وعطاءات حياتية يمكن استثمارها والإفادة منها ... ومن مجالات تفعيل ذلك .. العمل على الإغتراف من منهلها الخصيب بالنسبة لتجارب الإبداع لدى الأدباء والفنانين ...

والآن ننتقل إلى أن نتناول بالحديث بعضا من أحوال الحياة فى قريتنا إبان أربعينيات وخمسينيات القرن الماضى:

١- شاعر الربابة

الشاعر فى هذا السياق .. ليس ذلك الذى يتظم قصائد الشعر .. وقد يصدر عن إبداعاته فى مجال القريض ديوان أو أكثر ... إنما المقصود بالشاعر هنا .. أنه ذلك الشخص الذى احترف إنشاد أشعار (غالبا ما تكون بالعامية) تتصل بأبطال السير والملاحم الشعبية كتلك التى تحكى سيرة الهلالية ... أما عن شاعرنا الذى أود الحديث هنا عنه فهو ذلك الذى كان يُحيى بعض الاحتفالات الليلية فى قريتنا .. وقد عايشت بعضا منها خلال سنوات الأربعينيات من القرن الماضى ... وشاعر الربابة هذا كان يدعى (الشاعر فتحى) وهو من قرية لا تبعد كثيراً عن قريتنا ... وكان فارع الطول .. له سمت من المهابة والاتزان .. يلبس قفطانا وعمامة .. وتصاحبه فى حفلاته التى يحييها بطانة تضم ثلاثة أفراد .. يحمل كل منهم آلة من آلات الموسيقى الشعبية .. وتلك الجوقة أو الفرقة المعاونة للشاعر صاحب الربابة مهمتها أن عزفها

يساعد على أن يكون التطريب أو الغناء والإنشاد (الذى يؤديه الشاعر فتحى) حسنا يشجى السامعين .. وكان أحد هؤلاء العازفين الثلاثة يطلق عليه اسم (السفرتى) .. ومن مهامه بالإضافة إلى عملية العزف .. أنه يقدم فاصلا فكاهيا مرة أو مرتين فى الليلة أثناء استراحة الشاعر والعازفين .. وكان ذلك الفاصل الفكاهى يشتمل على بعض القفشات والدعابات اللفظية المازحة التى يضحك لها السامعون .. وكان ذلك (السفرتى) يلبس جلبابا من الخوخ أو الكشمير .. ويضع فوق رأسه طربوشا .. وكان رجلا ذا قبول وله حضور فى أدائه لمهمته الشيقة التى يعجب بها (السميعة) أيما إعجاب ... كان ذلك الاحتفال الجماهيرى الساهر يمثل شكلا من أشكال (الفُرجة) المحببة إلى أهل القرية .. وهو ما يمكن أن يطلق عليه (السامر) الذى كان يقام عادة بالقرب من منزل صاحب المناسبة السارة التى أقام من أجلها تلك الليلة الغنائية التى كانت تمتد إلى وقت متأخر من الليل قد يصل أحيانا إلى طلوع الفجر ... ليلة يحتشد لها كثير من أهل القرية (كما قد يأتى إليها بعض نفر من قرى مجاورة) والكل يسعدون ويبتهجون فى تلك الليلة ما وسعتهم السعادة والبهجة .. تمتلأ فيها جوانحهم رضا ونشوة وحبورا ... كما يحرص كل منهم فى تلك الليلة على أن تكون معه بعض من (التسالى) كاللب والفول السودانى والحمص .. فضلا عن احتساء بعض أكواب الشاى أو القرفة وربما بعض فناجين القهوة ... كل ذلك وسط ذلك السامر الحافل الذى تلفه أضواء باهرة ساطعة تنبعث من (كُلُبات) تنتشر فى أرجاء الساحة التى يُقام بها ذلك المهرجان الليلى ... وقبل كل

ذلـك وبعـده .. الاسـتمتاع أو (الانشـكاح) بسـماع ذلـك التطريـب الشجى الذى يزيد فى حلاوته وسحره فـى نفوسـهم مـا يصاحبه من أنغام عذبة تصدر عـن ربابـة الشاعر وعـن عـود (السفرتى) وعن إيقاعات حامل (الطبلة) و (شخللة) حامل (الرق) ... ثـم مـا يصاحب كل ذلك (من حين لآخـر) مـن آهـات وهتافـات الإعجـاب التى تصدر عن (السميعة).

أعود فأقول إنـه وسـط ذلـك السامر الحافل بكل عناصـره التـى تـوفر فـى مجموعها حالـة مـن جيشان مشاعر الفرحـة و (الزأططـة) ... يحـدث أن الحاضـرين مـن شـهود ذلـك الاحتفـال الساهر يُسلمون أنفسهم إلى حالـة مـن الانـدماج فـى تلـك النشوة الهانئة .. وكأنهم بتكثيفهم العميق لتلك اللحظة مـن ليـالى الأنـس يُغرقون فيها معاناتهم وشِقْوتهم التى علقت بهـم أو ترسـبت فـى دخائلهم من جراء خشونة الكفاح والكد اليـومى فـى تـوفير لقمـة العيش وفى صراع محاولات الإمساك بأسباب حياة أفضل ...

٢ـ ألوان أخرى من الاحتفالات الليلية ومن الترفيه بالقرية

(أ) الصييت:

كان من بين الاحتفالات الليلية التى تقام بقريتنـا .. تلـك التـى يحييهـا أحـد الصـييتة .. وهـو ذلـك الـذى يحـترف أداء الغنـاء لبعض المواويـل .. وعـادة مـا يكون صـاحب صـوت جهير حسن .. يصاحبه فى ذلك أحد العـازفين علـى الأرغـول وعـازف آخـر علـى المزمار البلدى ... وإذا كان شـاعر الربابـة وأعضاء فرقتـه يُحيـون ليلتهم جالسين فـوق منصـة خشبيـة تـتم إقامتهـا بأحـد جنبـات

المكان الذى يجرى بداخله الاحتفال.. فإن الصييت ومرافقيه من عازفي الأرغول والمزمار كانوا يؤدون المواويل وهم واقفين وسط الفضاء الذى يتحلق حوله (السمعية) المشاهدون للإحتفال .. وكان أشهر هؤلاء الصييتة رجل يُدعى (الشبينى) .. كان طويل القامة حسن الهيئة ذا رونق فى هندامه وملبسه الذى كان جلبابا بلديا فائق النظافة والجودة ... وفوق رأسه طاقية فاخرة وأحيانا (تكلت) من اللباد المصقول الأملس .. وكان الشبينى هذا له فى قريتنا معجبون كثيرون مفتونون بصوته الذى له سحر وله طلاوة خاصة فى أسماعهم .. فضلا عن (انشكاحهم) العميق بالمعانى التى تمتلئ بها كلمات مواويل الشبينى .. خاصة تلك التى كانت تعبر عن معاناة الحياة وأشجانها وعن كيد النساء ودهائهن الماكر و(لوَع) بعضهن فى جلب الشقاء لأزواجهن .. أما المعانى التى لها اتصال بالفراق والرحيل وما يلحق بذلك من معاناة الشعور بالبعاد عن الأهل والأحباب فكانت تطيش بثباتهم فيجأر كثير منهم بآهات صاخبة تنبعث من أعماقهم..

(ب) منشد إحياء الليالى الدينية:

كان الشيخ سليمان (المنشد الدينى) ذائع الصيت .. صاحب شهرة كاسحة لدى قريتنا والقرى المجاورة — إبان الأربعينيات والخمسينيات ... وكان ذلك الشيخ يعيش بقريته (ميت العطار) التى تقع فيما وراء النهر بالضفة الشرقية للنيل حيث تبعد عن قريتنا بضعة كيلومترات ... يتنقل الشيخ على مدار العام بين تلك القرى لإحياء ليالٍ دينية ذات طابع صوفى ... كان للشيخ

سليمان فى قريتنا أتباع ومريدون تتواتر دعوتهم له لإحياء الموالد بالإنشاد الدينى فى احتفاليات حاشدة يحضرها أعداد غفيرة من الأهالى يتجمعون ليلا فى أماكن ذات اتساع كبير إما بمناسبة ذكرى المولد النبوى الشريف .. أو ذكرى مولد أى من أصحاب الأضرحة بالقرية الذين يعتبرهم أهل القرية من أولياء الله الصالحين .. أو وفاء لنذر قطعه على نفسه أحد أهالى القرية الذى يتولى الإعداد للاحتفالية والإنفاق عليها فى أى وقت من السنة ... وكان الشيخ ينهض وحده — دون مرافقين أو مساعدين له — بإحياء الليلة التى تمتد لتشمل معظم ساعات الليل ... يُقدم خلالها وصلات أو فقرات من الإنشاد تتخللها استراحات قصيرة يتناول فيها مشروبات دافئة .. وقد كان للشيخ (لازمة) أثناء أدائه للإنشاد .. حيث كان يقرع بمسبحته (فى إيقاع متكرر رتيب) فوق مقبض عصاه التى كانت من معدن مصقول فضى اللون ..

وقد كانت لهذا الرجل شعبية كبيرة لدى الكثيرين فى قريتنا .. حتى أن بعضهم كان يتبرك به ويردد أن الله قد أفاء على ذلك الشيخ ببعض الكرامات والخوارق .. كما أن بعضهم كان يستفتيه فى بعض شئونه بل يستشيره فى أموره الأسرية خاصة ما يتصل منها بمشاكل الزيجات الحديثة وأمور الإنجاب الذى يتأخر عند البعض ...

(ج) السيرك الشعبى:

إبان سنوات الأربعينيات .. كان يهبط إلى قريتنا – من حين لأخر – أصحاب فرقة للسيرك الشعبى الذى كان أهل القرية يطلقون عليه اسم (التياترو) ... كانت تلك الفرقة تفد إلى قريتنا ويقيم أفرادها خيمة كبيرة هائلة فائقة الارتفاع داخلها عدد من الممثلين أشهرهم من يقوم بدور (البلياتشو) أو مهرج السيرك ... ومن بينهم أيضا عدد من الفتيات .. ويقوم أعضاء الفرقة أو بعضهم بتقديم بعض الفقرات (أو النمر) الفكاهية الهزلية كما يقدم بعضهم الآخر ألعاب (الأكروبات) ... وكان من بينهم أيضا من يقدم عروضا مثيرة وشيقة بملاعبة بعض القرود والفيلة وحيوانات أخرى ... وكان دخول خيمة العرض (التى كانت تقام فوق فضاء واسع بالقرية) لمشاهدة الفصول التمثيلية الهزلية أو ألعاب (الأكروبات) أو غير هذا وذاك من ملاعبة بعض الحيوانات ... كان الدخول مقابل بعض القروش الزهيدة (ربما مقابل قرشين أو ثلاثة قروش).

(د) البنورة المسحورة:

كان يأتى إلى قريتنا أحيانا (إبان السنوات الأخيرة من الأربعينيات) أصحاب أجهزة بدائية لعرض صور ذات ألوان مبهرة وألق بديع .. يتم تحريكها من خلف عدسات زجاجية سميكة ... وذلك الجهاز كان شيئا أشبه بالفانوس السحرى أو صندوق الدنيا .. وكان صاحب الجهاز يطلق عليه اسم (البنورة المسحورة) ..

وتتم مشاهدة الصور التى يجرى تحريكها يدويا لمن يرغب مقابل دفع قرش صاغ (تقريبا) بالجلوس إلى جوار الجهاز فوق كرسى خشبى صغير .. وكان الجهاز مثبتا فوق حامل .. وتوجد ستارة حمراء يتم إسدالها فوق رأس وأكتاف الزبون المشاهد للعرض الذى يستغرق بضع دقائق ... وكانت تلك التسلية المبتكرة شيئا ممتعا ومدهشا لدى كل الذين تتاح لهم مشاهدة تلك العروض ...

وهكذا كانت تلك الاحتفالات الليلية الغنائية والإنشادية وكذلك عروض الفرجة التى أشرنا إليها .. كان كل ذلك من الإمكانات والفرص المتاحة ببلدتنا للترفيه والترويح عن النفس فضلا عما يوجد فى بعضها من فائدة معرفية ويلحق بهذا الذى تحدثنا عنه (كطرائق للترويح والإستجمام) ... ما سبق أن أوضحناه فى الفصل الأول من هذا الكتاب بشأن بعض ألوان التسلية والترفيه فى الحياة اليومية بالقرية من ألعاب شعبية فردية وجماعية مثل (عسكر وحرامية) و(حُط الكُتيتة) و(الشمار فى العِب) و(السيجة) و(صلح) و(الكرة الشراب — سواء كرة المضرب أو كرة القدم) و(الحنجيلة) و(السباحة) أو بتعبير آخر حسب المسمى السائد فى القرية (العُوم) .. الذى كان يعد نشاطا أو هواية يستمتع بها الغلمان والشباب يوميا بالاستحمام فى الترع وفى بعض السواقى (المغنين) ... كان كل ذلك قبل انتشار المذياع (الراديو) وقبل ظهور التلفاز (التلفزيون) عام ١٩٦٠ وما تبع ذلك من انتشاره فى كل بيت وكل النوادى والمحلات ومختلف الأماكن العامة .. ثم ما لحق ذلك من قنوات فضائية متعددة ومن تقنيات تتيح استقبال البث المحلى والدولى للعديد من القنوات ..

هذا فضلا عن ظهور ثم انتشار أجهزة الحاسب الآلى (الكمبيوتر) وما يوفره من برمجيات وأقراص مدمجة (سيديهات) ومن الاطلاع على ما تتيحه شبكة الاتصالات الدولية (الإنترنت) .. بالاضافة إلى ما تتيحه شاشات أجهزة التليفون المحمول ... وكل هذا وذاك قد غمر على نطاق واسع مختلف أرجاء المجتمع المصرى بما فى ذلك كافة القرى والنجوع...

٣- من دفتر أحوال الحياة اليومية فى بلدتنا (بانوراما ريفية)

نتناول فى هذا السياق بعضا مما كان يمثل فى قريتنا خلال أربعينيات القرن الماضى .. العناصر والمكونات التى يتشكل منها نسيج حركة الحياة فى بلدتنا .. هذا ونشير بشئ من التفصيل والإيضاح إلى ما يتصل بطبيعة تلك العناصر والمكونات .. من حيث هويتها وخصائصها .. ومن ناحية دورها وتفاعلاتها وأثرها على توجهات الحياة بين الناس ...

ويهمنى فى هذا السياق .. التأكيد على أن لى قصدا متعمدا لذكر تفاصيل لها علاقة بأشياء صغيرة وبأشخاص يغلب على معظمهم أنهم بسطاء هامشيون يقومون بأداء أدوار محدودة نسبيا فى إشباع متطلبات الحياة بالقرية ... إن ما يؤدونه أو يقومون به لا يزيد كثيرا عن أنه يمثل فتات الحياة بما يشكّل ظلالها الكليلة المتهافتة .. وإيقاعها الخفيض .. ولكن تلك العناصر الحياتية تظل على تواضعها وبساطتها ذات دلالة .. تحقق وظيفة فى رسم ذلك المشهد الذى تنجلى فى مرآته وتحتشد بها .. تلك المرائى والأحوال الأثيرة إلى نفسى .. وإنها لكذلك فى إجمالها

بمحاسنها وعيوبها لأنها فى النهاية تمثل بعضا من معالم طريق رحلة العمر .. إنها قبسات من ديوان الحياة اليومية فى قريتنا ... صفحات من موسوعة الحياة فى مجتمع القرية إبان مرحلة من التاريخ الإجتماعى والحياتى عموما لدى واحدة من قرى دلتا النيل فى مصر ... أوقل إنها جدارية نحفر فوقها مجمل رموز حركة الحياة اليومية التى تمثل واقع القرية وما يرتبط بتلك الرموز من أدوار وفاعليات...

والآن ننتقل إلى تقديم نماذج مما حفل به ذلك العالم المجتمعى فى قريتنا إبان الفترة التى أشرنا إليها .. مع ملاحظة أن محور السرد فى تلك الوقائع والأحوال قائم على عدد من الشخصيات وما يرتبط بها من أدوار تؤديها داخل مجتمع القرية .. كما أننى فى تناولى لبعض تلك الشخصيات سوف ألقى الضوء على جوانب مختلفة من أبعادها باعتبارها حالات سلوكية غير نمطية أو اعتيادية .. هذا إلى جوار الحديث عن شخصيات ذات أدوار (روتينية) تتطلبها الحياة اليومية بالقرية ...

★ <u>دلال المساحة:</u> وهو ذلك الشخص المعتمد لدى أهالى القرية فى القيام بقياس الأراضى الزراعية أو أراضى المبانى .. سواء فى عمليات البيع والشراء أو فى عمليات تحديد المساحات المستحقة فى حالات تقسيم أنصبة الميراث .. وكانت القصبة (وهى عبارة عن عود طويل من الغاب البلدى يبلغ ثلاثة أمتار ونصف تقريبا .. وكان أشهر من احترف ذلك العمل (أبو يوسف) وشخص آخر يدعى (وِزوِر)

★ **القبـاني**: وهـو الشـخص المعتمـد للقيـام بعمليـة وزن المحاصـيل خاصـة أيـام الحصـاد .. مثـل وزن أكيـاس القطـن وزكائـب الغـلال والفـول والبرسـيم .. سـواء فـى حـالات البيـع والشـراء أو لتحديـد المقـادير المقـرر توريـدها للحكومـة حتـى يـتم تسـليمها للشـؤن العمومية أو لبيعها لأحد التجار .. أو لتحديد الكميات التى يرغـب المنـتج تخزينها للاستهلاك السنوى... ومن أشهر الـذين عملـوا فـى ذلك المجال: (عبيـدو – ورزق – وأبو حمام)

★ **الكاتب العمومى (العرضحالجى)**:

وقد كان يتولى تحريـر عقـود البيـع والشـراء بـين الأهـالى .. كما كان يحرر لأى منهم عند اللزوم الشكاوى التى تقدم إلى الجهات المسئولة .. كذلك قيامه بكتابـة المحـرَرات والنمـاذج الخاصـة التـى يلـزم اسـتيفاؤها فيمـا يخـص المسـتحقات المطلوبـة مـن الأهـالى كضرائب الأموال التى تسدد عن الأملاك فى مجال الأراضى .. ومن أشهر الذين عملوا فى ذلك المجال ... محمـد البـدوى الشهير بالشـتا (بتشـديد التـاء) .. وكـان رجلا ذا درايـة وخـبرة فـى حرفتـه تلـك التـى اتخذها (سبوبة) للاسترزاق و(أكل العيش) .. وكان الشتا هـذا من أصحاب الخطـوط الحسـنة الجميلـة التـى يـروق لأى شـخص أن يستمتع بالنظر إلى جمالياتها وتنسيقها البديع .. وكان من سماتـه وأحواله أنـه مفـرط فـى تـدخين السـجائر (اللـف غالبـا .. والمكنـة أحيانا) .. ويكتمل مزاجه لو كان مع تـدخين السيجارة كـوب مـن الشاى أو فنجان من القهوة يـتم تقديمـه إليـه مـن جانـب صـاحب الشأن الذى تجرى كتابة المحررات له ...

⋆ الإسكافى :

وتقوم حرفته على إصلاح وتجديد الأحذية و(الشباشب والقباقيب) (والبلغ) وكافة ما يلبس فى القدم ... وكان الإسكافى — بعد إتمام الإصلاح والترميم بالنسبة للأحذية والشباشب — يقوم عند اللازم أو حسب طلب الزبون صاحب (المداس) بدهان الحذاء أو الشبشب بالبوية والورنيش وإضافة تكلفة ذلك إلى قيمة الإصلاح .. وكان معظم هؤلاء الإسكافية يؤدون عملهم بجانب أى حائط فى أى من شوارع أو حوارى القرية وأزقتها .. ولم تكن هناك محلات أو دكاكين للإسكافية عدا دكانين فقط يعملان أساساً فى مجال تفصيل وبيع الأحذية الجديدة .. ومن أشهر الإسكافية فى بلدتنا إبان فترة الأربعينيات والخمسينيات .. إسكافيان .. وليست شهرة أى منهما قائمة على تميزه فى مجال عمله كإسكافى .. ولكن لتمتعه بمهارات نوعية تجعله مختلفا ومتفردا فى بعض خصائصه وسماته النفسية والأدائية فى مجال التعامل مع الآخرين بما يجعله مغايرا لما هو سائد لدى الآخرين من حوله بالقرية ... الأمر الذى جعل كلا منهما متمتعا بقبول قوى وشهرة أكيدة وتوضيح ذلك نجده فيما يلى:

(أ) معوض الإسكافى:

وقد كان هذا الرجل يتمتع باستعداد طبيعى للمرح والفكاهة .. كما كان يتحلى بميل فطرى للإقبال على الحياة وللتواصل مع الآخرين .. وإن كان ذلك التواصل يغلب عليه المشاكسة الطريفة أو ما يسمى (الهزار) وما يرتبط بذلك من

خصلة (بفتح الخاء) التهكم الرقيق أو (التأريئ) ... فما أن يجلس لأداء عمله منذ وقت الضحى كل يوم بجوار حائط بيت إبراهيم أبو زيد إلى جانب مقهى (أبو رية) وبالقرب من (منزل البلد) .. حتى يشرع (عم الشيخ معوض الذى يناهز الستين عاما) ... يشرع – مع انهماكه فى أداء عمله – فى إشاعة حالة من المرح و(الفرفشة) من حوله .. والدخول فى التحدث بصوت عال (مع من هم بالقرب منه ومع السائرين من أمامه بالطريق) .. حديثا يغشاه شئ من التفكه والتندر الساخر أحيانا والمازح أحيانا أخرى .. ويتصل به الحال هكذا فى حماس وفى تدفق تلقائى بالتاريئ و(جر الشكل) الظريف بقصد الضحك و(التهريج) خفيف الظل المحبب إلى كثير ممن يتواصل معهم فى مداخلات كلامية تمتد طوال فترة جلوسه اليومى للعمل بالشارع .... وأعتقد أن مثل ذلك النموذج من الناس .. لا نعدم وجوده – بصرف النظر عن ندرته النسبية – بين بعض طوائف أصحاب الحرف اليدوية فى الريف والحضر على السواء بما يفصح عن خفة الروح المصرية .. خاصة عند (أبناء البلد) ولدى البسطاء الظرفاء الذين تتجمل بهم الحياة اليومية بما يخفف عن الكادحين عناء السعى الموصول وراء أسباب الرزق للحصول على (لقمة العيش) ... إنها نفحات ينعم الله بها على العامة من الناس بما يجعلها بمثابة قطرات عذبة ناصعة تترقرق على وجه الحياة العابس (أحيانا على الأقل) .. ويالها من قطرات .. تلك التى تنزل بردا وسلاما على فضاءات الجدب القاحل فى حياة أصحاب البؤس والشقاء ..

فتخضل بها أزاهير يانعة بين صخور الحياة وأشواكها .. كأنها الدرر الشهباء تتوهج ألقاً باهراً وسط عتمات تغشى أيام المساكين من الناس حين تعاودهم تلك الظلال القاتمة لماما حتى عند الظهيرة فى (عز النهار) ... إن هذا الخير من المتاع الروحى الذى يأتيهم رغدا ... يسوقه الله إليهم بغير عناء .. تسعد به جوانحهم وتهنأ به نفوسهم ... فرحة خالصة من القلب .. لا تكدر صفوها شواغل القلق أو هموم صراع الطموحات ... إنه حبور عميق قد يحسدهم عليه كثير من الموسرين ومن وجهاء القوم وعليتهم ... ويمكن لذوى الفطنة وأصحاب التدبر أن يستخلصوا من تلك الأحوال فى حياة الناس ما يجسد شكلا من أشكال (التعادلية) بين البشر .. تلك التى يتحقق بها نوع من التوازن فى دنيا الناس ... ولله فى خلقه شئون ... أن يغدق سبحانه على بعض البسطاء والمساكين طاقة فطرية تتسامى بعناء الحياة ومشاقها إلى حالات من البهجة المتجددة دوما بين جوانحهم .. إنها بمثابة جذوة تتوهج شوقا موصولا إلى حب الحياة والفرح بالوجود.

(ب) حسين الإسكافى:

كان ذلك الإسكافى المدهش يجتاز (فى نهاية الأربعينيات) مرحلة ما بين الشباب والكهولة .. قامته أقرب إلى القصر منها إلى الطول .. كان جسمه مفرطحا تعلوه رأس كبير يغلب عليه الصلع .. كما يغلب على عينه اليسرى بعض الانقفال وقليل من (الحَوَل) .. تميل بشرته إلى السمرة الداكنة ... تذكرك هيئته العامة على إجمالها بمزيج يجمع شيئا من لينين (زعيم الثورة البلشفية فى

روسيا عام ١٩١٧) وشيئا من سارتر (فيلسوف الوجودية الأشهر إبان القرن العشرين) ...

فإذا تركنا لينين الروسى وسارتر الفرنسى وعدنا إلى حسين الإسطنهاوى ... وجدنا أن ذلك الرجل كان يمثل فى مخيلة العقل الجمعى عند أهل القرية صورة الإنسان (الحِدِق .. المجْدع) و(الفهّيم .. الفِتِك) .. واشتهر عنه بين معظم سكان القرية أنه محترف تقطيع الكلام حِكَم (بكسر الحاء وفتح الكاف) .. وامتدادا لمفهوم هذا المعنى الأخير .. فقد كان يروق للبعض أن يطلق عليه لقب فيلسوف (حسب المعنى الدارج الشائع لدى العوام عن التفلسف) ... لم يكن (حسين الإسكافى) يمتاز بمواهب خارقة أو بمستوى ذكاء مرتفع .. وإن كان لا يفتقر تماما إلى شيئ من تلك الخصائص .. حيث كان لديه بالفعل بعض من سمات الفطنة وبعض من المهارات الفطرية التى استثمرها فى سياق ذلك المستوى السائد لدى الملتفين حوله المنبهرين بطريقته غير النمطية أو غير التقليدية ... استثمر أو استغل تلك المعطيات الذاتية لديه ومن بينها تنبهه وإدراكه لحالة الإنبهار والإعجاب الشديد بطريقته لدى الكثيرين من جلسائه وجيرانه ... فطاب أو راق له أن يلعب ذلك الدور المتميز الذى يجعل منه نجما شعبيا يحوز على إعجاب هؤلاء ويقوم بإشباع وتلبية تلك الحاجة إلى الإنبهار لديهم .. وصار هذا الأمر ورقة رابحة يشد بها اهتمام وولع الآخرين من حوله .. أولئك الذين ساعد ما لديهم من التدنى والتواضع فى درجة وعيهم ومستوى بصيرتهم وفهمهم لطبيعة الأمور والأشياء ... ساعد ذلك على أن تنعقد لذلك

الإسكافى (الفهلوى الألعبان) تلك الكاريزما (Charisma) وذلك الانبهار والإعجاب ..

ومن الطريف أن ذلك الاسكافى كانت لديه (خِصلة) أو (لازمة) يصدر عنها أثناء حديثه ونقاشه مع المتواجدين حوله من صحبته ورفاقه .. سواء خلال أنهماكه فى أداء عمله أو فى مجالسه الخاصة معهم للمسامرة و(الدردشة) التى يتخللها احتساء أكواب الشاى أو فناجين القهوة مع تدخين السجائر حينا و(الشيشة أو الجوزة) أحيانا أخرى .. تلك (اللازمة) كانت .. أنه — من حين لآخر — عندما يحتشد لإلقاء عبارة يبلور بها معنى معينا يعتقد أنه خلاصة حكمة من الحكم تتصل بحال شخص من الأشخاص أو بشأن من شئون الحياة .. فإنه يلجأ فى أدائه لذلك إلى إطالة النظر وتركيزه فى جدية وفى اعتداد يشى بيقين قاطع لديه .. يفعل ذلك فى لفتة أو إطلالة (ممتدة بعض الوقت) إلى من هم حوله من الحاضرين الصعاليك ... أولئك الذين كانت تتخلل أحاديثهم (المازحة حينا .. الماجنة أحيانا) قفشات وتعليقات لا يخلو بعضها من شطحات وتجاوزات بها غير قليل من الألفاظ والعبارات السوقية الهابطة المحملة بكثير من الإسفاف والفجاجة .. وتلك الأساليب التى كانت تشيع بينهم فإنها رغم مروقها وبذاءتها إلا أنها صارت — من فرط تكرار تناولها — مألوفة لديهم لا يصدهم عنها حياء أو استهجان ... وكانت تلك اللقاءات أو(القعدات) يتردد بها — أيضا- كثير من السباب الفاحش أو الشتائم المقزعة التى يتقاذفونها فيما بينهم دون استنكاف أو

استياء .. مع كثرة الحَلف بالطلاق على نحو يكاد يعقب كل عبارة يتفوه بها الواحد منهم دون أى داع يتطلبه سياق الحديث.. والعجيب أن تلك الأنماط والنماذج السلوكية الجانحة المفارقة للعرف العام ولروح التدين التى هى سمة متأصلة لها جذورها فى نفوس أبناء المجتمعات الريفية على وجه الخصوص .. تلك الحالات التى تمثل شكلا من أشكال انحدار الحضيض فى قاع المجتمع والتى لا تعدو أن تكون بؤرا استثنائية فى جسم مجتمع القرية .. تلك النماذج والحالات كانت (ولا زالت بعض الشئ) تلقى عند البعض استهواءً وانبهاراً حتى أن هذا البعض من أهل القرية وبينهم نفر من المتعلمين وشاغلى المهن والوظائف ذات الإعتبار .. لا زال هؤلاء البعض يذكرون بكل الإعجاب والانبهار ذلك الإسكافى و(قعداته) وما خلفه من مآثر هى بالنسبة لهم تراث زاخر من الأنس والحكمة والألمعية ...

بل إن هؤلاء البعض فى قريتنا الذين لديهم ولع غريب واحتفاء كبير بمثل ذلك النموذج الذى تمثله حالة حسين الإسكافى ورفاقه (أو شِلَته) .. لا زال هؤلاء وأشباههم ممن يحذون حذوهم فى فهم وتمثل الأشياء والأمور .. لا يزالون يذكرون بكل الحسرة والأسى انقضاء أيام (الفرفشة) والإنسجام و(المفهومية) التى كانت توفرها (قعدة) أو(لَمة) أخرى أعقبت (قعدة) حسين الإسكافى واستمرت بعدها على امتداد سنوات متصلة حتى مطلع التسعينيات تقريبا .. وكانت تلك (القعدة) تمثل طقسا يوميا (اعتبارا من وقت العصارى .. وتمتد طويلا ربما إلى ما بعد منتصف الليل) وكان يحلو للحاضرين بها من روادها وندمائها

السهر و(السلطنة) واستعذاب شرب الشاى الأسود وتدخين المكيفات ولعب (الكوتشينة) واستمراء قول أى شئ دون تحفظ ودون مراعاة لقيود أو ضوابط من الأصول أو الواجب مع الاجتراء الفج على قول ألفاظ وعبارات مارقة تعد عيبا وحراما حسب ما هو معلوم عند عامة الناس ... تطوى الجالسين وتغشاهم حالة من (الصهللة) ومن (الإنشكاح) فى تبلد وخوَر ومن تفكك الإرادة الواعية المسئولة ... حالة أشبه أن تكون ما بين الواقع والوهم .. ما بين اليقظة والحلم ... أو كأن الواحد منهم قد استحال إلى شئ كالطحلب الذى يتسكع فى وخم فوق سطح مياه آسنه عَكِرة ...

وإننا بتناولنا هذا الحديث الذى نشير فيه إلى شكل من أشكال الحياة اليومية التى كانت سائدة فى قريتنا .. إنما أردنا به أن نرصد جانبا من الواقع الذى كان فى بلدتنا ... ولسنا معنيين هنا وفى هذا السياق باطلاق أحكام نُقيّم بها سلوكيات هذه الفئة أو تلك .. فمن حق هؤلاء أو غيرهم أن يختاروا من أساليب الفهم والسلوك ما يروق لهم وما يستريحون إليه دون وصاية من أحد .. غير أن هذا لا يتعارض مع حقنا وحق غيرنا فى قول إن الحياة اليومية فى قريتنا كانت – فى يوم من الأيام – تجرى على ذلك المنوال أو تلك الطريقة .. من خلال نماذج وحالات تتم الإشارة إليها وعن طريق رصد ووصف وقائع فعلية تتصل ببعض الظواهر اليومية التى كانت تشيع بين فئات من أهل القرية ...

كما أننا فيما ذكرناه بشأن ذلك النفر من أهل القرية الذين لديهم ولع وإعجاب بهذا النموذج السلوكى .. فإننا لا نحجر على أحد فى أن تكون له رؤيته الذاتية فى استحسان أى من الطرائق

والأساليب التى يرضى عنها ويتحمس لها كيف يشاء .. غير أن هذا لا يتنافى مع أن يظل من حقنا (ومن حق غيرنا) أن نبدى وجهة نظرنا بشأن صورة من صور التفكير .. وشكل من أشكال إدراك الأمور والأشياء عند البعض فى قريتنا كرصد أمين لواقع يتصل بحال من أحوال بلدتنا .. ومن ثم فإنه يبقى لنا (ولغيرنا) أن نقول كلمة فيما نراه بشأن ذلك النهج فى فهم الأمور وتمثلها ... حتى لو ذهبنا إلى قول إن ما ارتآه هؤلاء يمثل نوعا من اختلال معايير الحكم على الأشياء ونموذجا للاحتفاء بالتفاهة والسطحية .. وميلا إلى تكريس شكل من أشكال الخواء العقلى والإفلاس الروحى .. وحالة من الضياع بالاستنامة إلى تحلل الهمة وعجز الإرادة والقعود عن نشدان ما هو أوجب وأفضل ... وعموما فإن النفوس لا تتكون وهى تدمن أن تقفز وتلعب .. بل إن النفوس السوية الكريمة – التى تستحق شرف الحياة – هى تلك النفوس ذات الفاعلية .. المقبلة على الارتقاء بكيانها وبمجتمعها .. وهى التى تنتهج التوازن والجدية مع الإستمتاع بطيبات الحياة ومباهجها دون إفراط أو تفريط.

★ الأسطى كامل (متعدد المهارات)

عمل الأسطى كامل فى عديد من الحرف والأشغال التى كان أهل القرية يحتاجون إلى أدائها فى حياتهم اليومية ... وكانت حرفته الأولى التى أشتهر بأدائها .. القيام باصلاح وترميم (المواجير) الفخار التى تستخدم فى إعداد وتجهيز العجين لخبز أرغفة (العيش) وتلك المواجير أو الأوعية الفخارية كبيرة الحجم

كانت تمثل شيئا أساسيا لدى أى أسرة بالريف قبل أن توجد بالقرى المخابز العامة أو (الطابونات) ... ثم تفرغ الأسطى كامل بعد ذلك للاشتغال فى عملية إصلاح وتركيب (الأقفال والكوالين) ... وكان يشاهد فى الأربعينيات وهو يحمل صندوقا خشبيا صغيرا به الأدوات اللازمة للتركيب أو الاصلاح .. معلقا ذلك الصندوق فى رقبته بحيث يكون الصندوق مستقرا على خاصرته اليسرى .. ممسكا بيده اليمنى طوقا حديديا به عدد هائل من المفاتيح المتنوعة الأشكال والأحجام ... وكان الأسطى كامل يطوف فى شوارع القرية مرددا بصوت له نبرة رقيقة يغشاها شئ من الهمس الإنسيابى على نحو إنشادى لطيف .. مرددا عبارة يكررها من حين لآخر .. وكانت كلماته فى تلك العبارة هكذا (مفاتيح .. كوالين باب أعدل) .. وكان يطيب لنا نحن الأطفال والغلمان أن نستمع إلى ذلك الهتاف المحبب إلى أسماعنا لطلاوة نبرته الإنشادية التى يؤديها الأسطى كامل الذى كان رجلا سمحا بشوشا ودودا يتسم بالبراءة والنقاء .. لديه استعداد فطرى للتواصل الحميم مع الناس ولإشاعة البهجة والمرح مع من يتعامل معهم .. وكان يدخل فى مداعبات تتخللها ضحكات مع كثير ممن يصادفهم أثناء تجوله بالقرية .. وكان كامل هذا طويل القامة أسمر الوجه ضيق العينين لا يكاد المتحدث إليه يتبين شيئا عن تكوين أو تعبير عينيه .. ولا تعرف – وأنت تكلمه – إن كانت عيناه مفتوحتين أو مقفلتين .. وربما ساعد على ذلك أن رأسه لم يكن يثبت على حال .. بل كان رأسه يتجول فوق رقبته تباعا ذات اليمين وذات اليسار .. وأحيانا يشخص بناظريه إلى أعلى أو إلى امتداد الأفق

البعيد .. وكان كلامه يتدفق إلى سامعيه سلسا متهدجا هامسا دون أن يكون بصره موجها إلى أى منهم .. كان فى مشيته يتبختر دون خيلاء .. تلامس قدماه الأرض فى شئ من الرفق وبعض من التسرع والتدافع الذاتى كأنه (بكر) يافع من الإبل الفتية التى تنطلق من عقالها فى عفوية ومرح به تهدج شيق .. وقد اعتاد الأسطى كامل أن يلبس (صديريا) فوق قميص يمتد إلى منتصف ساقيه .. وأحيانا يلبس سروالا طويلا حتى قدميه .. وكان يضع فوق رأسه (طاقية) من الصوف البلدى .. وأحيانا يلبس مكانها (تكلت) من اللباد .. ومن مجموع الخصائص الفيزيقية (الجسمانية) للأسطى كامل مع أسلوبه فى الملبس وفى غطاء الرأس .. مضافا كل ذلك مع سماته ومكوناته الشخصية والمزاجية .. فإنه يتشكل من كافة عناصر تلك المنظومة نموذج من نماذج شخصية (ابن البلد)الظريف .. خفيف الظل .. الذى هو نتاج البيئة المصرية على تتابع القرون الأخيرة ... ربما منذ كان هناك (شُطار) وصعاليك و (حلنجية) بداية من حكم المماليك فى مصر ... وشخصية ابن البلد هذه إبداع مصرى قد لا نجد لها نظيرا لدى الأقطار الأخرى إلا ما يتماها معها أو يضاهيها بعض الشئ متمثلا فى شخصية (جحا) التى تتحدث عنها المأثورات الشعبية المأخوذة عن تراث إحدى ثقافات فصائل الأكراد ما بين شرق الأناضول فى تركيا حتى شمال ما بين النهرين بالعراق .. ونعود إلى استكمال الحديث عن الأسطى كامل .. فنقول إنه ربما تتضح ملامح شخصية ابن البلد عند ذلك الرجل – أكثر وأكثر – عندما نتابع الإشارة إلى مزيد مما اشتغل به من حرف وأعمال (هامشية فى

جوهرها) وكان له بصمته الخاصة وأداؤه المتميز فى كيفية القيام بتلك الأعمال ...ففى مرحلة لاحقة من حياة كامل (ربما فى الخمسينيات) صار متفرغا للقيام بعمل (بائع العرق سوس) .. فقد كان يملأ إبريقه المعدنى الضخم بشراب العرق سوس .. معلقا ذلك الإبريق فى وسطه وممسكا بيده اليمنى كأسا زجاجية مستطيلة .. وبيده اليسرى (صاجات) يحركها بين أصابعه لتصدر أصواتا ذات إيقاع له ترديدات متكررة هى من الإيقاعات النمطية عند بائعى العرق سوس يعلن بها السامعين عن حضوره بينهم ... كان كامل يجوب كثيرا من أنحاء القرية حاملا أبريقه فى وسطه ... وفى أيام حصاد القمح المقترنة عادة بارتفاع حرارة الجو فى الصيف .. وما يرتبط بذلك من زيادة رغبة الناس وحاجتهم إلى أن(يبل) الواحد منهم (ريقه) أو يروى عطشه بكوب مرطب من شراب العرق سوس .. كان الأسطى كامل(يهل) على زبائنه الراغبين فى تناول العرق سوس ... سواء فى شوارع القرية أو على المقاهى أوفى حقول حصاد القمح أو فى(أجران) درس الغلال ... حتى يجد الواحد منهم (كاملاً) قد اقدم عليه مردداً بصوت شجىّ هامس فيه كثير من الترقيق والعذوبة والإنسيابية .. منشداً العبارة التالية(شهد وخمير يا عرق سوس بالصلاة على النبى) ويظل هكذا(ساعات من النهار) يتقلب بين كثير من أهالى القرية نظير قروش يجمعها فى جيبه أو نظير مقابل عينىّ يتمثل فى(غُمر) أو(قتة) من حصاد القمح يجمعها من الفلاحين فى حقولهم أو فى(أجرانهم) .. حتى إذا ما تجمعت لدية كمية ملائمة من سنابل القمح فى أعوادها بما يشكل(جُرناً) صغيراً ..

قام بمعاونة أحد معارفه من الفلاحين بدَرْس القمح وتذرِيَته والحصول على كمية من حبوب الغلال التى يبيع ما يزيد عن حاجته منها كما يبيع كمية التبن الناتج من عملية التذرية ..

ومن الأعمال الأخرى التى كانت مما يُطلب إليه أو يُكلف للقيام بها – أحياناً – من جانب ضابط نقطة الشرطة بالقرية ... المناداة فى شوارع القرية(بتجرِيس) أى من اللصوص الذين يتم ضبطهم فى حوادث السرقة .. حيث كانت المسروقات توضع فوق عربة يد ويقوم أو يُؤمر اللص السارق(الحرامى) بدفع عربة اليد أمامه وعليها المسروقات .. فى الوقت الذى تكون فيه إحدى قدميه مربوطة بسلسلة من (جنزير) طويل ممسكاً بزمامه أحد جنود نقطة الشرطة الذى يكون ممتطياً حصانه .. ويمر الموكب بشوارع القرية على تلك الصورة لفضح و(تجريس) الحرامى السارق .. ويتخلل ذلك الموكب – الذى يضم كثيراً من الأهالى – فترات توقف أثناء السير فى شوارع القرية ... يقوم أثناءها الأسطى كامل بترديد نداء بصوت مرتفع على النحو التالى: (يا ناس يا أهالى البلد .. الحاضر يعلم (بمعنى يُخبر) الغايب .. الاستقامة عليها عمل) .. وكان الحرامى – من وقت لآخر – ينظر إلى كامل فى حنق وتوعد .. فيرد كامل (موجهاً كلامه إلى الحرامى السارق) بعبارة (أعمل إيه ياخويا .. الحكومة عايزة كده) ..

إن ذلك المشهد بكل عناصره وأبعاده .. يشكل صورة شعبية طريفة .. وإن كانت تنطوى على جوانب هزلية وأخرى

تراجيدية .. كما أن ذلك المشهد قد صار يمثل حالة فلكلورية فى نسيج منظومة الحياة الاجتماعية لهذه القرية .. يقف عندها اى باحث من أبنائها لديه شغف بالعكوف على دراسة واستقصاء بعض الظواهر والأنماط السلوكية التى حفلت بها حياة القرية فى سالف سنواتها منذ أكثر من نصف قرن .. كما أن ذلك المشهد يستدعى بعض المعانى والدلالات .. فهو من ناحية .. يصلح بمكوناته ومفرداته أن يكون مادة خصبة تروق لأى فنان تشكيلى .. سواء من ناحية رسامى الكاريكاتير .. أو من جانب مبدعى اللوحات الفنية .. خاصة تلك التى تعبر عن تصوير نماذج من الحياة الشعبية .. كتلك اللوحات الفاتنة الخلابة التى أبدعها فنان الاسكندرية الشهير (محمود سعيد) ... كما أنه من بين الدلالات ذات الطابع الفلسفى التى يمكن أن ينطوى عليها ذلك المشهد ... أنه يوحى بما يجسد حالة من حالات البؤس والشقاء التى تصادف الإنسان فى حياته الدنيا أو التى يضع فيها نفسه تحت قهر ظروف مهما كانت قوتها فإنه يظل مسئولا عن اختياره بإرادته الحرة عن ذلك البديل بعينه من بين بدائل أخرى .. ويتمثل ذلك هنا من خلال ما جاء بالمشهد المشار إليه الذى كان نتيجة تورط اللص السارق — فى لحظة ضعف بشرى أو خور فى إرادته الواعية المسئولة — فى اقتراف واقعة السرقة وما جره ذلك عليه من محنة افتضاح أمره وتعرية وكشف سوء عمله على ذلك النحو العلنى أمام أهالى القرية .. وما قد يستتبع ذلك أيضا من إثارة مشاعر الشفقة على ذلك اللص من جراء ما حاق به من مآل تعس تمثل

فى ذلك الحال المزرى الذى يفقده الاعتبار أمام جمهرة الناس من أبناء بلدته وإن كان مستحقا لذلك نتيجة ظلمه لنفسه ..

أما الأمر الأخير الذى نكتفى بذكره فى هذا السياق عن نوادر الأسطى كامل الطريفة التى لا زال بعض أهالى القرية يسترجعونها أحيانا للتفكه .. ومن بينها ما يلى:

كان لكامل أخت متزوجة بأحد الفلاحين من القرية ..

وفى أحد الأيام – أواخر الأربعينيات – علم كامل أن جاموسة زوج أخته قد سقطت فى الساقية (أى داخل بئر مياه الساقية) فبادر على الفور بالمناداة على ابنه موجها إليه العبارة التالية: (الحبل والسكينة يا ولد .. جاموسة جوز عمتك وقعت فى الساقية .. لرُبّطن يتّضَى الأضا) .. وتلك الدفقات الكلامية على هذا النحو الموجز المكثف الذى هو نوع من الإبداع الفطرى الدارج المرتجل وفحواه هنا: (يا ولد أحضِر حَبْلا لاستخدامه فى رفع الجاموسة التى سقطت فى بئر الساقية .. ومع الحبل سكين لاستخدامه فى ذبح الجاموسة فى مكانها بالبئر إذا تعذر رفعها وذلك للاستفادة بلحمها قبل أن تتعرض للموت (تفطس) ويحل بها قضاء الله وتهلك) ... نعود فنقول إن تلك الدفقات الكلامية التى نطق بها كامل بالكيفية التى جاءت عليها ومن خلال طريقته الخاصة المتميزة فى الأداء اللفظى عند نطقه للكلمات حسب ما سبقت الإشارة إليه – بصرف النظر عن المصير الفعلى الذى انتهت إليه واقعة سقوط الجاموسة فى بئر الساقية – فإن الذى نود أن نستخلصه ونؤكد عليه بالنسبة لذلك الأمر هو ما

كان يتحلى به ذلك الرجل البسيط الظريف من سجية روح النجدة والمبادرة التلقائية الفورية للمشاركة فى أى عمل جماعى لدفع الضرر المترتب على ما قد تسببه مخاطر الحياة اليومية .. أما عن الجانب الفكاهى الذى جعل من كلمات الأسطى كامل إلى ابنه حول محاولة إنقاذ الجاموسة نادرة يستملحها حتى الآن بعض أهالى القرية ويروق لأى منهم أن يرددها من جديد .. هو ذلك النموذج الشيق للأداء البسيط المحبب الذى يصدر عن ذلك الاستعداد الفطرى العفوى التلقائى لدى الأسطى كامل مما يجعل من تلك الكلمات البسيطة حين ينطقها هو بطريقته الخاصة .. كأنه يصدح بأنشودة شجية على نحو يطيب للسامع أن يستزيد منها طويلا ... أداء يصبح له سحره ورواؤه بل وطلاوته .. زاخر بإمكانات إثارة الدهشة العذبة لدى السامعين .. إنها بمثابة فرائد تتدفق متوهجة ناصعة من أعماق أولئك البسطاء الطيبين .. وإنها لكذلك لأن لها نقاءها الخالص .. ولها عذريتها العبقرية .. ولها صفاء لا تشوبه حسابات هواجس تغشاها الأطماع والأهواء ... وهكذا كان الأسطى كامل أحد صناع البهجة فى قريتنا.

★ **المشتولى بائع الفاكهة:**

كان هذا الرجل نموذجا للإنسان البسيط من عوام الناس الذى يستطيع أن يصنع من أسلوبه وطريقته فى أداء عمله الذى يتكسب منه رزقه اليومى .. يصنع من ذلك – بخفة دم ابن البلد الظريف – إبداعا (فلكلوريا) أو شعبيا ... كان المشتولى نجما يحوز على محبة وقبول مجتمع القرية على امتداد سنوات عديدة

متصلة حتى آخر عهده بالحياة .. وذلك نظرا لما كان يتمتع به من روح التفاؤل والمرح والبشاشة ومن نزوع فطرى إلى حب الناس والحياة .. فضلا عن طيبته وأمانته وعن تحلّيه بروح شفافة عذبة وبصوت حسن يرفع به عقيرته الجهيرة حين ينشد ويتغنى بكلمات وعبارات شيقة حلوة لترويج ما يبيعه ولجذب وتحبيب الزبائن فى بضاعته التى بين يديه من عنب وبلح أو من بطيخ وشمام .. وأحيانا كان يبيع أنواعا جيدة من القصب أو (السرتة) والقثاء وخضروات أخرى كالطماطم والكوسة والقرنبيط .. وقد كان يقوم بذلك الإنشاد والتغنى سواء عند مكان تواجده الأثير إليه غالب أيام الأسبوع بجوار حائط منزل الشيخ عبد العزيز جمعة فى مواجهة أول شارع الخياطين ... أو حالة تجوله (أحيانا) فى أنحاء القرية دافعا أمامه عربة يد خشبية عليها ما يبيع من فاكهة أو خضروات ...

وهكذا كان المشتولى تعبيرا عن نموذج أو فصيل من الناس يتحلى الواحد منهم باستعداد فطرى يجعله متحليا بمهارة اجتماعية تقوم على روح الود والتواصل الجيد مع الآخرين .. وإن انطوت دخيلة بعض من هؤلاء الناس على شئ من الدهاء بل والمكر أحيانا فى بعض المواقف باعتبار ذلك آلية أو حيلة عملية لصيانة الذات وللحفاظ على الكيان الشخصى قعلى ما يعود بالنفع عند اللزوم .. وإن ظل السمت العام لشخصية أى من هؤلاء معبرا عن طهارة القلب ونقاء السريرة .. وسوف يبقى هؤلاء الناس وأمثالهم من ذوى السجايا التى تنطوى على شمائل الطيبة والتعاطف والنبل .. سوف يبقى أولئك وهؤلاء بمثابة الجداول

العذبة الرقراقة التى تزدان شطآنها بالزنابق والرياحين المخضلة بالأنداء الناصعة يتضوّع منها أريج عطرى طيب الشذى .. بما يجعل هذا من أسباب بهجة الأيام ورواء الحياة التى تقفر حينا وتصير موحشة أحيانا.

★ رجب .. ماسح الأحذية:

فى الأربعينيات .. كان فى قريتنا رجل يطلق عليه الناس (رجب بتاع الورنيش) ... كان ذلك الرجل نموذجا للإنسان الذى ارتضى لنفسه البؤس والضياع ... كان فى غالب أحواله (بوهيميا) سكيرا .. ربما لإدمانه شرب الكحول أو تعاطى بعض أنواع المخدرات .. فضلا عن تدخين السجائر التى تلازمه معظم أوقاته وإن كانت من الأصناف ذات المستوى الردئ .. سواء أعقاب أو بقايا سجاير يقوم بجمعها وتزدحم بها جيوبه أو سيجارة من الدخان (الفَرط) الذى يقوم بوضع قليل منه داخل ورقة من دفتر (البفرة) ويعد لنفسه بذلك سيجارة وكنا — ونحن غلمان إبان منتصف الأربعينيات — نشاهد ذلك الرجل أحيانا وهو مُكوَّم فى حالة مزرية بجوار حائط أحد منازل القرية وقد بدى من هيئته أوصال جسده النحيل وشعر رأسه الأشعث وملابسه الرثة المتسخة ... يكابد نوبات متكررة من السعال الذى تصاحبه حشرجات واختناقات من ضيق التنفس مع دمعات تتفتر عن عينين يغشاهما احمرار ويعلوهما تغضن وانتفاخ ... يتكئ بأحد جنبيه على صندوق خشبى صغير مثبت به على الجانبين عدد من الزجاجات المعبأة (بالبُوية) التى تستخدم فى دهان الأحذية ..

كما يوجد فى أسفل أحد جنبى الصندوق درج به علب الورنيش .. ودرج آخر به فرشتان .. إحداهما لدهان الحذاء بالبوية والأخرى للتلميع ... ولا ندرى على وجه التحديد هل كانت القروش التى تأتى إلى ذلك الرجل البائس الظالم لنفسه .. هل كانت تأتيه من ناتج عمل يقوم به فى مسح بعض الأحذية عندما تواتيه حالة إفاقة من ذهوله ومن تشتت وعيه على نحو يقارب الغيبوبة ... أم أن تلك القروش الزهيدة تسقط عليه من بعض المحسنين من المارة الذين ترق قلوبهم لحاله فيشفقون عليه ويلقون إليه ببعض الصدقات ...

إنها حالة من الهوان والضياع اختارها (رجب) لنفسه ... يزج بها فى ذلك العالم السفلى من حضيض الحياة فى قاع المجتمع .. بما جعله يسيئ إلى ذاته ويظلم زوجته وأبناءه الذين تلزمه مسئولية رعايتهم والإنفاق عليهم ..

وأعتقد أنه مراعاة لدواعى الإنصاف والتماسا لشئ من النهج الواقعى فى تناول الأمور .. أرى أنه قد يكون من حق ذلك الرجل ماسح الأحذية وأنا أتناول هنا قصته تلك التى انقضى عليها عشرات السنين أن يكون هناك فى فهم وتحليل وضعيته تلك رؤية أبعد وأعمق مما ذهبنا إليه فيما يتصل بمسئوليته الذاتية عن محنة وجوده الإجتماعى التى أشرنا إلى بعض جوانبها آنفا .. أقول إنه قد يكون من حق الرجل علينا أن نشفق عليه ولا نهدر حقه فى طرح احتمالات تدخل فى حيز الإمكان بما يكون قد أسهم فى الإنتهاء به إلى الحال الذى صار إليه من هوان وضياع ... فربما كان من بين عوامل محنته .. زوجة نكدية خشنة

الطباع مضطربة التفكير على نحو يتجاوز طاقته على استيعاب جنوحها وترويض شراستها .. وربما كانت الظروف والإمكانات المتاحة لواقع مادى واجتماعى شديد التدنى بالغ الصعوبة .. من كثرة أبناء وضيق مأوى وتهافت أسباب الرزق ومن بيئة حضيضية تفتقر إلى أية مقومات للنظافة والصحة .. فضلا عما يفضى إليه مجمل تلك الأحوال من تآكل إرادة الوعى باحترام الذات ومن غياب ما يساعد على التمسك بأى مستوى للاعتبار الإجتماعى فينشأ عن ذلك أن يحدث داخله تحلل ذاتى يجعله خائر الوعى بذاته وبإرادته ... فلا يألو على شئ ولا يكترث بأى شئ .. ويصير كل شئ لديه مثل اى شئ ... إن حالة الخواء هذه التى تكون قد ضربت أطنابها فى كيانه الداخلى .. تهبط به إلى تدهور جسيم فى وعيه بما حوله وبمن حوله .. فيخامره شعور سلبى بتفكك الأشياء والموجودات واستحالتها إلى سديم عدمى لا يهمه ولا يعنيه فى شئ ...

مرة أخرى نعود إلى إلقاء مزيد من الضوء على وضعية ذلك الرجل وإلى تقليب حاله (الذى كان قد صار إليه) على مختلف جوانبه وأبعاده .. وإلى طرح بعض من الرؤى ومن زوايا النظر التى تفسر أو تحدد مفهوما يتصل بذلك الشأن .. فقد يرى البعض (من وجهة النظر الإجتماعية أو القانونية) أن رجلا هذا شأنه وتلك حالته .. فهو مستهتر وغير مبال .. أو هو مارق جانح .. وقد يرى آخرون – من المنظور الدينى – أنه ضال أو هو بالجملة مخطئ مسيئ إلى نفسه وإلى أسرته .. ومن ناحية ثالثة ..

فقد يرى فريق (من منظور إنسانى) أنه ضحية ظروف وأحوال تفوق إرادته وتتجاوز قدرته على الإختيار والمفاضلة ...

ونخلص إلى أن الأمر قد يكون صحيحا على أى من تلك الوجوه .. وقد يكون محصلة تفاعل بعض من تلك العوامل على اختلاف بواعثها وعلى تباين مسئولية صاحبها عن أى منها .. بل وربما مسئولية المجتمع عموما والدولة خصوصا عن تدبير آليات للتكافل الإجتماعى بما يوفر حدا أدنى – على الأقل – لحياة كريمة لائقة لأى من الناس على أرض الوطن وذلك واجب أخلاقى وإنسانى قبل أن يكون التزاما دستوريا فى عنق أى حكومة من الحكومات.

وأخيرا .. وفى ختام هذا الموضوع من موضوعات الكتاب .. أقول إن تلك النماذج من البشر وكذا غيرها من مثيلاتها .. كانت وستبقى فى ثنايا أى من المجتمعات فى الريف أو فى الحضر أو لدى أى جماعة من الناس .. تؤكدها حقائق علم الإحصاء .. شاهدة دوما على وجود بعض الانعطافات الحادة للخطوط البيانية الإحصائية التى تقيس أيا من أحوال البشر وتعبر عما يعتور حركة الحياة البشرية فى سعيها إلى السواء وفى تشوقها إلى حالة من الكمال ... وستظل تلك المساحة من عدم السواء (Abnormality) – قلت أو كثرت – مكونا له وجوده فى بنية التركيب الإجتماعى لأى جماعة بشرية ... ولو جاءت الأمور على غير ذلك .. وخلت الدنيا من مثل تلك البثور والدمامات لألفينا أنفسنا أمام مشهد فى عالم غير واقعى حسب ما اعتاد

الناس أن يروا مجمل أحوالهم عليه فى عالم بشرى هو فى البداية والنهاية محصلة ما اكتسبوا وما صنعته أيديهم ..

★ البوسطجي:

كان فى قريتنا – منذ سنوات بعيدة – مكتب بريد يديره ويقوم على شئونه موظف مسئول يُعرف بأنه (وكيل البوسطة) .. ولم يكن هناك فى الأربعينيات وما بعدها بسنوات طويلة موزع مسئول تابع لمكتب البريد يتولى توزيع الخطابات المرسلة إلى أى من أهالى القرية .. ولكن كان هناك عامل متطوع للتوزيع .. يستلم الخطابات من الوكيل ويقوم بتسليمها لأصحابها .. وكان ذلك العامل (ويُدعى توفيق) يقوم أيضا بنفس العمل المرتبط بالخطابات بالنسبة للبرقيات التلغرافية التى ترِد إلى (كابينة) التليفون العمومى الملحقة بعمل مكتب البريد ... كان (توفيق البوسطجى) يؤدى أيا من تلك الأعمال المتصلة بالخطابات أو بالبرقيات نظير مقابل يتبرع به البعض من الأهالى فى صورة مبلغ نقدى زهيد أو (كوز ذرة) أو (رغيف عيش) معه شئ من (الغموس) مثل قطعة جبنة (قريش) أو غير ذلك .. وكان ذلك البوسطجى يقوم بالطواف يوميا فى أنحاء القرية للقيام بذلك الدور الذى أولاه إياه مكتب البريد ثقة فى أمانة ذلك العامل المتطوع والتزامه الذى ثبت عمليا من واقع أدائه لعمله ...

وكان توفيق البوسطجى شخصا فى منتصف العمر .. يميل إلى القصر .. ضعيف البصر حتى أنه يضطر إلى تقريب مظروف الخطاب إلى جوار عَينيه لكى يتمكن من قراءة اسم المرسل إليه

الخطاب .. وكان أثناء تجواله بالقرية يحمل فى يده اليمنى كيسًا من قماش سميك بداخله الخطابات التى يقوم بتوزيعها .. ويعلق فى ذراعه اليسرى سلة من شرائح البوص (سبت) يضع بداخله ما يُعطى له من أشياء عينية يتلقاها من البعض (بقشيش) ... وكان توفيق هذا عندما (يهل) أو يبدو متوجها إلى أى من أهالى القرية ... فقد كان ذلك بشيرا بقدوم الخير ومن دواعى تحقق البهجة ...

ذلك لأن البوسطجى – غالبا وفى معظم الأحيان – يحمل بين يديه (عطر الأحباب) من الأقارب والأصدقاء فيما تأتى به خطاباتهم من أخبار وحكايات سارة وهانئة طلية .. وما تحتويه برقياتهم من أخبار مفرحة ومن التهانى فى مناسبات سعيدة ..

وهكذا ظل ذلك الرجل الطيب الودود (توفيق البوسطجى) على امتداد سنوات طويلة (ربما تزيد عن ثلاثين عاما) .. ظل يمثل نموذجا أثيرا لمفردات الحياة اليومية بالنسبة لكثير من أهالى القرية .. يذكرونه بالخير فى حذب وفى تعاطف إنسانى شيق نظرا لأمانته وأدبه وإخلاصه ..

وبهذا .. كان توفيق البوسطجى واحدا من أصدقاء الحياة فى قريتنا.

★ أصحاب حرف وأعمال أخرى:

نتناول فى هذه الفقرة مجرد الإشارة الموجزة إلى بقية غالب أصحاب الحرف (أرباب الاعمال الحرة) وكذلك مسئولى العمل الحكومى بالقرية ... تلك الحرف والأعمال التى كانت قائمة وتؤدى دورا فى منظومة الحياة اليومية وتعمل على سد وإشباع

حاجات يلزم الوفاء بها إبان الاربعينيات .. وقد انقرض كثير من تلك الحرف وبعض من تلك الأعمال وتلاشى دور كل منها .. أما بعضها الآخر فقد تواصل دورها واستمر القيام بها حتى الآن .. وإن تم تطوير أداء ذلك النوع من الحرف والأعمال (الحرة والرسمية الحكومية) ...

ونوضح كل ذلك على النحو التالى:

نجار السواقى والطبالى — الحداد — السمكرى — مبيض النحاس — بائع الحبوب والبقول — أصحاب محلات البقالة والعطارة — الجزارون — بائعو الخضراوات والفاكهة — الطعمجية — بائعو الترمس — بائع الليمون — تجار وسماسرة المواشى والدواب — تجار الأقطان — المدراوى (الذى يقوم بتذرية أجران القمح) — الحصرية (الذين يقومون بتصنيع وبيع الحصائر) — منادى القرية (الذى ينادى بصوته المباشر دون مكبر صوت ويطوف فى أنحاء القرية للمناداة على أمر يهم عموم الأهالى) — المسحراتى — القهوجية (أصحاب المقاهى) — العجلاتى (الذى يقوم بتأجير وإصلاح الدراجات) — أصحاب محلات بيع الكسب — بائع الأشغال الفخارية (مثل البرابخ — قواديس السواقى — الأباريق — الطواجن — المتارد التى تحلب فيها الماشية — المناقد والشوالى) — بائعو البطاطا (المسلوقة والمشوية) ومعها قوالب الملبن بالسكر البودرة والفسيخ والسردين مقابل بعض من كيزان الذرة خاصة

أيام الحصاد—المنجد — المراجيحى— المشناتى (الذى يقوم بتصنيع وبيع المشنات التى هى أوعية مفرطحة متسعة الفوهة تصنع من فروع وسيقان نبات الحناء وكانت تلك المشنات تستخدم فى الأساس لحفظ أرغفة الخبز .. كما كان المشناتى يقوم بتصنيع القفاعات التى تستخدم فى تربية الكتاكيت — الجمالون (كان الواحد منهم متفرغا للعمل بالأجر فى نقل أى من المحاصيل الزراعية أو غيرها من المهمات والأمتعة التى يلزم نقلها فضلا عن هودج نقل العروسة من بيت أهلها إلى بيت العريس .. كل ذلك بواسطة جمل يملكه ويقوم بالعمل عليه أى من الجمالين — البنائون — الحمالون (الشيالون) .. كان الحمال أو الشيال يستدعى من جانب أحد التجار لتحميل أو تنزيل شحنات سيارات النقل أو العربات الكارو التى تنقل أكياس القطن أو أجولة الحبوب والأسمدة أو بضاعة البقالين .. كما كان البعض الآخر من الشيالين يقوم بحمل أمتعة أو حقائب بعض الأفراد من أهالى القرية إلى محطة السكة الحديد أو منها — مقرؤوا القرآن الكريم فى المنازل وفى المناسبات الدينية والاجتماعية وفى المآتم — خطباء الجمعة (وكان معظمهم من المدرسين بالتعليم الأولى ويؤدون ذلك العمل تطوعا كما كانوا يؤمون الناس فى صلاة العيد مع أداء خطبة العيد فى بعض الأماكن المتسعة بالقرية خارج المساجد) — أصحاب الكتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم مبادئ القراءة والكتابة — اللحاد (الذى يقوم بتغسيل ودفن الموتى) — القابلة (الداية)

وكانت تستدعى عند اللزوم لتوليد السيدات الحوامل كما كانت تتولى ختان البنات (أما ختان الذكور فكان يتولاه الحلاقون المشاهير الأكفاء)...

موظفو وعمال المجلس القروى — مسئولو الأمن بالقرية (ضابط نقطة الشرطة والعساكر والخفراء وعمدة القرية) — طبيب وكاتب مكتب الصحة — طبيب مستشفى الوحدة المجمعة ومعه الممرضات والتمرجية والمساعدون من الفنيين والكتبة والعمال — رئيس وحدة الشئون الاجتماعية ومساعدوه — الخُوجات (جمع خُوجة) وهم (مدرسو التعليم الأولى أو الإلزامى) — الأستاذ عياد (الذى كان قائما (طوال عشرات السنين) على شئون مدرسة الأمريكانى الابتدائية الخاصة التى تحولت تحت إشرافه وإدارته أيضا إلى المدرسة الإنجيلية الإعدادية) — الأستاذ عطية (الذى كان قائما على إدارة مشروع المدرسة الأهلية الليلية بمقر نادى المعلمين بالقرية للحصول على الشهادة الابتدائية القديمة التى كانت تؤهل للتوظف بالدرجة التاسعة الكتابية لدى أى من دواوين الحكومة أو للالتحاق بالكتاب العسكرى لدى الجيش .. وذلك بالنسبة لكبار السن الذين صار معظمهم محضرين بالمحاكم أو تطوعوا لدى القوات المسلحة .. أما صغار السن فقد التحق كثير منهم — بعد الحصول على الشهادة الابتدائية — بالسنة الأولى من التعليم الثانوى ثم تابعوا دراستهم بالجامعة) — أصحاب المدرسة الخيرية الابتدائية الخاصة .. التى

ساهمت هى الأخرى فى تخريج أفواج متعاقبة (إبان الاربعينيات وأوائل الخمسينيات) من حملة الشهادة الابتدائية وقد واصل بعض تلاميذها الدراسة بالتعليم الثانوى ثم الجامعى وصار نفر منهم مدرسين وأطباء – صراف القرية (مندوب الضرائب العقارية لتحصيل رسوم الأموال على الأراضى الزراعية .. وكان مكتبه بمقر عمودية القرية .. وأشهر من قام بهذا العمل طوال الأربعينيات وأوائل الخمسينيات هو إبراهيم أفندى الذى كان يرتدى وهو فى عمله طربوشا وجلبابا من الكشمير) – مأذون القرية (وكان أشهر من قام بهذا العمل على امتداد سنوات متصلة حتى سبعينيات القرن الماضى هو الشيخ عبد العزيز فرج القططى) – ناظر محطة السكة الحديدية ومعه عامل (أو خفير المزلقان – أمين شونة الغلال – أمين مخزن الأسمدة الكيماوية – مسئولو المذبح العمومى (السلخانة) – خفير القناطر – معاون الزراعة (وكان من أشهر الذين قاموا بهذا العمل .. أدهم ومن بعده عباس).

خلاصة وتعقيب:

تضمنت الفقرة السابقة وما قبلها من فقرات فى هذا الفصل من الكتاب حصرا أومسحا لعدد متنوع من الحرف والمهن ومن الأعمال الرسمية الحكومية والأهلية التى تغطى النشاط اليومى المتصل بحركة الحياة فى قريتنا حسب ما كان سائدا فى

أربعينيات القرن الماضى وما تبع ذلك من سنوات ... وأرى أنه يجدر بنا الإشارة فى هذا السياق إلى أمرين:

أولا: إذا كنا قد تحدثنا عن ألوان مختلفة من الأنشطة التى تبين شكل الحياة اليومية وما يلزمها من أدوار تقوم على إشباع احتياجات تتطلبها حياة الناس بالقرية إبان تلك السنوات منذ نيف وستين عاما ... فإنه من الطبيعى ومن تقرير الأمر الواقع أن نؤكد على أن النشاط الأساسى الذى كان يعمل فيه غالب أهل القرية هو فلاحة الأرض الزراعية وما يرتبط بذلك أو يتفرع عنه من أعمال ... غير أنه قد تقلص عدد القائمين بهذا العمل تدريجيا نتيجة لعوامل وأسباب اقتصادية واجتماعية وديمجرافية (سكانية) وأخرى تتصل بأسباب تعليمية معرفية فضلا عن الموجات المتزايدة المتعاقبة من التوجه للعمل بدول النفط خاصة الخليجية بل ببعض دول أوربا وأمريكا واستراليا ... الأمر الذى ترتب عليه أن وصل عدد هؤلاء العاملين فى المجال الزراعى حاليا (عام ٢٠٠٨) إلى أقل من نصف عدد سكان القرية.

ثانيا: أفضت التغيرات والتحولات التى حدثت – خلال العقود الأخيرة – فى الريف المصرى عموما وفى قريتنا على وجه الخصوص نتيجة لظروف نوعية لها خصوصيتها .. أفضى ذلك إلى أن مستويات ونوعية الحرف والأعمال وكافة الأنشطة المتواضعة والهامشية فى معظمها والتى كانت سائدة فى قريتنا وتحدثنا عنها وأشرنا إلى مسمياتها ومجالاتها كما أوضحنا فى الفقرات السابقة .. تلك الأعمال والأنشطة قد تطورت كثيرا بل وتبدلت

فى غالبها وصارت – كماً ونوعاً – ذات مستويات زاخرة بمراتب رفيعة فى عديد من المجالات التعليمية والعلمية والمهنية بل والتنويرية .. بما جعل قريتنا تحديدا قد صارت – بالنسبة لهذه الجوانب – واقعا متميزا تتفوق به على كثير من القرى بل والمدن من حولها .. فأصبح بها مزيد من الكثافة العددية التى تسجل أرقاما قياسية غير مسبوقة من ناحية عدد المتعلمين (خاصة بالنسبة لعدد الحاصلين على درجات علمية فى مجال الدراسات العليا كالماجستير والدكتوراه) وكذلك فى عدد الأطباء والمهندسين والخبراء المحليين والدوليين .. وأيضا فى العدد الكبير من المستشارين القضائيين ومن اللواءات بكل من القوات المسلحة والشرطة .. ومن علماء الأزهر والفقهاء فى العلوم الدينية .. ومن المناصب الإدارية رفيعة الشأن التى من بينها رئاسة مجلس إدارة شركة قابضة .. فضلا عن العديد من أساتذة الجامعات ومراكز البحوث الذين تولى بعضهم عمادة بعض الكليات وتولى البعض الآخر منصب نائب رئيس جامعة ... والشئ اللافت ذو الدلالة الإيجابية الطيبة أن كثيرا من هؤلاء الذين تحققت لهم فرص ومكانات ذات مستوى رفيع علما ووعيا وثقافة ومناصب مرموقة على نحو ما أشرنا إليه فى السطور السابقة .. هؤلاء معظمهم من أبناء وأحفاد أولئك البسطاء من الفلاحين ومن ذوى الحرف والأعمال المتواضعة التى أشرنا إليها فى هذا الفصل من الكتاب .. بما يؤكد اتساع ظاهرة الحراك الإجتماعي التى تنامت بمعدلات أسرع تباعا اعتبارا من أوائل النصف الثانى من القرن الماضى

وتصاعدت كثيرا فى السبعينيات وما أعقبها من سنوات حيث تمت بالفعل نقلات نوعية ترتبت عليها إعادة هيكلة البناء الإجتماعى وتبدلت كثير من الأوضاع والأحوال اقتصاديا وعمرانيا ومعيشيا على وجه الإجمال مما أفضى – بطبيعة الحال – إلى آثار ونتائج إيجابية وأخرى سلبية فى قريتنا التى اكتسبت فى السنوات الأخيرة كثيرا من خصائص الحياة فى المدن وهو ما يُعرف بعملية التحول إلى الطابع الحضرى Urbanization فضلا عن أنها منذ سنوات طويلة كانت مرشحة بل إنها مستحقة نظراً لمقوماتها الذاتية الواقعية أن يصدر قرار رسمى بتحويلها إلى مدينة .. كما أنها كانت مقرا لدائرة انتخابية برلمانية .. وظلت تلك الدائرة الإنتخابية باسمها منذ أكثر من ستين عاما – وقد توقف هذا الوضع لمدة سنوات محدودة نتيجة بعض الألاعيب والمناورات الكيدية ثم عاد إليها هذا الحق منذ سنوات ولا زال قائما – فإذا عدنا إلى الحديث عما لحق بقريتنا بل وبسائر معظم قرى الريف فى مصر إبان السنوات الأخيرة من مظاهر وخصائص الحياة الحضرية .. فإننا نؤكد على أنه – رغم ذلك – فلا زالت هناك فجوة كبيرة قائمة بين مستوى ما هو متاح فعليا من خدمات وتطوير عصرى فى الريف وبين ما تتمتع به الحياة فى الحضر الذى يتم التطوير لديه بمعدلات أكبر كثيرا من المعدلات القزمية التى تكاد تصل إلى الفتات بالنسبة لما يتاح للمجتمعات المحلية الريفية ... وهذا النهج أو التوجه من جانب الدولة كان ولا يزال يُعد قصورا وخللا يعتور بعض سياسات وخطط التنمية بما

يكشف عن الافتقار إلى مراعاة التوازن النسبى الذى يحقق قدرا ملائما من عدالة التوزيع فى استثمارات الرفاه الإجتماعى ... وذلك هو المحك الحقيقى أو التحدى الأساسى لنجاح تجربة المحليات التى بدأ تطبيقها فى مصر عام ١٩٦٠

⋆ حالات غير اعتيادية:

من الحقائق المجتمعية (فى كل زمان ومكان) أن أى تجمع بشرى يضم (بحكم الواقع الفعلى) أفرادا ذوى سمات وأحوال تكون على غير المألوف بالنسبة لما هو سائد لدى غالبية هذه المحلة أو تلك .. فى الريف أو فى الحضر أو فى غيرهما من أشكال المجتمعات المحلية بأى من الأمم والأقطار .. وإن اختلفت هذه الظواهر – كمًا ونوعاً – حسب الظروف والعوامل المصاحبة هنا أو هناك ..

ونحن فى هذه الفقرة .. نعرض لبعض مما حفلت به قريتنا من نماذج تجسد تلك الخصائص غير الاعتيادية .. متمثلة فى بعض الأشخاص الذين يمكن تصنيفهم فى ثلاث مجموعات على النحو التالى:

(أ) غير الأسوياء اجتماعيا:

أولئك الذين هم جانحون .. يقترفون من الأفعال ما تنبذه الجماعة وتدينه لخروجه على العرف العام وغالبا ما يكون متجاوزا للأخلاق والآداب الإجتماعية ويدخل فى حيز التأثيم الدينى والتجريم القانونى ... ومن أمثلة ذلك القتل العمد

والسـرقة وإشـعال الحرائـق وإتـلاف المزروعـات وتسـميم المواشـى والطيور الداجنة .. والمشاجرات و(الخناقات) التى قد تشتمل على أعمال البلطجة أو على السب والقذف والتنابذ بالألقاب فضلا عـن شتائم المعايرة بأمور جارحة...

وبـالرغم مـن أن النـاس فـى قريتنـا يغلـب علـيهم أنهـم مسالمون طيبون قياسا على سكان قـرى أخـرى قريبـة مـن بلـدتنا ... إلا أنـه قـد حـدثت بالفعـل فـى قريتنـا بعـض مـن التصـرفات والأفعال الجانحة على شاكلة شئ مما أوضحنا آنفا وذلك من خـلال وقائع وأحداث متفرقـة متباعـدة ... ويـذكر كاتـب هـذه السـطور أنه فى أربعينيات القرن الماضى قد وقعت على مسرح الأحداث فى بلدتنا بعض من حوادث القتل والسرقة والمشاجرات الدامية التـى أوشك بعضها أن يفضى الضرب العنيف فيها إلى الوفاة ...

وقد كان من أشد الحوادث بشاعة وهولا ... تلك التى وقعت فى النصف الثانى من أربعينيات القرن الماضـى ... ففـى أحـد تلـك الأيام خرج كاتب هذه السطور ضمن حشود غفيرة من أهل القرية زحفت – صباح ذلك اليوم الرهيب المشهود – مـن كـل صـوب فـى اتجـاه أحـد الأمـاكن خـارج القريـة ... وهنـاك بـالموقع الـذى وجـد الأهالى عنده جثمان رجل قتيل ملقاً على قارعة الطريق .. وجـد الصبى (كاتب هذه السطور) نفسـه وسـط ذلـك الجمـع الكـبير مـن الأهـالى الـذين التفـوا حـول الجثمـان حيـث كـان فـوق بعـض مـن (حِـزَم) القـش .. وقـد تم تهشـيم ملامـح الوجـه – ربمـا لإخفـاء معالمه بقصد عدم التعرف على شخص القتيل ... وكـان بـين ذلـك الزحام من الناس عدد مـن رجـال الأمـن والنيابـة .. وقـد احتشـد

الجميع فى مشهد مهيب تغشاه الرهبة ويخيم عليه صمت مفجع ثقيل ... مشهد جنائزى كم أفزع الناس وروعهم صباح ذلك اليوم من أيام الخريف.

وكان من بين الوقائع الأخرى التى شاهدتها وعايشت آثارها المفزعة ... تلك التى كانت فى أوائل الأربعينيات عندما كنت غلاما غضا ... فقد حدث أن شابا يافعا فى عنفوانه يتسم بالغلظة والتهور قام — أثناء مشاجرة له مع شاب آخر — باستخدام فأس كبيرة حادة .. ضرب بها غريمه فى رأسه (وبالتحديد فى أعلى جبهته) .. وكان الشابان من الفلاحين الذين يعملون فى حقولهم المجاورة لحقل والد الغلام (كاتب هذه السطور) الذى روعته — يومها — رؤية الدماء التى تدفقت غزيرة حارة على وجه وثياب ذلك الشاب المضروب .. وكان يُدعى (رمضان) حيث شج رأسه (عبد المؤمن) الذى عُرف عنه أنه غاشم عدوانى جهول ...

هذا وقد وقعت تلك الحادثة برمتها عند منطقة حقلية فى قريتنا تسمى (الكُتى) ... نفس المكان الذى كان مرتعا هانئا فى فترة الصبا والشباب بالنسبة لكاتب هذه السطور .. كان مَوئلا لكثير من ضروب البهجة ومن ألوان (الشقاوة) البريئة المحببة .. كنا مع الرفاق والأقران نعب صنوفا من الهناءة العذبة المترعة بالمرح والضحك فى نشوة من الأعماق بين أرجاء ذلك المكان الأثير .. نتسلق الأشجار ونأكل من حبات ثمر التوت .. ونغنى المواويل وسط الحقول ... ونتناول مع الكبار من الأهل والأقارب وبعض جيران الحقل وجبة الغذاء تحت دوحة وارفة من الأشجار الظليلة

.. فإذا مالت الشمس جهة الغروب وقت (العصارى) عند قدوم الأصيل .. قمنا بإعداد (راكية) من نيران بعض فروع الأشجار نشوى فوقها كيزان من أعواد الذرة الخضراء .. هذا إذا كنا فى أواخر الصيف وعند أول الخريف ... أما إذا كان الوقت ربيعا .. أحضر كل منا (حِلّبا) من سنابل القمح الخضراء .. ويقوم الواحد منا بتعريض ما معه من السنابل لألسنة اللهب المتصاعد من نيران (الراكية) .. وبعد التقليب المتكرر للسنابل فوق لهيب النيران .. تكون قد تم شيها أو تحريقها فنأخذ على الفور فى تفريك السنابل لاستخراج حبات القمح المشوية ثم نشرع فى التقامها طعاما شهيا للآكلين.

(ب) المعوقون جسديا :

وهؤلاء هم الذين لديهم عاهات جسمانية قد (ولدوا بها أو لحقت بهم وأصيبوا بها بعد ولادتهم مثل فقدان البصر (العمى) أو الإعاقة الحركية بأى من الأطراف (الأذرع أو الأرجل) نتيجة الإصابة بشلل الأطفال أو نتيجة بتر بسبب حادثة تعرض لها المعوق .. أو الصمم والخرس .. فضلا عن أية تشوهات جسمانية (كالقتب) وغير ذلك من التشوهات الأخرى ... والحق أن هؤلاء المعوقين قد كان عددهم فى قريتنا فى حدود المعدلات الشائعة لدى كثير من المجتمعات المحلية الأخرى .. بل ربما كانت نسبتهم فى قريتنا اقل من المعدلات التى كنا نلحظها فى قرى مجاورة لنا ... المهم أن هؤلاء المعوقين بقريتنا أو معظمهم على الأقل لم يدعوا أنفسهم عالة على ذويهم ولم يحترفوا التسوُّل إلا قليل

منهم .. فقد كان منهم – فى الأربعينيات وما أعقبها فى الخمسينيات – عدد من حفظة القرأن الكريم الذين كان بعضهم من محفظى القرآن بالكتاتيب والبعض الآخر يقوم بتلاوة بعض من آيات القرآن يوميا لدى بعض البيوتات حسب اتفاق مع أهل تلك المنازل بالقرية تبُركا بتلاوة القرآن نظير مقابل يُدفع لقارئ القرآن الذى كانوا يطلقون عليه (الفقى) كما كان بعض هؤلاء (الفقهاء) يذهبون يوم الخميس من كل أسبوع إلى مقابر القرية ويقوم بتلاوة بعض من القرأن نظير مقابل يدفعه أهل الميت الذى يقوم الفقى بالتلاوة على قبره ... كما كان البعض الآخر من المعوقين يتولى القيام ببعض الأعمال الآخرى سواء فى مجال أعمال تتصل بالزراعة أو بأنشطة أخرى فى حدود ما يلائم حالتهم كمعاقين ...

ومن الأمور الإيجابية الطيبة التى كان معمولا بها فى قريتنا بالنسبة للمعوقين .. أنهم يحظون من باقى أهل القرية بمعاملة رحيمة عطوفة فيها كثير من المعاونة والدعم لهم انسانيا وماديا إيثارا للثواب وتحقيقا لروح التكافل ... ولم يكن أى من هؤلاء مستهدفا من جانب الآخرين للإساءة إليه فى شكل تندُر أو سخرية أو إيذاء بدنى مثل ما لاحظت بنفسى لدى بلدان أخرى كان كثير من الأهالى فيها يستخدمون المعوقين مادة للسخرية وللتسلية الهازئة بل تصل ساديتهم فى ذلك إلى بعض أشكال الإيذاء البدنى .. وتلك تصرفات غبية حقيرة غير أخلاقية ..

(ج) المجاذيب والمشعوذون:

كان هناك فى أربعينيات وخمسينيات القرن الماضى رجلان تصدق فى شأنهما تلك الصفة .. وكان كل من الرجلين ليس من أبناء قريتنا ولكن من حين إلى آخر كان كل منهما يهبط إلى بلدتنا تباعا ربما مرة كل أسبوع يجول فى أنحاء القرية مُسرعا كأنه يجرى وكان يصرخ بصوت مرتفع مرددا بعض الكلمات أو العبارات ذات الطابع الدينى وإن كان يغشاها عدم الاتساق بما يجعلها تبدو كأنها تخاريف وهلوسات .. وكان أحدهما يُطلق على نفسه أو يُطلق عليه الناس لقب (العمدة) أما الشخص الآخر فكان يدعى (الحجار) ....

وكان البعض من أهل القرية يعتبرون كلا من الرجلين يعانى من هوس يستبد به أو من مس شيطانى .. فى حين أن البعض الآخر من الأهالى كانوا يعتبرون الرجلين من الموصولين بعالم الغيب وأن كلا منهما رجل مبروك فيه شئ لله ... أما الصبية والغلمان من أبناء القرية فكانوا كلما رأوا أيا من الرجلين يجرون وراءه مرددين اسمه وهم يضحكون ويهرجون .. فإذا توقف فجأة وجرى صوبهم ليروعهم بسبب تتبعه وملاحقته. عادوا أدراجهم فى فزع وهربوا منه بعيدا حتى لا يدرك أيا منهم ... كما كان فى قريتنا إبان الأربعينيات رجل من أهل البلد يُطلق الناس عليه (الهوابرى) كان ذلك الرجل من المجاذيب المشعوذين .. كان يلبس رداء مترهلا عبارة عن قصاصات قديمة متسخة متشابكة بعضها مع بعض ذات ألوان شتى .. وكان الرجل نحيلا فارعا يلبس فوق رأسه شيئا يشبه (الطرطور) ويمسك فى يده عصا حديدية

طويلة يتوكأ عليها أثناء سيره البطئ جداً .. يتمتم بكلمات خافتة غير مفهومة يتحرك معها فكه الأسفل المدبب الذى تتناثر عليه لحية مفرقة الشعر غير كثيفة .. كأنها أرض بور قاحلة تتناثر فوقها مجموعات متباعدة من الحشائش البرية المغبرة الكالحة ... وكان من أهل البلد أيضا رجل يمكن اعتباره من المجاذيب المشعوذين .. فقد كان ذلك الرجل (إبان الأربعينيات) — يُدعى (السعدنى) كان قصير القامة ضخماً .. رأسه كبير يكسوه شعر كثيف طويل يتدلى على أذنيه ممتدا حتى منتصف قفاه .. مخضب بالإحمرار نتيجة صبغة بالحناء التى تخضب كفيه أيضا ... وكان يُدعى أنه (مخاوى) الجن أو يقول فريق من الناس ذلك عنه ..

وقد كان أولئك المجاذيب الأربعة الذين تحدثنا عنهم آنفا .. كانوا مستغرقين فى تلك الحالة التى كانوا عليها بما جعلهم لا يقومون بأى عمل يتكسبون منه رزقهم ويدبرون به شئون معيشتهم .. لكنهم كانوا يعتمدون فى ذلك على ما يقدمه البعض إليهم رأفة بهم من قبيل العون والمساعدة أو اعتقادا فى التماس شئ من البركة والثواب بدعم هؤلاء وأمثالهم من السالكين طريق (الدروشة) الذين يطلق عليهم كثير من الأهالى أنهم أحباب الله ..

وإذا كان شأن أولئك الأربعة هكذا .. من ناحية عدم قيامهم بأى عمل لتفرغهم للدروشة .. فقد كان هناك آخرون (قد يصل عددهم إلى سبعة رجال) يعيشون حياتهم العادية ويؤدون أعمالهم فى الحقول أو فى بعض الحرف اليدوية .. كان هؤلاء يعتبرون أنفسهم أو يعتبرهم الناس من المجاذيب .. نظرا للحالة

التى كانت تلم بهم عندما ينخرطون فى حلقات الذكر وقوفا وتمايلا سريعا ذات اليمين وذات اليسار تلك الحلقات التى كانت تقام بالقرية (من حين لآخر) ويحرصون على حضورها لدى الغير أو يعملون على إقامتها بمعرفتهم فى منازلهم .. وقد كانوا عند انخراطهم فى عملية (التطويح أو التفقير) السريع داخل حلقة الذكر .. كانت تحدث لأى منهم (بعد بلوغ ذروة الصهللة) حالة صرع يسقط معها على الأرض ويأخذ فى التشنج .. ويظل هكذا فاقدا للوعى – بعض الوقت – ثم يأخذ تدريجيا فى الإفاقة والرجوع إلى حالته الطبيعية .. ويمكن اعتبار أى من هؤلاء الدراويش المجاذيب مجسدا لشخصية (بهلول) ذات النموذج الذى يكاد يكون موجودا فى كل قرى الريف المصرى وفى الأحياء الشعبية بالمدن .. وقد ألفنا أن نشاهد فى بعض الأعمال الدرامية نموذج ذلك البهلول الذى تجسد فى شخصية الشيخ عصفور بكتاب يوميات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم.

(د) الدجالون المشتغلون بأعمال السحر:

من الثابت باستقراء التاريخ الاجتماعى فى مصر منذ سنوات بعيدة .. ذلك الذى كان متفشيا من مظاهر تتصل بأعمال الدجل والسحر وبالخزعبلات والخرافات لدى كثير من فئات المجتمع خاصة بالنسبة لغالبية سكان الريف والمناطق الشعبية بالمدن .. فقد كانت تلك الأساليب البعيدة عن روح الدين والعلم والعقل تشكل آلية فى السلوك اليومى لمواجهة الشرور ولكشف بعض الأسرار التى يلزمهم إماطة الأستار عنها فى مجالات

كالأمراض والعنوسة والخلافات الزوجية والعقم .. والحاجة إلى معرفة شخص السارق أو الذى أتلف المزروعات أو أشعل الحرائق أو قام بتسميم المواشى .. أو الذى سعى فى (ربط) أحد العرسان أو فى (وقف حال البنات وتأخير عدلهن) حسب اعتقاد البعض فى حدوث هذه الأمور نتيجة ما تسببه أعمال السحر ... ومن الملاحظ طبقا للواقع الفعلى فى قريتنا أن توجهات أهل القرية فيما يتصل بذلك المجال .. كانت محدودة .. وأن الأشخاص الذين اشتغلوا بأعمال السحر والشعوذة .. كانوا قلة نادرة .. ربما شخصين على الأكثر .. كان أحدهم – وياللغرابة – ناظر مدرسة الزامية بالقرية غير أنه أدمن ذلك العمل المقيت المرذول على امتداد سنوات طوال حتى نهاية عمره .. وكان يتقاضى نظير قيامه بهذه الأعمال السحرية مقابلا نقديا حسب نوعية كل حالة وطبقا لقدرة الزبون على الدفع .. كما كان بعض أهالى القرية يذهبون أحيانا إلى بلدان أخرى خارج قريتنا يلتمسون لدى سحرتها وعرافيها ما يعتقدون أن فيه خلاصا لهم أو لذويهم مما يعانون أو ليعرفوا من الأسرار ما يرغبون فى الوقوف عليه...

ولعل من الأسباب التى أدت إلى تقلص حجم تلك الظاهرة السلبية ومحدوديتها النسبية فى قريتنا ... ارتفاع أعداد المتعلمين مع تنامى تلك الخاصية الإسطنهاوية تباعا منذ أكثر من ستين عاما بالنسبة للتعليم العام .. فضلا عن نخبة من أبناء القرية الأزهريين الذين تخرجوا فى دار العلوم وفى مدرسة القضاء الشرعى منذ أكثر من تسعين عاما فى العقود الأولى من القرن الماضى .. يضاف إلى ذلك ما حظيت به إسطنها (قريتنا)

منذ اكثر من سبعين عاما من جهود تنويرية لوعى دينى صحيح يحارب البدع والخرافات ويحض على التمسك بمفاهيم الدين الخالص .. وذلك على أيدى أتباع الجمعية الشرعية التى أسسها بالقاهرة (فى النصف الأول من ثلاثينيات القرن الماضى) الشيخ محمود خطاب السبكى أحد رجال الأزهر النابهين من أعلام أبناء المنوفية الأوفياء .. وكان على رأس هؤلاء الأتباع الفضلاء من قريتنا الشيخ محمود الحسينى ومعه الشيخ على عبد الودود والشيخ محمود حجازى وثلاثتهم كانوا من المدرسين بالتعليم الأولى .. وكم كانت لهؤلاء الفرسان النبلاء جهود متواصلة على امتداد عشرات السنين من خلال خطب الجمعة بالمساجد ومن خلال دروس الوعظ بعد صلاة العصر أو العشاء وفى المناسبات العامة ...

ويجدر بنا فى هذا السياق أن ننوه بفضل الدعم المخلص المتواصل الذى أداه على طريق التنوير الدينى الصحيح فضيلة الإمام الجليل الشيخ سيد سابق أحد الأوفياء العظماء الذين أنجبتهم قريتنا .. ذلك العالم الفقيه الذى فتح الله عليه وأنجز السِّفر الضافى الكبير (فقه السنة) .. مصنف قد صار من أمهات وعيون الكتب الإسلامية التى أبدعها العقل المصرى فى القرن العشرين .. إنه مرجع فقهى يعد من الكنوز التى تزدان بها المكتبة الإسلامية فى كل الأقطار التى بها مسلمون ...

(هـ) الشحاذون المتجولون:

لعله من اللافت فى شئون الحياة اليومية فى قريتنا ... ما جعل بلدتنا (خاصة فى الأربعينيات والخمسينيات وما تلاها من

عقود ثلاثة على الأقل) خالية تماما من الشحاذين والمتسولين .. وربما احتاج تفسير ذلك إلى دراسة قائمة بذاتها للوقوف على الأسباب والعوامل الاقتصادية والاجتماعية التى وراء تلك الظاهرة ... وحسبنا فى هذا السياق أن نشير إلى ما كانت تعج به شوارع قريتنا من الشحاذين الذين يفدون إلى القرية من قرى مجاورة على نحو يكاد يكون يوميا .. واستمر الحال هكذا إلى أن اختفت تلك الظاهرة منذ عشرين سنة تقريبا ..

فاذا عدنا إلى تناول بعض جوانب ما كان بشأن تلك الظاهرة .. نجد أنه كانت تتدفق إلى بلدتنا منذ الصباح على امتداد أيام الأسبوع أعداد متلاحقة من محترفى الشحاذة .. يتوقف الواحد منهم أمام أبواب المنازل تباعا .. طالبا بصفة مباشرة من أهل المنزل (شئ لله) أو ما يُطلق عليه (حسنة) .. وكان البعض الآخر يطلب الحسنة من خلال تواجده أمام باب المنزل والشروع فى قراءة آيات القرآن أو إنشاد بعض الأغانى أو المواويل الشعبية .. وكان أولئك الشحاذون يأخذون ما يُقدم إليهم من عطايا حسب كرم أصحاب كل منزل .. إما فى شكل أرغفة من الخبز التى تكون مصحوبة أحيانا بشيئ من (الغموس) خاصة قطع الجبن القريش أو بعض (كيزان) الذرة .. وأحيانا بعض القروش أو الملاليم يعطيها لهم أصحاب المنازل ممن تكون لهم مهايا أو رواتب شهرية كالموظفين ... وكانت الحصيلة اليومية لكل شحاذ من العطايا العينية تجمع إما فى كيس كبير من القماش يعلقه فى رقبته ويجعله منسدلا على أحد جنبيه .. أو توضع تلك الأشياء فى (خرج) يحمله حمار إذا كان الشحاذ يصطحب معه زوجته التى

تشدو ببعض الأغانى ويتولى زوجها العزف لها على (السلامية) أو ما كان يسمى (العفاطة) ...

ونظراً لكثرة تردد شحاذين بعينهم وانتظام نزولهم إلى قريتنا .. صار بعضهم معروفا بالإسم لدى أهل القرية .. وكان من أشهرهم (إسماعيل) و(عزالدين .. تصحبه أخته نفيسه) كذلك ثنائى عبارة عن شابة من الحسناوات ذات صوت عذب فى إنشاد الأغنيات .. كانت تسمى (سيدة) يصحبها زوجها بالعزف على الناى .. وكان صاحب قامة فارعة .. أسمر اللون .. له (شنب) كثيف (منكوش) وفوق رأسه طاقية تنحدر قليلا إلى الخلف.

وهكذا فقد كان هؤلاء الشحاذون المتجولون الذين يهبطون إلى قريتنا يمثلون واقعا فعليا تغص به الحياة اليومية فى قريتنا.

(و)المتحذلقون والمتغطرسون:

كان فى قريتنا – ولا يزال – نفر من التحذلقين وآخرين من المتغطرسين ... إن أولئك وهؤلاء لا نعدم وجودهم لدى اى من الجماعات البشرية قد يزيدون أو يقلون هنا أو هناك .. ولكنهم يظلون شاهدا على حقيقة اجتماعية ونفسية تعبر عن بعض جوانب التنوع والاختلاف اللذين لا تخلو منهما حياة الناس ..

وأعتقد أن عدد ذلك النفر من ذوى السلوك غير الاعتيادى خاصة أصحاب الشريحة الأولى (المتحذلقون) قد تقلص كثيرا اعتبارا من سبعينيات القرن الماضى نظرا للتحولات المتسارعة والمتلاحقة التى أحدثت تغيرات شتى لدى كثير من مفردات الحياة فى المجتمع المصرى .. الأمر الذى تترتب عليه أنه لم تعد

هناك ظروف مواتية تسمح — دون عناء أو استهجان — بممارسة البعض من الناس لأساليب التظاهر بالكياسة والظرف أو الإدعاء بحوزة قدرات أو ملكات من الحذق و(الشطارة) أو(المفهومية) بما يتجاوز الاستعدادات والقدرات الفعلية لدى أى من هؤلاء الأدعياء أو(الحلنجية) ... ولم يعد هناك ترف فى السلوكيات الإجتماعية يصاحبه إضاعة الوقت فى الإهتمام أو الإنبهار بمثل تلك البهلوانيات الإجتماعية ولم تعد تروج بين الناس تلك الأمور فى ظل المناخ العام الجديد فى المجتمع الذى صاحبه انهماك معظم الناس فى سباق وتنافس من أجل تحقيق أولويات جديدة تتصل بحوزة مقتنيات بعينها وتحقيق تطلعات ترتبط بأنماط من الاستهلاك السلعى والخدمى وبالتدافع للفوز بأوضاع ومواقع فى سلم الوجاهة الإجتماعية والقيمة ذات الصيت والمكانة .. كل ذلك وغيره من مستجدات قد أوجد ظرفا حياتيا أحدث تبدلا كبيرا بالنسبة لكثير من الأساليب التى درج الناس عليها أو كانت تشغل اهتمام فريق منهم ... وإذا كنا قد أشرنا إلى بعض سمات وخصائص فصيل المتحذلقين .. فإننا نود أن نلقى الضوء على جوانب من شخصية أى من المتغطرسين ... فالواحد من هؤلاء تسكنه روح التعالى والزهو والكبر والغرور .. مع إنه مهما كانت إمكاناته الشخصية ومقوماته الذاتية ذهنيا وعلميا ومهنيا .. أو جسمانيا وعائليا وطبقيا .. فإن انجرافه إلى ذلك التوجه يبقى شاهدا على سوء تقديره لحقائق الطبيعة البشرية وحقائق الحياة والكون بل يظل ذلك التوجه مؤكدا ودامغا لوجود حالة من الإضطراب والخلل فى إدراك وفهم طبيعة وحقائق الواقع

الإجتماعى ... كما أننا نجد فى ذلك نوعا من الإلتواء والعوار فى منطق التعامل مع مفردات حركة الحياة المتصلة بالنواميس العامة للوجود .. بما يفضى أو يبلور فى النهاية حالة من الإنسلاخ أو الإنفصال عن الإيقاع الطبيعى للأشياء والسقوط فى زوايا التوحُد العدمى مع الذات .. أو كالذى آثر الإنكفاء على نفسه أو أعطى ظهره لحلبة الحياة وانخرط سادرا فى أن يحملق فى الخواء أو فى اللا شئ فالإنسان — أى إنسان — لا يملك أية قدرة ذاتية مستقلة تعصمه من أن يلم به أو يقع له (فى أى لحظة) ما ينقله من حال إلى حال .. فهو ليس مستغنيا بذاته فى أى أمر من الأمور .. مما يجعله مجرد كائن من خصائصه النقص والعجز نظرا لأنه لا يملك أية قدرات ذاتية مطلقة ... وتلك هى حقيقة كينونته داخل الوجود الكونى الذى لا فكاك له منه .. فسبحان الله خالق كل شئ .. مدبر شئون الحياة والوجود .. له الأمر من قبل ومن بعد.

ونختتم القول فى هذا السياق بأن مثل ذلك المتغطرس المتكبر الذى (يُصعِّر خده للناس) (لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا) .. وهذه الحال لا تخرج عن أن صاحبها يقترف حماقة خرقاء .. يهدر بها طاقته فى تقمص واصطناع نهج غير سوى وغير رشيد .. وكان أجدر به وأنفع له أن يوجه تلك الطاقة المبددة هباء فيما يجعله صديقا للناس والحياة ...

الفصل الخامس

مواقف .. لها فى النفس ذكراها

نتناول فى هذا الفصل حديثاً عن مواقف لا تنسى فى حياة كاتب هذه السطور .. عايشها وخبرها بخيرها أو شرها .. وهى مواقف كانت لها عندى دلالات خاصة .. وكانت ذات انطباعات مميزة فى النفس والعقل جميعا .. هانئة أثيرة حينا .. ممضة أليمة أحيانا .. وفى أحوال ثالثة ليس هذا ولا ذاك حيث أنها تفضى إلى شئ من التأمل والتبصر بما يؤدى إلى استخلاص بعض من العبر والدلالات ذات الرؤى الكلية للأشياء ..

وطبيعى أن تكون لتلك المواقف خصوصيتها بالنسبة لى باعتبارها تمثل جانبا مما حفلت به رحلة الحياة وصارت من معالم شريط الذكريات .. إلا أنها — إلى جانب ذلك — تظل أفقا يتسع لإمكان متجدد من الرؤى ومن استخلاص الدلالات لأى قارئ أو متلقى ... خاصة ذلك الذى لديه ذائقة أو حاسة نقدية .. ولديه توجه يحمله على فعل المشاركة الذهنية لاستخراج المعانى والدلالات لأى من المواقف التى هى فى كل الأحوال تمثل تجربة من التجارب الحياتية التى تنطوى بدورها على أحداث وشخصيات فاعلة لها دورها فى صنع تلك المواقف وتشكيلها .. وكل ذلك على النحو الذى يتجسد فيما نعرضه من مواقف فى هذا السياق كما يلى:-

١- الأستاذ حمزة .. وكتاب البلاغة:

كان الأستاذ حمزة يُدَرِّس لنا مادة اللغة العربية ونحن طلاب بالسنة الخامسة (شعبة أدبى) بمدرسة بنها الثانوية فى العام الدراسى ١٩٥٦/١٩٥٥ وكان ذلك المدرس رجلا شديد الطيبة والهدوء .. يقترب من سن الستين .. متوسط القامة هزيل الجسم معتل الصحة .. يُفرط فى التدخين .. يلبس طربوشا فوق رأسه المدبب الصغير .. وكان صاحب وجه نوبى الملامح .. نبرة صوته تذكرك بنقيق الضفادع .. تشى – لدى السامع – بأنها تنبعث من نفس مثقلة بالأسى ومن روح مثخنة بجراح السنين .. وأذكر أنه فى إحدى الحصص الدراسية .. أمسك بكتاب البلاغة المقرر تدريسه لنا .. ورفع الكتاب فى قبضته إلى أعلى .. وقال بصوت مرتفع: (أتحدى أن يكون هناك من يستطيع فهم واستيعاب ما جاء فى هذا الكتاب مثل الذى فعلت) ...

ربما كان الأستاذ حمزة (رحمة الله عليه .. حيا كان أو ميتا) .. أقول ربما كان يستحثنا ويثير فينا شهية الإقبال الجاد والمتعمق على اكتشاف وتذوق أسرار البلاغة وجمالياتها مما جاء فى ذلك الكتاب .. أو ربما كانت هناك أسباب أخرى تخصه هو قد جعلته يقول ما قاله لنا فى ذلك الشأن ... وقد اكتفى الأستاذ حمزة بسرد تلك العبارة التى جهر بها أمامنا على عجل وفى اقتضاب دون انتظار منه لأى تعليق من أحد طلاب الفصل .. مما جعله ينتقل إلى الشروع فى شرح الدرس الذى أعده لتلك الحصة خاصة أنه لم يلاحظ على وجه أى من الطلاب اهتماما أو اكتراثا بما قال

بل إنه قد بدا على وجوه البعض شئ من الضجر والتململ .. وبدا على البعض الآخر ابتسامة ماكرة فيها شئ من الغيظ وبعض من الاستخفاف والتعجب مصحوبة بنظرات الاستغراب فى تلفت بعضهم إلى بعض .. وكأن الواحد منهم قد أدرك ما يمكن أن يشى به كلام الأستاذ من خلال عبارته تلك من التباهى والافتتان بذاته (على نحو نرجسى) ... أعود فأقول إنه لولا أن الأستاذ حمزة لم يسارع بالدخول مباشرة إلى الانهماك فى شرح الدرس .. الأمر الذى أغلق به أية ردود أفعال من جانب الطلاب الأشقياء ذوى الميول العبثية (التهريجية) المازحة الساخرة ... نقول لولا ذلك لحدث — فى ذلك اليوم — ما لا يحمد عقباه باتخاذ ما صدر عن الأستاذ من تصرف كان من المتوقع أن يتخذه بعض الطلاب ذريعه لفتح مجال لتعليقات هزلية لا تخلو عادة من بعض التجاوزات وما يستتبع ذلك من غضب الأستاذ واستفزازه .. الأمر الذى ينتهى بضياع الانضباط داخل الفصل دون إمكان السيطرة على شئ من ذلك .. بل ودون أن يستطيع أحد توقع نوعية النتائج السلبية التى قد تفضى إليها تلك المقدمات وهى حالات من الانفلات كانت تحدث أحيانا من بعض طلاب المرحلة الثانوية فقد كان أولئك الطلاب فى تلك السنوات البعيدة التى تزيد عن نصف قرن من الزمان .. يتسمون — فى معظمهم — بخصائص جسمانية وفى عامة هيئتهم بما يجعل منهم رجالا ناضجين فى بنيتهم وليسوا مجرد شباب صغار مراهقين .. كان بعضهم على مستوى من طول القامة وضخامة الجسم بما يفوق مدرسيهم .. وكانت لهم شوارب كثيفة ... يلعب بعضهم رياضات بدنية

كالمصارعة وحمل الأثقال والجمباز وكمال الأجسام .. بل ويحصل نفر منهم على بطولات عامة تتحدث عنها بعض الجرائد اليومية .. كما كان من المعلوم عن طلاب تلك السنوات أن تجد كثيرا منهم ينخرط فى الاهتمام بالشئون المجتمعية ذات الطابع القومى ومن بينها الأمور السياسية والقضايا العامة .. وكان من الشائع اضرابات ومظاهرات الطلاب للتعبير عن مشاركتهم فيما يجدون فيه حقا للمشاركة ... وهكذا فإن طلابا هذا شأنهم .. كان معلموهم فى مدارسهم يحتاطون كثيرا حتى تتم عملية تقديم أى من الحصص الدراسية دون أن ينجرف مسار الحصة إلى أمور يصعب السيطرة عليها من مزاح عبثى أو تجاوزات تضطرب بها ومعها أحوال الفصل ويصعب فى وجودها تحصيل اى شئ من مادة دراسية ... وهكذا تتضح حالة الحرج أو ذلك المأزق الذى كان الأستاذ حمزة على وشك الوقوع فيه لولا أنه تدارك الموقف سريعا ولجأ إلى اجتذاب اهتمام طلاب الفصل بالانخراط فى شرح مادة الدرس فى تلك الحصة المشهودة التى لم تسقط حتى الآن من ذاكرة كاتب هذه السطور ...

ولكى نوضح بعض جوانب تلك التجاوزات التى كانت تحدث أحيانا أثناء الحصص الدراسية .. نذكر نموذجا لذلك يتمثل فيما حدث بالفعل عندما كنت بالسنة الثالثة الثانوية فى العام الدراسى ١٩٥٣/١٩٥٤ بمدرسة بنها الثانوية .. ففى ذات يوم ونحن فى حصة من حصص اللغة الفرنسية والأستاذ (أورشاج Orchag) الذى كان من أصل أرمانى – يؤدى عمله بتقديم أحد دروس الفرنسية ... إذ بزميلنا (عبد العليم) الطالب بالفصل

(والذى كان شابا يافعا قوى البنيان يحترف رياضة المصارعة وله فيها عديد من البطولات .. وكان ريفيا تبدو عليه مسحة من الطيبة) نعود فنقول ... إن ذلك الزميل قد شرع فى الإمساك بجريدة الأهرام بكلتى يديه وأخذ يُقلّب بعض صفحاتها للإطلاع على بعض ما جاء بها ... أقدم (عبد العليم) أثناء الحصة على ذلك الفعل وواصل قراءة بعض مواد الجريدة وهو جالس بالمقعد الذى على يسارى بالفصل .. صدر عنه ذلك فى تغافل كامل للدرس وفى تجاهل غير مبال بالمدرس (المنهمك) فى شرح وتقديم الدرس .. وعندما لاحظ المدرس ذلك المشهد الذى عليه الزميل عبد العليم طلب إليه أن يكف عن ذلك الفعل بإلقاء الجريدة جانبا ومتابعة الدرس .. أو ترك الفصل إذا شاء .. غير أن عبد العليم ألقى نظرة طويلة بعض الشئ وهو شاخص إلى المدرس الذى كان يقف عند السبورة .. ولم يرد على المدرس بأية إجابة ولكنه أشاح بإحدى يديه فى اتجاه المدرس بطريقة يُستفاد منها أن يواصل المدرس عمله فى شرح الدرس ولا دخل له فيما يجرى من قراءة الجريدة التى استمر عبد العليم فى الاطلاع على بعض منها .. فما كان من المدرس إلا أن قام باستدعاء الأستاذ (مينا) الأخصائى الاجتماعى الذى كان مكتبه قريبا من الفصل .. فلما جاء الأخصائى ونادى على الطالب قائلا (إتفضل معايا يا عبد العليم لو سمحت) فنظر إليه الطالب فى صمت ثم ظل جالسا يواصل القراءة فى الصحيفة .. فتوجه الأستاذ مينا على التو إلى مكتب وكيل المدرسة المختص بالطابق الذى كان به فصلنا الدراسى .. وبعد قليل من الوقت جاء إلى الفصل أحد السعاة يطلب

من عبد العليم أن يحضر إلى وكيل المدرسة (الذى كان – كما قيل أيامها – ينتمى هو والطالب عبد العليم إلى نفس الفصيل صاحب الأيديولوجية التى يعتنقها كل منهما) وهنا قام عبد العليم من مقعده بالفصل ليذهب إلى مكتب الوكيل .. ولكنه قبل أن يتوجه إزاء الباب يمينا .. توجه جهة اليسار حيث كان يقف المدرس .. وعندما أوشك أن يمسك به قام بعض الزملاء من طلاب الفصل وحاولوا بينه وبين الاعتداء على المدرس ...

وأذكر أننى لم أتابع – أيامها – ما يتصل بذلك الشأن .. ولم أقف على شئ مما انتهى إليه ... ولا يهمنا فى قليل أو كثير أن نشغل أنفسنا فى هذا السياق بأن نعرف تحديدا النتيجة الفعلية التى آلت إليها الأمور فى ذلك .. لكن الذى أرى أنه من الأجدر أن نشير إليه ونعرض له هو أن ما ذكرناه بشأن تلك الواقعة وما كان بها من تجاوزات مؤسفة لا يصح أن تقع فى مكان تلقى العلم فضلا عما بها من تطاول على قدر المعلم ومن إخلال بالنظام الواجب مراعاته داخل الفصل الدراسى .. وإن كان ذلك المشهد الذى عرضنا له آنفا لا يخلو من جوانب فكاهية هزلية .. كانت فكاهية تبعث على شئ من الضحك لأنها فى إجمالها تنطوى على شئ من الدهشة القائمة على مفارقات غير متوقعة لإحتواها خروجا على المألوف .. وتلك هى (التيمة) التى لعب على وترها مؤلف ومخرج مسرحية (مدرسة المشاغبين) التى أضحكت الملايين على امتداد عدد من السنين ..

نعود فنقول إن ما ذكرناه بشأن واقعة التجاوز الذى صدر عن الطالب (عبد العليم) .. إن ذلك الأمر يمثل نموذجا لتجاوزات أخرى كانت تقع من حين لآخر هنا أو هناك بالمدارس الثانوية .. ولكن علينا فى هذا السياق أن نشير إلى أن تلك التجاوزات إبان تلك السنوات البعيدة تظل فى واقعها الفعلى مجرد حالات استثنائية عارضة تقع أحيانا فى بعض المدارس .. ولا تحجب بحال من الأحوال الصورة العامة الطيبة التى كان عليها أبناء ذلك الجيل من الجدية والإنضباط والرجولة ومن الإحترام المتبادل بين المدرس وطلابه فى قاعة الدرس وفى غير ذلك من مرافق المدرسة ولقاءاتها الجماعية فى الملاعب أو الحفلات أو الرحلات.

٢- شيئ من القهر :

فى ليلة من ليالى صيف عام ١٩٤٦ انتظرنا عودة أبى من صلاة العشاء بالمسجد القريب من منزلنا .. إلا أنه فى تلك اليلة قد تأخر طويلا على غير المعتاد .. فكان طبيعيا أن نخرج — أمى وأخى الأكبر وأنا — للوقوف على أسباب ذلك التأخير الذى كان قد أوشك أن يبلغ منتصف الليل .. فتوجهنا فى البداية إلى حقل لنا قريب من منازل القرية .. وكانت عيدان الذرة قد بلغت غاية إرتفاعها بالحقل مما جعله يبدو وكأنه غابة كثيفة من الذرة الخضراء .. فشرعنا (عند مقدمة الحقل) فى المناداة على أبى علّه يكون هناك بعيدا داخل (الغيط) وعندما لم يصلنا أى رد على المناداة .. دخلنا إلى مسافات طويلة فى أعماق الحقل ومعنا

للإضاءة لمبة جاز (كيروسين) من الصفيح .. وأخذنا (أثناء تقدمنا داخل حقل الذرة) ننادى على أبى .. ولما لم نجده هناك .. عُدنا أدراجنا وتوجهنا إلى مكان بالقرية يُطلق عليه الأهالى (منزل البلد) وكان بمثابة مفترق طرق لا يخلو من تواجد الناس به غالب ساعات الليل والنهار على السواء .. خاصة وأننا كنا فى ليلة مقمرة من ليالى شهر رمضان .. وبعض الناس يفضل السهر والمسامرة عند ذلك الموقع الذى لم يكن يبعد كثيرا عن منزلنا ... وهناك سألنا رجلا من الذين كانوا فى ذلك المكان (وهو ممن اعتادوا صلاة الجماعة بالمسجد الذى يصلى فيه أبى) سألنا عن ذلك الأمر الذى يشغلنا .. فقال إنه شاهد الخفير محمد الهدهد — عقب الخروج من المسجد بعد صلاة العشاء — يستوقف أبى ويطلب إليه أن يذهب معه إلى (دوار العمدة) حسب طلب الأخير .. فتوجهنا على الفور إلى مقر العمودية .. وهناك علمنا (أو قيل لنا) أن العمدة طلب إلى عدد من خفراء القرية أن يقوموا بالمرور فى شوارع البلد من أجل أن يأتى كل منهم بنفرين من الأهالى من بين أى من الرجال الذين يصادفونهم فى الطريق .. على أن يتم ذلك خلال مدة حددها العمدة حتى يعود كل خفير بالمطلوب قبل انقضاء تلك المدة .. وبعد أن تم بالفعل تجميع العدد اللازم من الرجال عند دوار العمدة (وكان أبى من بين هؤلاء الذين تم تجميعهم) فقد حدث أن تم ترحيلهم ليلا (تحت إشراف عدد من رجال الأمن التابعين لنقطة شرطة القرية) إلى منطقة عمليات صيانة وحراسة شاطئ نهر النيل من أخطار مياه الفيضان العالية وذلك عند قرية (مسجد الخضر) القريبة من بلدتنا ..

وفى صباح اليوم التالى .. ذهبت فى صحبة أخى الأكبر إلى موقع العمل الجماعى الذى به عشرات الرجال ومعهم أدواتهم ودوابهم .. يكدحون فى عمليات نقل الأتربة وبعض من حِزَم حطب الذرة .. يقودهم فى ذلك مشرف يتابع عملهم والكل منهمك فى تسارع وتدافع لتمكين وتدعيم أجزاء من شاطئ النهر عند تلك المنطقة ما بين قرية (مسجد الخضر) وقرية (بقيرة) .. وهناك طلبنا من (الريس) المشرف على العمل بالموقع أن يقبل استبدال أخى بديلا عن أبى فى القيام بالعمل نظرا لأنه كان فى حالة صحية لا تمكنه من أداء العمل هناك ... فاستجاب لطلبنا على أن يأتى أخى صباح اليوم التالى ومعه حمار لنا لاستخدامه مع بقية الدواب فى نقل المهمات المطلوبة لتدعيم الشاطئ الذى تعود الناس أن يطلقوا عليه كلمة (الجسر) .. وبالفعل تم تنفيذ المطلوب فى اليوم التالى وعدت مع أبى إلى بلدتنا تاركين أخى يواصل العمل هناك ويظل فى موقع العمل طوال الوقت مع الآخرين .. وبقى هكذا هناك عدة أيام (ربما عشرة أيام أو يزيد) عاد بعدها إلينا ومعه الحمار ... وكانت بالنسبة له تجربة مدهشة تلك التى كانت بمثابة ملحمة للعمل الجماعى الدؤوب فى مواجهة أخطار أمواج الفيضان العالية التى تملأ النهر عن آخره على نحو يبدو معه الأمر وكأن طوفانا يوشك أن يجتاح الشاطئ خاصة عند أجزائه المنخفضة أو الضعيفة غير المتماسكة فتكتسح المياه الجارفة كالطود العاتى مايقع أمامها من أرواح ومن بيوت وحقول .. وظل أخى يحكى لنا تباعا بعضا من فصول تلك

التجربة التى عاشها إبان المدة التى قضاها فى قلب ذلك العمل الجماعى الصاخب الذى يحوطه كثير من نذر الخوف والخطر ...

إن ذلك الموقف الذى عرضنا لجوانبه وأبعاده وما انطوى عليه من دلالات .. يظل مجرد نموذج مصغّر نسبيا قياسا على ما قد يستدعيه من نماذج أخرى أشد هولا وأتعس مصيرا فيما يتصل بأشكال وأحوال من قهر السلطة الغاشمة عند لجوئها إلى أساليب قمعية جائرة فى عمليات تعبئة وحشد جموع من الناس دون مراعاة أدنى إرادة لهم ودون مراعاة لأية اعتبارات آدمية حين تذهب بهم أو تسوقهم السلطة إلى أعمال السخرة .. تلك الأعمال التى تتصل إما بإقامة مشروعات كبرى مثل شق الترع أو بناء الجسور (الكبارى) والقناطر أو إنشاء بعض خطوط السكك الحديدية .. وقد تكون أى من تلك المشروعات لدى مواقع تبعد مسافات طويلة قد تصل مئات الكيلومترات عن أماكن إقامة أى من هؤلاء الأفراد الذين تحوّلهم السلطة إلى (فواعلية) للقيام بتلك الأعمال الشاقة فى ظروف صعبة غير مواتية ... هذا وقد كان مما يدخل فى أعمال السخرة تلك القيام من جانب قوات المستعمر الإنجليزى بإرسال قوافل أو حشود من هؤلاء الذين يتم تجميعهم عنوة وقسرا إلى بلاد بعيدة كالسودان فى تجريدة أو حملة عسكرية دون أى إعداد أو تدريب لهؤلاء الذين كان حظهم العاثر أن يقعوا فى قبضة أفراد سلطة المحتل الغاشم ... وأذكر أنه قد حدث شئ من ذلك القهر القائم على بطش السلطة القمعية بأساليبها البربرية .. حدث ذلك بالفعل لواحد من أفراد عائلتى (آل الحاج عامر) ففى ثمانينيات القرن التاسع عشر تم أخذ عم

أبى (بتلك الطريقة القسرية التى أشرنا إليها) وذهبوا به مع آخرين فى حملة حربية إلى السودان — دون إعداد أو تدريب — وقد انتهى به الأمر إلى أنه لم يعد نهائيا من تلك الحملة .. ولم يعلم بعد ذلك أحد من أهله وذويه أى شئ عن أخباره وعما إذا كان قد هلك فى رحلة الذهاب أو أثناء عمليات القتال أم أنه قد فقد هناك فى السودان أو فى الأراضى المصرية وتعذر عليه الرجوع إلى بلدته حيث كان يعيش مع أهله ... ونود أن نشير إلى أن ذلك الرجل عند ترحيله إلى السودان كان قد ترك وراءه زوجة وبنتا وطفلا كان وليدا صغيرا .. وقد شاء الله أن أحد أبناء ذلك الوليد قد حصل على الدكتوراه فى الأدب العربى من السربون فى باريس بفرنسا — وذلك فى خمسينيات القرن الماضى — وقد التحق بعد ذلك بالعمل لدى إحدى جامعات السويد فى إستكهولم العاصمة ... ولما كان قد صار أستاذا بارزا فى الأدب العربى هناك فقد حدث — حسب ما نشرته جريدة الأهرام القاهرية — أن طلبت إليه اللجنة الملكية بالسويد المختصة بمنح جائزة نوبل أن يرفع إليها تقريرا عمن يقترح ترشيحه من الأدباء العرب لنيل الجائزة فى مجال الأدب ... وفى ذلك المقال بجريدة الأهرام أوضح الأستاذ (سامح كريم) أن أستاذا جامعيا مصريا وسماه بالاسم (دكتور عطيه عامر) كان وراء ترشيح نجيب محفوظ للحصول على جائزة نوبل فى الأدب ... التى قد حصل عليها نجيب محفوظ بالفعل عام ١٩٨٨...

وإذا كـان أحـد أحفـاد ذلـك الرجـل الـذى فُقـد فـى حملـة السودان التى أشرنـا إليهـا .. قـد وفقـه الله فـى تحقيـق تلـك المكانـة الأكاديميـة المرموقـة لـدى جامعـات دولـة هـى واحـدة مـن أرقـى الشعوب الأوربية .. فقد جاء من نسل ذلك الرجل أيضا إبـن لأحـد أحفاده .. وقد حصل ذلك الإبن النابه علـى درجـة الـدكتوراه فـى الطـب .. وصـار بعـد الترقـى فـى السـلك الجـامعى نائبـا لإحـدى الجامعـات المصـرية عـدة سـنوات فـى أوائـل تسـعينيات القـرن الماضى..

وقبـل هـذا وذاك مـن ذريـة ذلـك الرجـل .. فقـد شـاء الله أن ابنه الذى تركه طفلا صغيرا عند ترحيله إلى السودان .. قد كفلـه جـده الحـاج عـامر الـذى أدخلـه مدرسـة مـن المـدارس الراقيـة المتطورة تعلم فيها بعض اللغـات الأجنبيـة إلى جانـب مـواد ماليـة وإدارية .. ولم يدعه جده أن يكمـل تعليمـه بالمـدارس العليـا التـى كانت قائمة فى السنوات الأخيرة مـن القـرن التاسـع عشـر .. فعـل الحاج عامر ذلك مـع حفيـده محمـد (١٨٨٢ - ١٩٤٥) الـذى اختـار لـه اسما إضافيا أشتهر بـه طـوال حياتـه حيـث أسمـاه (حلمـى) تيمنـا وإعزازا لاسم صديقه وجليسه أحد الوجهاء من أعيان ذلك الزمان .. نقول إن الحاج عامر صنع ذلك مع حفيده بأن حال بينه وبـين مواصلة تعليمه لدى المدارس العليا بالقاهرة .. فعل ذلك من شـدة خوفه عليه من جراء فقدان والد الصبى .. فـأراد لـه أن يظـل فـى رحابه ليُصنع على عينِه .. وعندما شب وصار فتى قام بتـزويجـه وخصص له عددا مـن الأفدنـة تماثـل نصـيب كـل مـن أعمامـه ... وقد صار ابن الفقيد فيما بعد أحد كبار مشايخ البلـد فـى قريتنـا

.. وكان له (كاريزما) خاصة وصاحب صيت ذائع بين أهل القرية حتى وفاته عام ١٩٤٥... وقد سبقه فى مشيخة البلد جده الحاج عامر (والد جدى مرسى) وكان من أعيان القرية وأعزتهم ولا غرو فى ذلك فقد كان الحاج عامر أحد أسلاف عباس الوكيل ..

وكلمة أو اسم الوكيل هنا – حسب التاريخ الإدارى والسياسى فى القطر المصرى أيام محمد على باشا والى مصر وربما قبل ذلك – يدل على مهنة أو منصب كان يتولاه من يوكل إليه أمر إدارة أو حكم أحد الخطط أو الدساكر التى كانت مديريات القطر تتكون منها وفقا للتقسيم الإدارى الذى كان معمولا به ... ومن هنا فإن لبعض أسماء الاشخاص أو أسماء العائلات وألقابها دلالة مهنية واجتماعية ترتبط ارتباطا واقعيا بنوعية العمل أو النشاط الحرفى أو المهنى الذى يمارسه أو يتولى القيام به هذا الشخص أو ذاك أو ما كان يقوم به الجد المباشر أو الأعلى من عمل يحترفه أو يسند إليه ... ومن أمثلة تلك الأسماء الدالة على ذلك:

العطار – النجار – الحداد – النحاس – البنا – الملاح – القبانى – الخطيب – المعلم – العالم – الكاتب – الوكيل – القاضى – الخولى – الجندى – الصياد – المراكبى – المعداوى – البواب – الخادم – الخياط – الجمال – الحلوانى – الزيات ...الخ

ومرة أخرى نعود إلى الحديث عن مدلول اسم (الوكيل) الذى أوضحنا فحواه آنفا .. فنجد أن الحاج عامر حفيد عباس الوكيل كان بالفعل أحد أسلاف ذلك الرجل الذى كان سيد قومه لدى موقع من مواقع القطر باعتباره مسئولا عن أحوال ذلك

الموقع سواء كان بلدة أو مقاطعة أو إقليما يعيش به أو عليه قوم من الأهالى ... كما أن منصب الوكيل هذا كان يعنى فيما يعنى أيضا .. أن يكون أحدهم وكيل دائرة أو تفتيش لأحد الحكام من الولاة أو لأحد الأمراء .. فينوب الوكيل عن صاحب الدائرة أو التفتيش فى إدارة وتصريف شئون أى من تلك الدوائر أو التفاتيش وما بها أو عليها من الحرث والنسل ...

وإذا كان الله قد أفاض من نعمائه ويسر بعضا من رفعة الشأن بما أغدقه سبحانه على نفر من أفراد تلك العائلة (على اتصال أجيالها الممتدة) حين قدّر لهؤلاء شيئا من التمكين بحمل مسئولية القيام بأمانة وظائف الإدارة العامة فى رعاية مصالح وشئون قطاع من البشر .. بداية بما أشرنا إليه فيما كان عن عباس الوكيل .. ثم الحاج عامر .. ومن بعدهما محمد نصر (الشهير بمحمد حلمى) ... فقد شاء الله أن يمتد (فى تلك العائلة) القيام بحمل مسئولية تلك الأمانة حين تم تكليف كاتب هذه السطور بالعمل رئيسا لقرية فى ثلاث مواقع تباعا .. ثم القيام بعمل رئيس مدينة (أو حاكم مدينة كما تعود أهلها إطلاق ذلك على رئيس مدينتهم عند بداية تطبيق نظام الحكم المحلى) ولما كانت تلك المدينة عاصمة أحد المراكز الإدارية فقد كان فى مسئوليتى أيضا القيام بعمل رئيس مركز يضم زهاء مائة وخمسين ألف نسمة من البشر ... مع مراعاة أن نؤكد على أن سيد القوم خادمهم .. أى الراعى لمصالحهم .. القائم على شئونهم .. وهى أمانة يُسأل عنها فى الدنيا والآخرة .. كما أنها تكليف لا تشريف .. وذلك هو الأصل فى الأشياء حسب فحوى التنظير

السياسى لفكرة العقد الإجتماعى .. بصرف النظر عما يحدث أحيانا وربما فى كثير من الحالات من تجاوز وعدم التزام من جانب بعض المسئولين أو الحكام حين ينحرف أحدهم بالسلطة التى هى فى الأصل ممنوحة له بتفويض من الجماعة أو المجتمع المحلى أو القومى .. فإذا فرط فى تلك الأمانة أو لم يحسن القيام بها .. كان طبيعيا من حق المجتمع أن يقصيه أو يعزله عن موقع المسئولية .. وكل ذلك وفقا لما يقول به أصحاب نظرية العقد الإجتماعى وعلى رأسهم (جان جاك روسو) الفيلسوف والمفكر الإجتماعى الفرنسى الشهير.

وبعد هذا الإستطراد فى سرد ما اتصل بواقعة ترحيل أحد أقربائى فى حملة إلى السودان إبان القرن التاسع عشر .. وما أفضى إليه السرد من تداعيات أوحت بها تلك الواقعة .. فإنه علينا أن نعود إلى استكمال الحديث عن الذين تعرضوا من عائلتى لذلك النوع من قهر السلطة الغاشمة ... فنذكر واقعة إضافية غير تلك التى تحدثنا عنها آنفا سواء بالنسبة لوالدى أو بالنسبة لعمه نصر (شقيق جدى مرسى) والواقعة التى نستكمل بها الحديث فى هذا السياق تتعلق بأحد أعمامى ويسمى حسنين (١٨٩٣-١٩٦٦) وقد كان الشقيق الأكبر لوالدى .. ففى أوائل العقد الثانى من القرن العشرين (حوالى عام ١٩١١) تم احتجازه وترحيله عنوة مع عدد من أهالى القرية والقرى المجاورة ضمن أحد أفواج (عمال السلطة) الذين كانوا يُختطفون من الطريق أو من بيوتهم بواسطة رجال الإدارة ويُقذف بهم إلى أى من مواقع العمل الجماعى الشاق فى أى من مديريات القطر لإقامة بعض المشروعات الكبرى كالتى سبق

الإشارة إلى بعضها ... وقد مكث عمى ما يزيد على ستة أشهر متصلة للعمل بإحدى تلك المواقع من مواقع تنفيذ المشروعات بعيدا عن أهله وبلدته بل وبعيدا عن المديرية التى تتبعها قريته دون أن تعلم أسرته شيئا عن أحواله أو عن البلد التى ذهبوا به إليها ... وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة ... أرجعوه إلى بلدته (اسطنها) فى حالة مزرية متهالكة سواء من ناحية صحته أو ملبسه وكافة شئونه ودون أن تكون فى حوزته أية مبالغ أو نقود كأجر نظير ما كان يقوم به من عمل ... حيث كان عمال السلطة هؤلاء يُساقون ويُجبرون على أداء تلك الأعمال الشاقة فى ظروف غير آدمية من أعمال السخرة دون إرادة منهم ودون مقابل عن جهدهم ... وكانت عودة عمى إلى أهله وبلدته كأنها بمثابة ميلاد جديد فى ضوء ما بدا عليه ولحق به من آثار فى صحته وملامحه بما جعله فى حال من المسخ والبؤس على نحو يجعل أهله يصعب عليهم التعرف عليه وكأنه قد صار شخصا آخر ...

وقد بقيت تلك التجربة الأليمة تمثل – لدى عمى – خبرة نفسية مريرة .. كان يحكى بعض جوانبها لبعض من خاصة أهله من حين لآخر .. وقد سمعت منه ذات مرة شيئا مما حفلت به تلك التجربة المنكرة البغيضة ..

٣- مواجهات محتشدة فاصلة:

نعرض فى هذه الفقرة من الكتاب عددا من المواقف ذات الطبيعة الخاصة بالنسبة لى نظرا لما تضمنه كل موقف من عناصر وملابسات تنطوى على مستويات أو درجات من الحرج

والتـأزم اسـتلزمت معهـا حـالات مـن التـوتر النفسـى والاحتشـاد الذهنى لحسم اختيار بذاته من بين عدد مـن الخيـارات والبـدائل وما يكتنف ذلك من دقة لحظة المخاطرة بانتقاء أحـد السبل ومـا يرتبط بذلك من تحمل مسولية نتائج المضى فـى التمسك بـذلك الخيار ..

هذا .. ولا يعنى تعرضى للحديث عن تلك المواقـف أن تكـون هى الأهم أو الأخطر فى رحلة الحيـاة .. ولكـن قـد جـاء ذلـك منـى لسبب أو لآخر أعيه يقينا فـى بعـض الأحـوال .. ولا أدرك بواعثـه تحديدا فى أحوال أخرى .. وفى كـل الأحـوال فـإننى أود بالحـديث عن تلك المواقف أن يكون تقديمها على نحو يجد القـارئ فيـه شـيئا ذا بال مما يـروق له ومما يخرج منـه ببعض الدلالات والعبر ..

والآن هيا بنا ندلف إلى ساحة كل من تلك المواقف:

(أ) فى ليلة كانت على موعد مع القدر:

فى مساء يوم ١٤ مايو ١٩٧١ وما أعقب تلـك الليلـة مـن صـباح يوم مشهود فى أحداث الحياة السياسية بالمجتمع المصـرى .. حيـث كان ذلك اليوم (١٥ مـايو ١٩٧١) يومـا فارقـا فـى حسـم الصـراع علـى السلطة بين السادات وبين الذين جرت تسميتهم بمـراكز القـوى .. كانت تلك لحظة حافلة بدأت عندها سفينة الـوطن تتخـذ توجهـا فى مسيرتها غير الذى كانت البلاد بصدده أو الذى كان يـراد لهـا أن تمضـى فيـه .. وقـد تحقـق ذلـك التحـول (الـدراماتيكى) نظـرا لمـا تمكّن للسـادات مـن تعامـل جسـور مـع أزمـة الصـراع تلـك بحنكـة وبـدهاء سياسـى كـبير ممـا عجّـل بـدخول الـبلاد إلى حقبـة ذات

منهجية مغايرة ترتب عليها ما حدث بعد ذلك تباعا من إيجابيات وسلبيات فى حياة المجتمع المصرى ...

أعود فأقول إنه فى مساء تلك الليلة عشت موقفا حافلا بالغموض والقلق والترقب .. وكنت وقتها أعمل بمجلس مدينة فارسكور (إحدى مدن محافظة دمياط) ولم يكن قد مضى أكثر من شهر ونصف على تكليفى بقرار من رئيس المجلس أصبحت بمقتضاه سكرتيرا لمجلس المدينة (باعتبارى أقدم الجامعيين الذين سبق إلحاقهم لأول مرة للعمل بالمجلس عند بداية تطبيق نظام الحكم المحلى فى مصر بدلا عن نظام البلديات القديم) وكانت وظيفة سكرتير المجلس التى كُلفت بها .. هى بمثابة نائب رئيس المجلس أو بمثابة الوكيل التنفيذى لإدارة المدينة .. وبناءً على تلك الوضعية من المسئولية فقد قام رئيس المجلس (فى تلك الليلة) بتكليفى بأن أنوب عنه فى المبيت بديوان مجلس المدينة حتى الصباح نظرا لظروف استثنائية بمثابة طوارئ قصوى كانت البلاد تجتازها بما يستلزم أن يكون المسئولون لدى المواقع الأساسية على أهبة الاستعداد لتلقى أية تكليفات تحسباً لما قد تقتضيه الظروف ... ولا أدرى لماذا لم يقم رئيس المجلس شخصيا بأن يبيت فى حجرة مكتبه تنفيذا للتعليمات التى صدرت إليه فى هذا الشأن وأنه ظل – ليلتها – داخل استراحته الحكومية بالمدينة والتى تبعد بعض الشئ عن مقر ديوان المجلس ... ولعل رئيس المجلس (الذى كان يعمل سابقا مدير مباحث جنائية برتبة عميد لدى إحدى مديريات الأمن) لعله فى تلك الليلة كان لسبب أو لآخر فى حالة لا يتمكن معها من المبيت يقظانا حتى

الصباح داخل مقر المجلس لذلك فقد أرسل الحارس الليلى لديوان المجلس وكان من كبار السن ويدعى (مرسى رضوان) أرسله رئيس المجلس الساعة العاشرة مساء إلى مقر إقامتى بالمدينة ليخبرنى أن رئيس المجلس طلب حضورى سريعا إلى ديوان المجلس والبقاء حتى الصباح داخل حجرة مكتبه .. ولما ذهبت على الفور إلى هناك .. اتصلت تليفونيا من حجرة المكتب برئيس المجلس فى استراحته .. وتحدثت إليه عن المطلوب تحديدا بشأن تلك المهمة الليلة الطارئة .. وعلمت منه ما يلزم حيث أوضح أن أكون إلى جانب التليفون بحجرة مكتبه لتلقى ما قد يأتى من تعليمات يجب أن أخطره بها فور مجيئها ... ولما كنت بطبيعتى حريصا على أن أكون على فهم وبينة بمفردات وأبعاد أى أمر أكلف به وأضيق بأى غموض أو تجهيل يتصل بمهمة قيامى بمسئولية أتولى أداءها ... ومن هذا المنطلق فإنه أثناء حديثى التليفونى إلى رئيس المجلس طلبت منه بعض الإيضاح عن طبيعة تلك المهمة والتمست أن تكون لدئ معرفة ولو بصورة إجمالية عامة بما يكون قد أتيحت له من معلومات عن الإطار الذى تدخل فى سياقه تلك المأمورية الليلية المطلوب منى أداؤها ... فأبدى رئيس المجلس تبرماً شديدا من استفسارى ومن طلبى بعض الإيضاح وقال لى فى صوت مفعم بالضيق: (إذا كنت لا تريد القيام بهذه المهمة .. أعفيك منها وأكلف غيرك بها) ... فوجدت - لحظتها — أن من الحصافة معالجة ذلك الموقف بشئ من المرونة والرزانة والحرص على إحتواء الموقف وتجاوزه دون عصبية أو تأزم .. فأجبت رئيس المجلس بأننى ألتزم القيام بمسئولية تلك المهمة بكل الرضا دون

أى غضاضة .. وأننى لم أكن مصراً على معرفتى الأسباب والظروف التى وراء تلك المهمة بدافع من الفضول .. وإنما الأمر كان مجرد طلب بعض الإيضاح ليكون لدىّ تصور عن تدبير ما يلزم على قدر طبيعة المهمة التى نحتشد من أجلها .. وإذا كان رئيس المجلس يعلم بالفعل شيئا عما يكون وراء ذلك الأمر ويرى من وجهة نظره أن هناك ضرورة يقدرها فى عدم الإفصاح عن شئ يتصل بذلك .. فإننى أتفهم وأقدر ما ذهب إليه .. فأبدى رئيس المجلس قبولا واقتناعا بما قلت .. وأردف قائلا: (ماشى) ...

ولما طلع النهار وأشرق صباح يوم ١٥ مايو .. كان ما كان مما تحدثت عنه كافة وسائل الإعلام من قرارات وإجراءات مدوية مثيرة تغيرت بها ومعها خريطة هيكل البناء التنظيمى لمواقع المسئولية الكبرى فى الدولة .. وتم التحفظ على كثير من أصحاب المناصب العليا .. وتشكلت هيئات وأنشئت مناصب ذات طابع قضائى لبحث مسئولية هؤلاء ومحاكمتهم بشأن ما نسب إليهم ... وأطلق على تلك الإجراءات الكبرى (ثورة التصحيح) .. وطاف شوارع المدينة موكب حافل يتقدمه كبار رجال الإدارة ورؤساء فروع المصالح ومديريات الخدمات .. وتصحب الموكب فرقة موسيقى نحاسية وتغشاه فى زحفه المتواصل فى أنحاء المدينة هتافات صاخبه وتحوطه موجات من التصفيقات والزغاريد التى تنطلق من الشرفات ومن أمام المقاهى والمحلات..

وكل ذلك جاء تعبيرا عن ابتهاج الناس بقيام عهد جديد فى مسيرة البلاد .. وكانت المدينة بذلك الموكب الزاخر .. كأنها فى عرس حافل وفى نشوة عارمة .. وقد شاعت تلك الحالة عند

غالب أهل المدينة إلا قليلا منهم .. أولئك الذين أطلق البعض عليهم – أيامها – أذناب مراكز القوى من أعضاء التنظيم الطليعى وأعضاء منظمة الشباب .. وفى ذلك اليوم المشهود .. انزوى كثير منهم فى عقر دارهم أو داخل بعض المقاهى .. يرقبون فى خشية وحذر ما يجرى من أحداث مدوية متسارعة ..

وقد تم بالفعل – ضمن سلسلة توابع ما حدث – أن قامت سلطات الأمن (حسب التعليمات) بالتحفظ على بعضهم .. وجرى ترحيلهم إلى مقر مباحث أمن الدولة وأخذ أقوالهم قبل الإفراج عنهم ..

ولم تكن أحداث مايو ١٩٧١ سوى حلقة من حلقات المد والجزر السياسى بين الفرقاء منذ أزمة مارس ١٩٥٤ دون الأخذ بآليات التداول السلمى الديمقراطى للسلطة القائم على مشروعية توفر إرادة شعبية هى تجسيد لمبدأ العقد الاجتماعى بين أطراف المعادلة السياسية فى الدولة الحديثة ..

(ب) من نماذج العاهات فى إدارة المحليات

فى شهر يناير عام ١٩٨٠ – وكنت أيامها رئيس قرية بإحدى محافظات شمال الدلتا – حضرت مؤتمراً شعبيا برئاسة المحافظ داخل مقر مجلس المدينة عاصمة المركز ... وفى نهاية المؤتمر أعلن المحافظ أنه قد أعد برنامجا لعقد مؤتمرات شعبية مماثلة بقرى المحافظة وأنه سيبدأ عن قريب بالقرية التى كنت رئيسا لها ..

ولما كان أهل القرية – إبان تلك الأيام – يجتازون ظروفا خاصة تتصل بسخطهم الشديد إزاء المسئولين الرسميين الذين تسببوا – حسب اعتقاد الأهالى – فى سقوط أحد أبناء القرية الذى كان مرشحا فى انتخابات مجلس الشعب .. وكان ذلك المرشح من المستقلين ويعمل أستاذا فى الجامعة .. وكان منافسه الذى فاز فى نفس الدائرة مرشحا عن حزب الحكومة (الحزب الوطنى) لا يحمل أى مؤهل دراسى وتصنيفه فى العملية الانتخابية (فئات) باعتباره أحد رجال الأعمال ...

وبحكم مسئوليتى كرئيس للقرية .. فقد لمست من خلال معايشتى لما يجرى هناك أن نقمة الأهالى قابلة – فى ظل تلك الظروف – أن تتسبب فى أمور سلبية غير مسئولة لو تم عقد المؤتمر الشعبى الذى أوضح المحافظ إقامته وشيكا بالقرية .. وكان توقع تلك المخاطر مبنيا على واقعة سابقة حيث حوّل أهالى القرية سخطهم إلى عمليات حرق وتخريب لبعض المنشآت الرسمية بالقرية .. واستتبع ذلك عمليات إلقاء القبض على بعض الأهالى بالقرية الذين اتهموا بمسئوليتهم عن أعمال الشغب كما تم وضع القرية تحت الحراسة الأمنية وخطر التجول عدة أيام .. وكان ذلك التذمر نتيجة ما اعتقده الأهالى تملصا من جانب الحكومة فى الاستجابة لطلبهم إقامة مشروع يلزم القرية.

.. أعود فأقول إنه نظرا لتلك الاعتبارات .. فقد أرسلت مذكرة إلى المحافظ ضمنتها طلب تأجيل عقد المؤتمر بعض الوقت لمدة شهر تقريبا حتى تهدأ الأمور لدى أهالى القرية للأسباب التى

أوضحتها بالمذكرة ... كان ذلك تقديرى للموقف حسب رؤيتى باعتبارى مسئولا عن شئون القرية .. ويبقى بعد ذلك أن يتخذ المحافظ ما يراه ملائما فى ضوء المعلومات التى ذكرتها ... وبعد إنقضاء أكثر من شهر على إرسال مذكرتى .. أى بعد فوات المدة التى سبق أن قدرتها حتى يكون الوقت ملائما لعقد المؤتمر .. فقد أرسل المحافظ فى استدعائى إلى مكتبه على أن يكون معى كل من رئيس المجلس الشعبى المحلى بالقرية وعمدة القرية – ولم يكن استدعاؤنا فى ذلك التوقيت نتيجة استجابة المحافظ لما اقترحته سلفا ولكن جاء تأخير عقد المؤتمر (كما سوف نوضح بعد) لأسباب أخرى قد يكون من بينها إنشغال المحافظ بمهام أخرى ... فلما توجهنا نحن الثلاثة إلى ديوان عام المحافظة مكثنا بعض الوقت بمكتب السكرتير الخاص تمهيداً لدخولنا إلى المحافظ .. وإذ بنا قد فوجئنا بخروجه إلينا وجلوسه معنا .. واستهل كلامه ببعض عبارات المزاح مع عمدة القرية الذى اتضح أنه كان صديقا لوالد المحافظ ... وما أن فرغ المحافظ من حديثه مع العمدة حتى قال فى استياء شديد تغشاه نبرة فجة ساخرة موجهاً كلامه تجاه عمدة القرية ورئيس مجلسها الشعبى المحلى: (الأخ ده رئيس القرية عندكم .. بعتلى يطلب عدم حضورى بلدكم .. والظاهر إنه خايف أكتشف هناك أنكم منتش عايزينه لو كان مش شايف شغله كويس)

وهكذا فجر المحافظ ذلك الموقف الدقيق بل والشائك بالنسبة لى فيما يلزمنى من رد فعل أواجه به ذلك الأمر الملتبس الذى تتداخل فيه كثير من الاعتبارات وتختلط به عديد من

النوازع والإنفعالات .. فضلا عن وجوب مراعاة ضبط النفس فى التعامل مع عناصر وأبعاد ذلك الموقف دون تصعيد أو شطط وإفراط فى رد فعل يمكن أن يتخذه المحافظ ذريعة فى إساءة استخدام سلطاته معى ... فكان أن وفقنى الله إلى إدارة تلك اللحظة المحتشدة المباغتة دون مضاعفات أو اندفاع إلى أزمة أصعب .. فقلت للمحافظ على الفور: (يافندم أنت تعلم أنه ليس لى أو لأحد غيرى أن يَحُول بينكم وبين زيارة أى موقع بالمحافظة سواء القرية التى أعمل بها أو غيرها .. وكل ما هناك أننى كنت قد طلبت تأجيل المؤتمر بعض الوقت حتى نوفر له نجاحا أفضل حين تكون لدينا مهلة نعد خلالها المطالب والاحتياجات التى تلزم القرية وينبغى طرحها بالمؤتمر للنظر فى إمكان تحقيق أى منها .. ونحن الآن فى انتظار مجيئكم إلينا بالقرية .. وسوف يكون مؤتمرنا ناجحا بإذن الله) ... وبعد قولى هذا أوضح المحافظ أنه حدد يوم ٢٥ فبراير لعقد المؤتمر بالقرية ... ثم كان أن جاء إلى القرية فى الموعد الذى حدده وتم عقد المؤتمر فى نفس الموعد تقريبا الذى سبق اقتراحه من جانبى.

ولو أننا بعد سرد تفاصيل ذلك الموضوع قد شئنا أن نخرج ببعض الدلالات من وراء ما انطوى عليه ذلك الأمر .. فإننى أجتزئ من ذلك (وهو كثير) إلقاء الضوء على جوانب تتصل بما صدر عن ذلك المحافظ من تصرف فج يفتقر إلى أدنى اعتبارات اللياقة الواجبة ويجافى السلوك الذى يلزم أن يتحلى به أى مسئول كبير أو صغير .. فضلا عن أنه فى معالجته لمختلف جوانب الموضوع لم يكن موفقا على أى مقياس إدارى أو حضارى..

فبدايـة أود أن أشير إلى أن المحـافظ صـاحب الموقـف الـذى عرضنا لـه آنفا كـان قبـل أن يـتم تكليفـه للقيـام بمسئولية ذلـك المنصب كان يعمل مديرا لمصنع متوسط الحجم تابع للقطاع العام داخل نفس المحافظة .. ولم يسبق لذلك الرجل أن كانـت لـه بحـال من الأحوال علاقة من قريب أو بعيد بالعمل فى مجال المحليات .. وقـد كـان شـأنه فـى ذلـك (للأسـف) شـأن معظـم الـذين كـانوا ولا يزالون يتم إلحاقهم أو الإغـداق عليهم وإتحـافهم بـأى مـن مواقـع المناصب القيادية فى مجال المحليات بداية بـرؤسـاء المـدن والأحيـاء ومرورا بسكرتيرى عموم المحافظات وانتهاءً بالمحافظين كان شـأنه شـأن أولئـك الـذين يـتم هبـوطهم أو إنـزالهم إلى تلـك المواقـع (بالباراشتات) دون أى سابق خبرة أو دراية بالعمل فى ذلـك المجال مـن مجـالات الإدراة العامـة .. وهـم (بتلـك الكيفيـة العشـوائية العبثية) من الذين يصدق فى شـأنهم قـول الكاتـب البـارع القـدير أحمد بهاء الدين الذى قـال فـى أمثـال هـؤلاء (إنهـم الـذين تلقـيهم أمواج الصدفة على ضفاف السلطة) ..

نعود فنقول إن المواقع القياديـة فـى مجال العمـل بالمحليـات كانت (منذ تطبيق نظام الإدارة المحلية فى مصر عام ١٩٦٠ وحتـى كتابـة هـذه السطور عـام ٢٠٠٨) هـى أكثـر مجـالات الإدارة العامـة استباحة للتعيين من خارج أبنـاء المهنـة من العـاملين ذوى الدرايـة والخبرة المتراكمة فى مجال المحليات .. الـذين يُحرمـون مـن حقهـم الطبيعى العادل فى الاختيـار مـن بيـنهم لتلـك المناصب القياديـة لدى ذلك القطاع سواء بالتعيين لأفضل العناصر أو بالإنتخاب كمـا

فى بعض الدول التى تأخذ بنظام الإدارة المحلية .. وذلك الإلتزام الذى يجب أن يكون فى اتباع معايير الجودة الحقيقية هو أوجب لتحقيق الصالح العام بدلا عن النهج غير المسئول الذى يُتبع باسناد مسئولية تلك المواقع لأفراد من فئات بعينها من خارج المحليات كما يدخل إلى جانب هؤلاء أفراد إنتهازيون وصوليون تهدى إليهم بعض تلك المناصب مكافأة لهم على قيام أى منهم بتنفيذ وتحقيق ما يطلب منه باتخاذ أساليب غير قانونية وغير نزيهة هى أقرب إلى تزييف إرادة الناس .. هذا فضلا عن حالات تعيين أخرى فى إطار المجاملات للأقارب والمحاسيب ...يحدث كل ذلك دون الإلتزام بأية معايير أو شروط ودون أى متابعة جادة لتقييم الأداء سواء من ناحية الكفاءة أو النزاهة ..

ونود ان نلفت النظر فى هذا السياق إلى أنه حتى لو حققت بعض العناصر التى يتم تعيينها وفقا لذلك النهج الغير قائم على أسس ومقومات .. لو تحقق عن أداء أى من هؤلاء مستوى من مستويات النجاح .. فهذا الاستثناء لا يجب أن نتذرع به لتسويغ الإستمرار فى كسر القاعدة الأصلية الصحيحة التى تقوم على منهجية وجوب تطبيق المعايير والشروط الموضوعية اللازمة.

وهكذا .. فإن ما عرضناه آنفا بشأن الكيفية التى عالج بها أحد المحافظين فى تعامله مع واحد من رؤساء القرى بخصوص موقف أو أمر من أمور العمل اليومى ... ما عرضناه كان مجرد نموذج يسير بالنسبةلعاهات شتى أكبر جسامة وأشد خطرا وضررا فى مجال إدارة المجتمعات المحلية .. وقد أحاط الناس ببعض تلك

العاهات من خلال ما رصدته وأمسكت به أجهزة الرقابة وما تناولته وسائل الإعلام .. ومن بينها أيضا تلك التى صادفتنى شخصيا فى رحلة عملى الطويلة بالمحليات من تعامل مباشر مع أكثر من عشرة رؤساء مدن وعدد من المحافظين .. وقد جاء أولئك وهؤلاء إلى مناصبهم من خارج العمل بالمحليات ... وكم عانيت مما كان يصدر عن كثير منهم من تجاوزات منفلتة غير مسئولة بل كانت فى بعض الأحيان غوغائية غير متحضرة .. كذلك .. كم كان أليما على النفس (عندما كنت سكرتير مدينة) أن بعض رؤساء المدن الذين عملت معهم – وياللمفارقة التى فرضتها بالباطل أساليب جائرة – كان ذلك البعض من رؤساء المدن أدنى منى فى جوانب شتى ... سنا ودراية بالعمل وتأهيلا علميا وفهما لشئون الناس والحياة بل ومرتبا ودرجة مالية ... ولو أن الأمور سارت – كما ينبغى لها أن تكون فى مسارها الطبيعى الصحيح والعادل أو قريبا من ذلك .. ما كان شيئ من تلك المفارقات أو المهازل والمظالم الفجة قد شقي به أى منا نحن رجال الرعيل الأول فى الحكم المحلى الذين تحملنا تجارب تطبيقاته فى مراحله المتعاقبة .. نحن أصحاب الحق الطبيعى فى أن نجنى ثمار جهدنا وأن نتبوأ ما نستحقه من مواقع للمسئولية نرتقى إليها بعد تراكم خبرات السنين وتعبها دون أن يحدث ما حدث من مصادرة حقنا واغتصابه منا وإعطائه بالباطل لمن لا يستحق ...

(ج) عند سلم هيئة دار الكتب:

فى الساعة العاشرة صباح يوم ٢٠٠٥/٧/٥ كنت أصعد درجات السلم الأمامى لمقر هيئة دار الكتب والوثائق القومية بشارع كورنيش النيل بالقاهرة ... وبعد نصف ساعة كنت أهبط فوق درجات ذلك السلم عقب قيامى بإتمام إجراءات رقم الإيداع الخاص بكتابى الأول (رؤية نقدية فى الواقع المصرى) الذى سلمت منه – يومها – عشر نسخ للحصول على رقم الإيداع ...

وقد كنت عند صعود السلم فى حالة غير التى كنت عليها عند النزول منه إلى كورنيش النيل ... فعند إرتقاء درجات السلم وأنا أتجه صوب مدخل الهيئة .. احتدمت فى نفسى مشاعر وأحاسيس مضطربة جائحة .. وانقدحت فى رأسى هواجس وخواطر متلاحقة أخذت بتلابيب عقلى على نحو مكثف شديد الإيقاع بما أفضى إلى أنه اتقدت فى كل كيانى جذوة لحظة دقيقة حاسمة حيث كان علىَّ وقتها أن أقرر وأختار إما أن أتقدم وإما أن أتراجع فيما يتصل بالتوجه داخل مقر الهيئة وتسليم العشر نسخ من الكتاب إلى المسئول المختص الذى يسلمنى وثيقة رسمية معتمدة متضمنة رقم الإيداع بما يفيد تسجيل الكتاب بدفاتر وسجلات الهيئة .. الأمر الذى يجعلنى – بعد إتمام تلك الإجراءات – مسئولا عما جاء بالكتاب من آراء وأفكار .. وعلى أن أتحمل نتيجة أية تأويلات أو تحليلات لفحوى ما كتبت .. خاصة أن الكتاب فى مجمله وحسب عنوانه يركز على إبداء عدد من الرؤى النقدية المتصلة ببعض جوانب الحياة العامة فى المجتمع .. ومع

أننى التزمت فى الكتاب بمعالجة موضوعية وتناول متجرد دون أى إسفاف أو تجريح لأحد .. وقلت ما أعتقد أنه حق من أجل الصالح العام ولتحقيق ما هو أفضل للوطن والمواطنين .. إلا أن هاجس التخوف من احتمالية سوء فهم ما جاء بالكتاب أو تأويله إلى أية مضامين سلبية لم أقصدها ... كان ذلك الهاجس يذهب ويجيئ داخل عقلى لحظة صعودى السلم الخارجى للهيئة خلال الثوانى الأخيرة السابقة مباشرة على تسليم المسئول المختص النسخ المطلوبة من الكتاب ثم قيامه بإثبات تلك الواقعة فى سجله ودفاتره ... وربما كان هناك – بالنسبة لى ولأى كاتب يتعرض لتناول مثل هذه الأمور – ما يبرر مثل ذلك الهاجس فى ضوء هذا الرصيد الهائل المتراكم على امتداد عقود متصلة بشأن تأثيم وتجريم بعض الرؤى... وبالرغم من استشعارنا جميعا ما طرأ فى السنوات القليلة الأخيرة من ارتفاع سقف حرية إبداء الرأى ومن انفراجة كبيرة فى مساحة وأفق اتساع صدر الدولة فى هذا السياق إلا أنه ظل لدى بعض النفوس من الكتاب وأصحاب الرأى بقية من هواجس التخوُف وعدم الطمأنينة.

أعود فأقول إنه نظراً لهذه الأسباب والاعتبارات .. فقد كان واردا ذلك الذى خامرنى عندما كنت أدلف إلى مقر هيئة الكتب فى ذلك اليوم ... وطبيعى أن أكون قد قمت بالفعل بمناقشة أمر رقم الإيداع وما يرتبط به وما قد ينشأ عنه من توابع أو تداعيات .. مناقشة ذلك مع نفسى .. وأن أكون قد راجعته طويلا وانتهيت فيه إلى قرار بعينه خلال أيام سابقة قبل تلك اللحظة التى تحدثت عنها فى هذا السياق ... ولكن وبالرغم من ذلك فإنه

عادة ما يحدث أحيانا لدى بعض الأشخاص وبالنسبة لبعض الأمور أن تحتشد من جديد وعلى نحو شديد الإيقاع والتكثيف كافة ما يتصل بهذا الأمر أو ذاك عند اللحظة الحاسمة الفارقة فى ممارسة فعل الإختيار النهائى الذى يتقرر معه مصير الأمر .. وأذكر أننى قرأت مرة رأيا لأحد المفكرين .. فحواه أن حالة التردد والحيرة أمام موقف ملتبس تكون أمرا واردا وطبيعيا طالما أنه لا تتوفر لدى الشخص صاحب الموقف حجة يقينية قاطعة تحسم هذا الجانب أو ذاك.

ثم كان أن حسمت أمرى وأكملت السير إلى داخل مقر هيئة دار الكتب .. وقمت (لدى المسئول المختص) بإتمام الإجراءات اللازمة وتسلمت إخطاراً رسميا معتمدا به رقم الإيداع بعد أن قمت بتسليم عشر نسخ من الكتاب ... وعقب ذلك أخذت فى الخروج من ديوان الهيئة .. وعند نزولى فوق درجات السلم الخارجى فى اتجاه شارع كورنيش النيل كنت فى تلك اللحظة مفعما بشعور عميق من الطمأنينة الخالصة التى ينبثق من ثناياها إحساس متدفق بنشوة عارمة ..

وقد غمرتنى تلك الحالة من البهجة الحلوة الناصعة التى أضاءت جوانحى .. وطربت لها أعطافى فى نشوة عذبة باهرة ... حدث ذلك من جراء ما تحقق لدىّ من إفاقة داخلية ومن شعور بخلاص مُؤزّر جاء تتويجا للحظة إنتصار ذاتى تم بها كبح وإقصاء كافة الهواجس المتصلة بمختلف الجوانب التى أشرنا إليها آنفا فى السطور السابقة .. فضلا عن الشعور الطلقّ الجميل بما وفقنى الله إليه من أمر صرت به (بعد إيداع عشر نسخ من الكتاب لدى

الهيئـة) .. فقـد صـرت كاتبـا مقـروءاً مـن خـلال الوسـائط التـى تتيحها هيئة دار الكتب بما فيها الوسائط الإلكترونيـة ... وبمعنـى آخر أحسست أننـى قـد أتـيح لى (بتوفيـق مـن الله) أن يكـون اسمـى متضمنا فوق خريطة فاعليات حركة الكتابة فـى مصـر .. وصار إسمى مُدرَجا فـى سجلات المؤلفين المصـريين .. وأننـى بـذلك قـد سـاهمت بتلـك المشـاركة فـى أن أكـون أحـد أفـراد قافلـة الكُتـاب والمؤلفين على امتداد أجيال الحركة الثقافيـة الذين يمثلون تـدافعاً لموكب التنـوير والتحـديث فـى مصـر سعياً علـى طريـق مشـروع النهضة الذى — يتعثر حينا ويمضى متوثبا مسرع الخطى أحيانـا ... وكان من بين الخـواطر والأحاسيس التـى خـامرتنى أيضـا فـى تلـك اللحظـات الهانئـة السعيدة أن تمثـل لـدئ شعور وكـأننى قـد غـرست نبتا أو فسيلة فى بستان المعرفة والثقافة فى مصـر ...

خاتـــمة

أردت أن أوضـح فـى هـذه الخاتمـة نقاطـا مـوجزة تتصـل بجوانب عامـة حـول منهجيـة كتابـة السيرة الذاتيـة ومـا يـرتبط بذلك من بواعث هذا النوع مـن الكتابـة ومـا يتصل بالغايـة التـى ينشدها الكاتب من وراء ذلك .. وأستطيع أن ألخص مـا أود الإشـارة إليه فى هذا الصدد على النحو التالى:

١- قرأت ذات مرة كتابا عن الأديب والمفكر الأيرلندى ذائع الصيت (جورج برنارد شو) ومن بين الذى قرأته فى ذلك الكتاب أن (شو) عزف عن كتابة سيرته الذاتية .. مبررا ذلك بأن حياتـه لـيس بهـا ما يستأهل أن يقول للناس عنه شيئاً ذا بال فى هـذا الصـدد .. وأن حياته — حسب قوله — ليس بهـا أيـة جوانـب فـذة خارقـة للعـادة كأن يكون أحد الأبطال الفاتحين العظام أو زعيمـا وقائـد أمـة مـن الأمـم .. وأنـه لم يسـبق لـه أن قتـل أحـداً أو سـفك دم أى مـن المخلوقات ولم يكن جباراً فى الأرض على أى نحو من الأنحاء ... ولما لم يكن هـذا أو ذاك فإنـه لا يجـد مُسوّغا يجعلـه يقـدم على كتابـة سيرته الذاتية أو شئ منها طالما أن حياتـه لـيس بهـا أى مـن تلك التجارب أو الأحوال غير الإعتيادية التى هى عادة مـا تـثير فضـول

الناس وشغفهم بأن يقفوا على ما يجئ بسرد تفاصيلها حين يتم تناولها والحديث عنها ...

وأعتقد — من وجهة نظرى — أن ما ذهب إليه الكاتب والناقد الكبير (شو) ليس صحيحا على إطلاقه .. ويظل ما قاله بهذا الصدد مجرد وجهة نظر تخصه هو .. ولا يتعدى ذلك إلى أن يكون ما ذهب إليه تنظيراً منهجيا له وجاهته أو صوابه القائم على أسس ومعايير تتصل بطبيعة الأشياء ومنطقية الأمور ... كما أرى أنه لا يلزم ولا يتحتم أن يتوفر شئ مما ذهب إليه (شو) ليكون مسوغا لأى كاتب (يتمتع بملكة متميزة تجعل منه كاتبا حقيقيا جديرا بهذا الإسم) أن يكتب تجربته الحياتية .... بل يكفى — فى اعتقادنا — أن يقول الكاتب للناس فى صدق وأمانة تجربته (أو بعض جوانبها) على نحو فيه من التحليل الواعى ومن الحنكة والعمق بما يفضى إلى استخراج الدلالات التى تفيد القارئ أو المتلقى على نحو يدهشه ويضيف جديدا إلى متعته الذهنية والوجدانية حتى لو كانت مفردات ما يتناول الحديث عنه من الأمور الاعتيادية اليومية .. فالعبرة بحِرفية وبراعة التناول .. ولا يتطلب الأمر أبدا أن يكون حديث الكاتب متصلا بعظائم الأمور أو بأحداث جسيمة الشأن أو أحوال ذات ترويع كبير أو فائقة الروعة ... وحتى بالنسبة للذين يكتبون عن تجاربهم أو يتناولون التعبير بكتاباتهم عن تجارب غيرهم ولكنهم يفتقرون إلى تلك الملكة التى تجعل مما يكتبون أدبا حقيقياً يرقى إلى المستوى الفنى والجمالى على نحو يليق بكتابة أدب حقيقى .. فإن أحداً لا يَحُول بينهم وبين الذى يرغبون فى كتابته إن شاء أى

منهم إنجاز فعل الكتابة فى هذا السبيل .. فهو حر فى أن يكتب ما يشاء والقارئ أو المتلقى حر فى أن يقرأ أو لا يقرأ وله أن يرضى عما قد يقرأه إذا راق له شئ من ذلك وله أن يسخط أو يزدرى كل أو بعض الذى يقرأه إذا لم يجد فيما قرأ شيئاً ذا بال.

٢- أما عن المدى الذى يمكن أن تمتد إليه أو تتناوله كتابة السيرة ... فلا أرى أنه يُستساغ أن يأتى أحد كائناً من كان من النقاد أو المتظّرين فى مجال الدراسات الأدبية ليضع معايير أو لزوميات تحتم وجوب أن تغطى الكتابة فى مجال السيرة مناطق أو مساحات بعينها تتصل بالتجربة الحياتية لصاحب السيرة التى يُرجى الكتابة عنها ... فكاتب السيرة حر تماماً فى أن يختار ما يشاء الحديث عنه من جوانب تلك السيرة دون أن يُلزمه أحد بتناول الحديث عن جوانب لا يرى ملاءمة التعرض لها ... وأعتقد أنه ينبغى علينا (أخلاقيا وفى ضوء التحلى بمقتضيات روح حقوق الإنسان) أن نحترم حق صاحب السيرة فى أن يبوح بما يراه من سيرته وفى أن يُمسك عن الحديث بشأن ما يجد عدم الكشف عنه لاعتبارات يقدرها هو .. وليس لأحد أن يتحى عليه باللائمة لأنه آثر عدم الخوض فى أمور لها عنده خصوصيتها وحميميتها أولها غير ذلك مما لا يرى مسوغا ليتناولها بالحديث فى سياق الكتابة عن سيرته ...

وهكذا فإن الكتابة فى مجال السيرة الذاتية (كجنس من أجناس الكتابة الأدبية) تظل لها خصائصها على اعتبار أنها فعل

إبداعى .. الأمر الذى يميزها عن أن تكون مجرد رصد وقائع كالتى ترد فى محضر تحريات يُضاف إلى ملف دعوى تخص أحد المواطنين ... فربما جاز فى مثل تلك الحالات ألأ ندع صغيرة ولا كبيرة فيما يلزم تدوينه وإثبات قيده فى متن الأوراق المطلوب استيفاؤها كما يحدث أحياناً عند حصر أو جرد محتويات مسكن أحد الأفراد حسب ما يتطلبه تحقيق واقعة ما أو على غرار ما نقوم به عند نقل عهدة من شخص إلى آخر ... كما يجوز أن نتحدث عن وجوب تناول مختلف الجوانب التى تدخل فى السيرة الذاتية إذا كنا نتصدى للكتابة وللتأريخ عن شخصية عامة أو تاريخية لها دورها فى صناعة أحداث من التاريخ .. فلا نتحيز بتعمد التغاضى عن أمور أو بالتعتيم على جوانب نغفلها أو نسقطها منعا من التحدث عن سلبيات قد تصل إلى أن تكون خطايا .. ولا يقل مثل هذا العوار فى التناول عن تعمد إفتئات أمور أو تضخيم جوانب على نحو يجعلها بعيدة عن الحقيقة منافية للواقع.

فليست الكتابة الأدبية فى مجال السيرة الذاتية خاضعة بالضرورة لأى وجوب أو حتمية على نحو ما أوضحنا آنفا .. كل ما هناك أنه ينبغى على الكاتب أن يكون (فيما يعالج من عناصر السيرة الذاتية) أميناً صادقا بالنسبة لما يكتبه عن نفسه أو عن الآخرين .. فلا يتكلف (أو يتصنع) شيئا من التلفيق أو الإفتئات .. كما لا يجدر به أن يسقط فى إقتراف شئ من الإسفاف أو التجريح والتطاول .. ويبقى للكاتب أن يكتب ما يشاء كيفما شاء دون أن

يغيب عن وعيه أن الكتابة الأدبية (باعتبارها أحد مجالات الإبداع الفنى) تستهدف ضمن غاياتها السامية أن تصل بالإنسان إلى أن يكون أكثر رقيا ونبلاً بما يساعد على أن يكون الناس أكثر شوقا وحبا للحق والخير والجمال.

٣- وعندما نطبق بعض الذى جاء بالفقرتين السابقتين من هذه الخاتمة على النهج الذى سلكته فى تناول موضوعات كتابى هذا .. فحسبى أن أشير إلى نقطتين أود توضيح كل منهما كما يلى:

(أ) تحدثت خلال فصول هذا الكتاب عن جوانب من تجربتى الحياتية .. ورأيت عن قصد منى عدم تناول جوانب أخرى حسب ما وجدته ملائما فى ضوء اعتبارات قدرتها ... وتأسيسا على ما أشرت إليه فى الفقرة السابقة مباشرة .. فلا يكون هناك وجه لمزايدة أو استدراك بدعوى أنه فاتنى أو غاب عنى تناول أمور قد يجد القارئ أنها مركزية أو جوهرية بالنسبة للحديث فى مجال أى من السير الذاتية .. ولو أن القارئ أعمل تفكيره فيما أوضحته بتلك الفقرة السابقة فقد يجد ما يحمله على إعادة النظر فيما يراه بهذا الصدد ولتبين له أنه ليس هناك مسوغا للقدح فى حق كاتب السيرة أن يختار ما يراه ملائما للحديث عن جوانب من تجربته الذاتية وأن يكف عما يجده ليس ملائما للتناول .. وقد سبق لنا أن أوضحنا – بالفقرة السابقة – كثيرا من الزوايا والملابسات التى تسيغ ذلك وتبرره ... وقد يرى كاتب السيرة أن هناك جوانبا أو مناطقا من نسيج حياته الذاتية ينبغى لها أن تظل بعيداً عن تناولها بالحديث .. إما لأنها بطبيعتها لها

خصوصيتها وأن لها من الإعتبار الذى يصونه عدم طرحها للتناول خارج نطاق خصوصيتها ... وإما لأن الخوض فى الحديث بشأنها يشكل مزالق ومحاذير على نحو لا تطيقه أو تسيغه الثقافة السائدة لدى غالبية أفراد المجتمع .. تلك الثقافة المجتمعية المتمثلة فى مستوى درجة الوعى وطريقة التفكير وزاوية النظر التى يتم التعامل من خلالها مع الأشياء ... الأمر الذى يجعل الإقتراب من أمور بعينها أمراً شائكاً صادما ومثيراً للنفور الشديد والسخط إذا جاء التناول مباشراً صريحاً .. ويكون أمرا مستهجنا ليس متقبلا حتى إذا جاء التناول مجازيا رمزيا غير مباشر.

(ب) ورد فى سياق بعض فصول هذا الكتاب سطور تحدثت فيها عن أمور واقعية حدثت بالفعل تتصل بمواقف تمثل وقائع وأحداث فى حياتى ارتبطت بشخصيات تشكل بتفاعلها مع تلك المواقف والأحداث دلالات كان لها بالنسبة لى آثار ونتائج تحدثت عن رؤيتى بشأنها فى تجرد وموضوعية (قدر استطاعتى) متوخيا الصدق فى التعبير عنها (صدقا فنيا شعوريا) ولم يخطر بوعيى وإحساسى حين عالجت أو تناولت ما انطوت عليه أبعاد تلك المواقف والشخصيات أن أتباهى أو أتفاخر ولم يَجُل فى خاطرى أى قصد لتزكية نفسى أو أحدا من خاصة أقاربى أو أصدقائى ومعارفى أو أحدا ممن صادفتهم فى بعض دروب حياتى ... وقد رأيت أن ألفت نظر القارئ إلى ذلك لأننا ألفنا كثيراً أن نجد بين الناس من يستسهل ويتسرع بغير روية أو تدبر بأن يدخل فى تأويلات وتفسيرات غير دقيقة يطلق من خلالها رؤى وأحكاما تشكل اتهامات جائرة فى شأن أمور يراها من منظوره حسب ما ألفه وتعوده من طريقة للتفكير فى فهم الأشياء على نحو يغلب عليه سوء الظن بالناس والحياة ... أقول ما تقدم حتى لا يذهبن

أحد من القراء إلى شئ مما أوضحت آنفا حين يطالع ما أوردته وتحدثت عنه من خلال سطور بهذا الكتاب ذكرت فيها أمورا اعتبرتها بكل الصدق من قبيل التحدث بأنعم الله وبمثابة التنويه ببعض ما أنعم الله به من فضل على كاتب هذه السطور باعتبارها من الأمور التى يسرها الله لى وكانت ذات قيمة حقيقية رفيعة الشأن كما كان لها أثر بالغ بعيد المدى وتأثير إيجابى نافع فى حياتى ... ومن الملائم فى هذا السياق أن نذكر قول الله تعالى فى الآية القرآنية الكريمة "وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ".

المؤلف فى سطور

★ مغاورى همام مرسى

★ ولد فى ١٩٣٥/١١/١٧ (إسطنها – منوفية).

★ حصل على ليسانس الآداب (قسم اجتماع) من جامعة عين شمس عام ١٩٦٠- وحصل على دراسات فى الإدارة العليا ببرنامج القادة الإداريين عام ١٩٨٤ .

★ مدير عام بالمعاش – ومن أعماله السابقة بالحكومة:

- رئيس قرية.

- سكرتير عام مدينة .

- رئيس مجلس تنفيذى بالحكم المحلى:

- رئيس مجلس تنفيذى قرية (عمل أساسى .. سبع سنوات).
- القيام بعمل رئيس مجلس تنفيذى مدينة ومركز – فى أعوام ٨٢- ٨٤- ١٩٨٥ .

- مُحاضر فى المهارات السلوكية والإدارية – بمركز التديب الإدارى بمحافظة دمياط خلال سبعة عشر عاما (عمل إضافى).

- القيام بتدريس اللغة الإنجليزية بالتعليم الثانوى الفنى – خمس سنوات (عمل إضافى).

★ عضو المؤتمر القومى العام للحكم المحلى (عام ١٩٧٧).

★حائز على جائزة جمعية العقاد الأدبية (عام ١٩٧٧).
★ شارك فى عدة ندوات ومؤتمرات أدبية منها:

ندوة ناجى – ندوة نادى القصة – ندوة صالون العقاد – مؤتمر أدباء الأقاليم (يُسمى حالياً مؤتمر أدباء مصر) – مؤتمر أعلام دمياط.

★ له عدة مقالات ودراسات تم نشرها بالجرائد والمجلات المصرية والعربية.

★ كتب للمؤلف :

- رؤية نقدية فى الواقع المصرى – برقم إيداع ٢٠٠٥/١١٩٩٤ .
- حديث الزمان والمكان برقم إيداع: ٢٠٠٨/١٣٤٣٥.

الترقيم الدولى: ٩٧٧-٣٥٧-١١٤-٩

الفهرس

